

مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد الرابع والاربعون

بغـــداد

٨٥

١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

شروط وضوابط النشر

١ ـ تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢ ـ لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعى الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣ ـ يشترط في البحث ان لايكون قد نشر او قدم للنشر في مجلة اخرى .

٤ ـ تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيان مدى اصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥ ـ هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث الى اصحابها في حالة عدم قبولها للنشر .

٦ ـ يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات التالية : ـ

ا ـ ان يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة او مكتوباً باليد بخط واضح وجيد وعلى وجه واحد من الورقة .

ب ـ ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

ج ـ يجب ان لاتزيد عدد الصفحات عن (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لايتجاوز (٧٥٠٠) سبعة الاف وخمسمائة كلمة .

د ـ ان يكون مستوفيا للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقا تاما حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

هـ ـ يرفق بالبحث ما يلزمه من اشكال او صور او رسوم او خرائط او بيانات توضيحية اخرى ، على ان يوضح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار الى المصدر اذا كانت مقتبسة .

و ـ ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربياً .

٧ ـ يعطي صاحب البحث ـ عند نشره ـ ثلاث نسخ من المجلة مع عشر مستلات من بحثه .

٨ ـ المواد المنشورة تعبر عن راي كاتبها .

مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

ـ توجه البحوث والمراسلات الى : رئيس تحرير مجلة المجمع العلمي المجمع العلمي ـ ص . ب . (٤٠٢٣) بغداد ـ جمهورية العراق هاتف : « ٤٢٢١٧٢٣ ـ ٤٢٢٢٠٦٦ » فاكس : (٩٦٤ ـ ١) ٤٢٥٤٥٢٣

ـ الاشتراكات : داخل العراق (٤٠٠) دينار سنويا .
خارج العراق (٥٠) دولار امريكي سنويا وتضاف اجرة البريد .

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

في السادس والعشرين من تشرين الثاني احتفل المجمع العلمي بمرور خمسين عاماً على تأسيسه ، وكان العيد الذهبي مناسبة للحوار بذهنية متفتحة لتجديد وسائل العمل وتطويره ومناقشة الخطط التي تنسجم مع التطور التاريخي للعلوم والتقانة والآداب والفنون .

إنّ نتائج البحث العلمي تغنى بالمناقشة والتمحيص ولهذا تعقد المؤتمرات والحلقات النقاشية لسماع الرأي الاخر لانضاج الافكار وتطوير النتائج . ومن هذا المنطلق قررت هيئة تحرير مجلة المجمع العلمي ان تكون البحوث المنشورة في المجلة معروضة للمناقشة خلال مدة ستة أشهر من تاريخ نشرها وهي مدة زمنية مناسبة لجعل الباحث والقارىء على اتصال بافكار البحث ونتائجه والتوصل الى الخلاصة المتأنية من تفاعل الآراء .

والمجلة تتطلع الى مشاركة الباحثين والقراء بتعقيباتهم التي نأمل ان تكون مركزة بما لا يزيد عن ثلاث صفحات ، وأن توفق هذه الخطوة لخدمة الحركة العلمية في عراقنا الناهض

والله ولي التوفيق .

أ. د. ناجح الراوي
رئيس المجمع العلمي
رئيس التحرير

كيمياء وصناعة العطور عبر التاريخ

أ. د. جلال محمد صالح
عضو المجمع العلمي
استاذ في جامعة بغداد

تمهيد :

تقترن كلمة « العطر » منذ فجر التاريخ بظواهر الرخاء والترف والجمال والاناقة . عُرِفتْ صناعة العطور لدى الصينيين ولدى سكان وادي الرافدين وبعض البلدان المحيطة به ، وعُرفت كذلك لدى المصريين القدامى . أُستخدمتْ العطور منذ القِدم للاغراض الطبية ، وعند ممارسة الطقوس الدينية ، وكذلك عند القيام ببعض الاعمال السحرية ، وأُستخدمت أيضا لاغراض التطبيب والتجميل .

أنتقلتْ صناعة العطور الى البلدان الاوربية وبشكل خاص الى اسبانيا وفرنسا وايطاليا والى بعض البلدان المجاورة الاخرى . وكان من ثمار انتقال هذه الصناعة الى اوربا تصنيع ماء الكولونيا في القرن الثامن عشر وتصنيع عطور الشانيل (رقم ٥) والشارلي في القرن التاسع عشر وكذلك التقدم الكبير الذي حصل في هذه الصناعة فيما بعد .

فالعطور ليست مادة شمية فقط ، بل هي جزء متكامل من النتاج المستخدم لاغراض التحسين والتطهير والتنظيف ولحجب الروائح الكريهة ، وهي عموما تضيف الى اناقة الفرد وجماله ومظهره . تُعَدُّ مواد التنظيف والعطور في يومنا هذا من المواد الاساسية بالنسبة الى متطلبات الحياة اليومية ، وهي مقياس التقدم الصحي والاجتماعي عند كافة الشعوب .

التاريخ القديم :

تشير الدلائل التاريخية (١) الى ان صناعة العطور كانت من اهم الصناعات التي اشتهرت بها بلاد وادي الرافدين وبعض البلدان المجاورة لها وكذلك لدى الصينيين والمصريين القدامى • تشير ألواح القرن التاسع عشر قبل الميلاد (١) الى استخدام العطور في بعض العلاجات الطبية • واستخدمت الزيوت الاساسية المستخرجة من النباتات (٢) للعلاج ومنع العدوى • وتشير دراسات المؤرخين للعهد الاشوري (١) الى استعمال السكان للزيوت الاساسية (٢) لمسح الجسم لدرء عواقب الحمى ولتفادي احتقان البلعوم • ويشير نص سومري يعود تاريخه الى الالف الثالث قبل الميلاد (١) الى استخدام الزيوت الاساسية (٢) والخلاصات المائية التي تحمل هذه الزيوت في وصفات طبية خاصة • ويروي المؤرخون (١) ان كميات هائلة من البخور كانت تستخدم سنويا في معهد يعل البابلي • وقد أفادت طقوس العبريين من البخور والمسح بالزيت المقدس والمواد العطرية الاخرى كما جاء وصف ذلك في العهد القديم (١) •

وثمة كسب آخر لمؤرخ الكيمياء بالنسبة الى سلسلة الادلة المتعلقة بالمرحلة البابلية من تطور هذا العلم يتمثل في مجموعة النصوص الخاصة بتصنيع العطور يعود تاريخها الى القرون المتأخرة في الالف الثاني قبل الميلاد (١ـ٤) • وكان البابليون ينتجون الادوات الطبية بضروب شتى من الحجوم والاشكال والتي كانت قادرة على مقاومة درجات الحرارة العالية (١ـ٦) • وكانت الادوات التي تستعمل في صناعة العطور شبيهة بالادوات الطبية تتضمن (١ـ٦) تشكيلة من الاوعية مثل الطاسة او الصحن والقدر المعدني ذي الغطاء ، وقدورا واقداحا للقياس ودوارقا للعطر • واستعمل البابليون المنخل أو المصفاة في عملياتهم • وكان يجري (١) استخلاص المادة العطرية من الزيوت الاساسية بعمليات معقدة أشتملت على الحل بالنقع

والاستخلاص بالماء اولا وبالزيت بعد ذلك كوسيط للزيوت الاساسية التي أحتوت على العطر • ولم تكن عمليات الاستخلاص كلها متشابهة • فقد أعتنت° بعض العمليات ببعض الخطوات وذلك باضافة المزيد من المواد الخام (وهي المادة النباتية المسحونة والمعصورة) ، واعتنت خطوات اخرى بالاستخلاص باستعمال الحرارة والزيت والبعض الاخر باستعمال الزيت فقط أو الماء فقط • وتؤكد المعلومات التاريخية (١ــ٤) ان صنع العطر البابلي كان عملية مضجرة مستنفدة للوقت ، وغالية الكلفة • وكانت عمليات التنقيع التي استخدموها في الصناعة تتألف من عشرين خطوة من الخطوات المملة التي تتضمن كل واحدة منها عددا من العمليات المساعدة الاضافية • ان التصعيد والتقطير يردان في النصوص التاريخية القديمة (١ــ٦) •

والدلائل تشير الى إمكان وجود مرحلة وسطى في تاريخ كيمياء وتصنيع العطور تتمثل بمجموعة الكيميائيين المصريين وكيميائيي الاسكندرية بوجه خاص والمتهنين التجاريين لهذا الفن ، وهذا لا يقلل من اهمية كيمياء وصناعة العطور البابلية • والغالب ان الكيمياء القديمة في هذا المجال لم تنتقل كليا إلينا عبر الادبيات المكتوبة ، ولكنها نقلت بالتقاليد القديمة المتداولة في نقل المعرفة والتقنيات من الاب الى الابن وعبر منظمات المهنيين والصناع (١ــ٦)•

كان استعمال النار امرا ذا أهمية بالغة في كثير من العمليات الكيميائية (١ــ٥) • وكان صانعوا النار في العهد الذي دونت فيه نصوص صنع العطور محاطين بهالة شخصيات أسطورية ، وتلك اشارة الى ان تطور أساليب الحرق والتسخين كان قد عرف قبل ذلك بسنين طويلة (١ــ٥) • ويلاحظ في جميع ارشادات تصنيع العطور القديمة وجود اهتمام خاص بالنار وباشعال النار وكثافتها ووجود اهتمام كذلك بعمليات التبريد •

إن كون النساء قد أحتلن مكانا في تاريخ الكيمياء القديمة هو أمر ظل حتى وقت متأخر موضع نزال وجدال (١ ، ٨ــ١١) ، وفي مثال ماريا

اليهودية حاول فون ليبمان انكار دور هذه الشخصية (١) المعروفة جيدا في المخطوطات الكيميائية اليونانية والعربية • وأثبتت الوقائع التاريخية (١) ان اسم ماريا لم يكن محض افتراض بل كان اسم امرأة حقيقية عُرِفت دواخل مملكة المطبخ واقترن به اسم « حمام ماريا » • ويشير التاريخ (١) الى كليوباترة كمعلمة وكاشفة للفلسفة الكيميائية المقدسة • ولعل ثيوسيبيا أخت روسيموس قد اشتغلت هي الاخرى مكانا في كيمياء الاسكندرية القديمة • ولازالت ثمة قطعة من رسالة من أخيها روسيموس يناقش فيها قضايا كيميائية بحتة •

وعلى هذا ، فليس غريبا في ضوء بروز النساء في الكيمياء في العهود المسيحية الاولى أن نجد نصوصا في العطور تشير الى المرأة كمحضرة للعطور (١ ، ٨ـ١٠) • ان ثيوتي ـ بيلا تيكاليم ـ صانعة العطور تذكر كمرجع خبير ، وفي نصوص اخرى تذكرُ نينو ninu صانعة العطور كمؤلفة(١)• وكان الرجال نشطين أيضا في صناعة العطور ، إلا أنه بات من المتفق عليه ان النساء في ضوء عدد المطابخ المذكورة في التاريخ القديم قد نشطن بقسط أوفر في صناعة العطور •

وهناك قليل من الشك ان الكيميائيين في بلاد وادي الرافدين وفي بعض البلدان المجاورة لها كانوا عموما رفيعي المهارة على الرغم من عدم متانة وجودة أجهزتهم ، لكن معالجاتهم الموضوعية للتقانة خاضت طريقا طويلا للقضاء على هذه الصعوبة ، وان صناعة العطور البابلية مثلا تَفَصَّلَ في العمليات المتنوعة مثل الحل والنقع والتسخين واستخلاص العطور باستعمال الماء أو الزيت او كليهما معا وباجراء الترشيح والتصفية والاذابة والتقطير وغيرها من المعالجات الكيميائية (١ ، ٨ـ١٠) •

وإنه ليتضح حقا من الطبيعة التجريبية الشمولية لالواح العطور ان شعوب بلاد وادي الرافدين القديمة لم تكن قد بدأت بَعدُ في شرح الظواهر

الكيميائية ، او انها لم تضع بعد أية قوانين عامة في هذا الحقل • ومن جهة اخرى ، فان الكيمياء كانت قد باتت تراكم رصيدا من المعرفة الحقيقية من الخبرة والتجربة قبل ان تغدو علما حقيقيا (٥ـ٨) •

المساهمة العربية الاسلامية :

قدمت الحضارة العربية الاسلامية الكثير الى كيمياء وصناعة العطور • وكان ممن لهم دور بارز في كيمياء وصناعة العطور هو العلامة العربي ابو يوسف الكندي (١ ، ١٢ـ١٧) • والدراسة البابلية للكيمياء يمكن مقارنتها مع كتاب الكتندي الموسوم بـ « كيمياء العطور والتصعيدات » (١٢) الذي يعود تاريخه الى القرن التاسع بعد الميلاد وذلك من اجل كشف معطيات ومواد جديدة في أصول كيمياء العطور العربية ، كذلك لاقامة الدليل على اصول المعرفة الكيميائية العربية عموما (١٢ـ١٧) • فالكندي حرص على تفصيل أجهزة التقطير والتصعيد التي أستعملها في عمليات تصنيع العطور • وهناك رسوم مصنفة للاجهزة التي أستعملها في تلك العمليات مثل « الانبيق » وهو بمثابة جهاز التكثيف (١٢ـ١٧) في التقانة الحديثة ، و « المستوقد » الذي يستقر عليه القطر ، والوعاء الطيني المفخور ، أو المعدني (طنجير ـ قرعة) الذي توضع فيه المادة التي يراد تقطيرها ، و « القابلة » وهو الجهاء المستقبل ، و « الاهليل » الذي يقوم مقام المكثف في تقنيات اليوم •

وكان الكندي يستعمل عددا واسعا من صنوف الاوعية (١٢ـ١٥) مثل الكوب (القدح) ودورق للزيت (قارورة) وطاسة من الزجاج او الطين بأشكال مختلفة ، وحوضاً (طشت) وقدرا مصنوعا من الحجر الابيض وآنية للعطر وغيرها من المعدات واللوازم • وكان من بين الاشياء الباقية في ورشة الكندي ، والتي أستعملها الكندي في صنع عطور ، المنخل (او الغربال) وحجر الرحى ، واداة للغرف (المغرفة) وطابوقة للتسجيل (قرميد) وانبوبة

طينية للماء (بربخ) وموقدا (تنور) واغطية استعملت للاستخلاص بالاغلاء أو التقطير عند التبريد كقطعة من القماش (ثوب) وقماشة من الكتان ودثار (لباد) وأداة للسحن (هاون) (١ ، ١٥) •

يتناول الكندي في كتابه « كيمياء العطور والتصعيدات » (١٢ـ١٧) صنع انواع كثيرة من العطور بعد أن يأخذ من العطر نفسه شيئا • فقد استهل كتابه هذا في أبواب صفة المسك فأشار الى عدد من المخاليط التي تؤدي الى تحضير المسك بعد العمليات الكيميائية المفصلة التي يُشير اليها • ويتناول الكندي « الورس » ويذكر ثلاثة طرائق لتحضيره ، ويأتي الى صنعة العبير الجيد وصنعة محلب وصنعة عود ويشير الى عود « يحكى الهندي » • ويذكر صنعة العنبر وتصعيد الكافور وتصعيد ماء الورد اليابس وتصعيد الياسمين والى صنعة دهن عجيب •

ويتطرق الكندي في كتابه الى عمليات كيميائية عديدة كالترشيح والتقطير والى استعمال الحمام المائي وحمام البخار الرملي وحمام الرماد ، ويرسم شكلا يمثل فيه عمليات التقطير فيذكر الموقد والآتون ثم القرعة والانبيق وغيرها (١٢ـ١٧) • ويذكر الكندي عددا كبيرا من المواد العطرية وكثيرا من مركباتها في الزيوت والمراهم • ورغم ان نصوص صنع العطور لا تشير الا الى عدد ضئيل من المواد العطرية ، الا اننا نعلم من المصادر الطبية والطقوسية والتاريخية ان شعوب ما بين النهرين كانت مطلعة على انواع كثيرة جدا من المواد العطرية التي شاع استعمالها في صنع واعداد المنتجات العطرية • وكانت تلك المواد تستخدم بصورة منفردة او ممزوجة معا (١٢ـ١٨) •

ان نصوص العطور العربية الاسلامية لم تشر بأي شكل الى الاستعانة بالغيبيات ، وليس هناك ثمة نصيحة او عظة في تلك النصوص ، ولم تتضمن كذلك الاستعانة بالله • فالكندي كان يطلب عون الله وتوفيقه على طريقة

المؤمن البار الطيب ، ولكنه كان متحررا من أية معالجة غير طبيعية أو سحرية او خرافية في عمله • وتقف هذه المعالجة الموضوعية في نصوص العطور العربية الاسلامية في تضاد ملحوظ مع البناء الفوقي المضطرب المفروض على بعض حقول الكيمياء ابان العهد الهيليني (١) •

لقد عرف جابر بن حيان بانه احدث صَنْعَة في عدد المرات التي ينبغي فيها صهر الذهب لتحويله الى اكسير (١٤–٢٢) ، وقد ناهز ذلك الالف مرة في الصهر • وكان التصعيد والتقطير يكرر كذلك عددا من المرات لا حصر له لغرض الحصول على النقاوة المطلوبة (١٣–١٥)• ويمكن أن نجد أصل هذا التكرار في كيمياء العطور في بابل (١) • وكان اجراء بابلي لهذا الغرض يتطلب (٤٠) استخلاصا ومثلها من خطوات التكرار في التقنيات الخاصة باستحصال العطور ، فقد كانت تستدعي التكرار (٢٠) مرة فأكثر ، وتتطلب كل خطوة منها عمليات مساعدة • وكان هذا العدد من خطوات التكرار ضروريا في العصور البابلية الوسطى مادام التقطير لم يكن امرا معروفا في كل مكان • وكان الكندي شديد الاهتمام بالدقائق والتفاصيل في وصف « المستوقد » وكذلك في رسومه التخطيطية • وكانت كثافة النار وشدتها تنظم وتوصف تفصيلا (١–٥) لاسيما عند معالجة العطور التي تتمتع بنسبة عالية من التطاير والتي كانت تتركب من مواد ذات درجات غليان واطئة • وكانت صناعة العطور والمواد ذات الصلة بها قائمة على قدم وساق في بغداد وغيرها من المدن العربية الاسلامية أيام ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وكان لها صناعها من ذوي المهارة والاختصاص • وكانت منتجات بغداد من العطور تصدر الى البلدان المجاورة (١٣–١٨) •

أشتهرت بغداد بصناعة واستخلاص العطور (١٣–١٨) • وقد تفنن أصحاب معامل الزجاج في صنع القناني والاباريق الجميلة بحجوم وألوان مختلفة وذلك لحفظ العطور فيها وعرضها في الاسواق في محلات بيع العطور •

وكان المسك من أجَلّ انواع العطور وأغلاها ثمنا ، وهو عطر حيواني مصدره « غزال المسك » ويؤتى به من بلاد التَبت° وبعض مناطق الهند والصين • وتغنى به الشعراء وذكره الادباء في أحاديثهم • وقد ورد ذكره في الحديث الشريف « خذي فرصة مسكنة فتطيبي بها » والفرصة هنا تعني قطعة • والمسك اسم مُعَرّب ، وكانت العرب تسميه « المشموم » • وبقى الاسم هكذا في كثير من اللغات الاجنبية كالانكليزية والفرنسية والالمانية ، فيقال musk, muschus • وقد عرفت في يومنا هذا المادة الكيميائية الموجودة في تركيبه وأمكن فصلها وتشخيصها وتبين انها من صنف « التربينات الحلقية » Cyclic Terpenes وتُعرف باسم muscone (١٣) •

ويذكر من العطور الحيوانية الجليلة « العنبر » الذي يؤتى به من مناطق البحر الاحمر ، ومصدره افرازات « حوت العنبر » Sperm Whale ويسمى بالانكليزية Ambergis ويسميه اليابانيون « روث الحوت » • وقد اطلق عليه ابن البيطار (١٣–١٦) اسم « قرن الحوت » واستعمل في مداواة الحميات المزمنة وبعض الامراض العصبية • وقد عرف الان اسم المادة الكيميائية الموجودة في تركيب العنبر وتبين انها من نوع الكولسترولات Cholestrols (١٣–١٦) •

وتؤلف العطور النباتية صنفا مرموقا من العطور • واغاب هذه الزيوت تعرف اليوم بالزيوت الطيارة Volatile Oils او الزيوت الاساسية Essential Oils • ويعود السبب في تسميتها بالطيارة الى قدرتها على التطاير والتبخر السريع ، وهي سُميت° بالاساسية لانها تؤلف جزءا اساسيا في مواد النبتة وتختص بها • وتتركز الزيوت الطيارة او الاساسية في اجزاء معينة من النبتة • فقد تكون موجودة في الجذور او السيقان او الاوراق او الاثمار او في البذور • فهي موجودة في اوراق الورود•

وقد تكون الزيوت هذه موجودة في جسم النبتة كلها • والنباتات العطرية التي تحتوي على الزيوت الاساسية في تركيبها كثيرة جدا ومعروفة منذ اقدم العصور ، ومنها اشجار معمرة كبيرة الحجم ومنها شجيرات حولية ومنها أعشاب فصلية ، والامثلة على ذلك كثيرة نرد منها : حَبُّ الهال (الهيل) ، والياسمين والنرجس والعطرة والنعناع (النعنع) والحبة السودة (الشونيز) والحبة الحلوة والحشيشة الليمونية والليمون والحمضيات بانواعها المختلفة • ويكون العطر مركزا في القشرة الخارجية للاثمار (١٩ـ٢٠) •

وهناك اشجار معينة تستخلص منها عطور طيبة الرائحة مثل اشجار الدارسين (الدار صيني) • ويستخلص الدارسين (ودهن الدارسين) من القشور الخارجية للسيقان • والدار صيني (أي خشب الصين) هو مادة السينامون Cinamon باللاتيني وتحتوي على المادة الكيميائية المعروفة بحامض السينامي Cinamic Acid والالديهيد السينامي Cinamic Aldehyde الذي يسمى ايضا بألديهيد الدارسين • ودهن الزعفران يستحصل عليه من نبتة الزعفران • ويحتوي الدهن على المادة الكيميائية المعروفة بالساسفرول Sassfrol أو السافرول Safrol • ويحضر دهن الجاوي من انواع معينة من « الميعة » (١٣ـ١٧) •

إن عمليات استخلاص العطور هي عمليات كيميائية بسيطة نسبيا • وقد أجاد بها القدماء لاسيما في عصور الحضارة العربية الاسلامية سواء في صنع الادوات والاجهزة الخاصة بالاستخلاص ام في طريقة الصنع والتقنية • وماء الورد الذي شاع استعماله منذ القدم يحضر في يومنا هذا في مناطق مختلفة من العراق • وتتم عملية استخلاص الزيوت الطيارة (أي العطور) منها بطرائق بسيطة تشتمل على التقطير بالبخار Steam Distillation وهي طريقة معروفة منذ العهود البابلية وتطورت في عصور الحضارة العربية الاسلامية •

وتوجد نباتات كثيرة تكمن فيها زيوت طيارة او مواد عطرية طيبة الرائحة ويتخذ من سيقانها الغضة عود تفرك به الاسنان للتنظيف وتطيب به رائحة الفم • وكانت هذه عادة قديمة عند العرب ولا يزال السواك يستعمل في الجزيرة العربية بكثرة • واستعمل العرب عصير نباتات معينة لتنظيف اللثة والفم والاسنان ، ومن اشهرها النبتة المعروفة باسم « عاقر قرحا » او « عود القرح » وهي عشبة من جنس نبتة البيبون (البابونج) • وتستعمل هذه المادة للاغراض الصيدلانية وفي تركيب مساحيق الاسنان (١٣ ــ ١٥)• وهناك مواد تتمتع بالنكهة والرائحة الطيبة استعملها العرب كتوابل • فالكركم مادة لها طعم طيب ولها أسماء مختلفة في العربية مثل « عرق صفريم » وزعفران الهند وهرد وورس•ويتخذ الاسم من اللفظة البابلية كركانو Kurkanu وقد عرفه سكان وادي الرافدين معرفة جيدة ، واستعملوه في صنع التوابل وفي الصباغة • والزعفران هي نبتة عرفت عند البابليين واستعملت في الطب وفي تحضير البهارات • ويذكر ابن الجوزي في « المنتظم » (١٥ ، ١٩ــ٢٠) ان اسواق بغداد ومنها سوق العطارين ، كانت غاصة بمختلف انواع العطور لان العطار كان الشخص المتخصص لبيع مثل هذه المواد • فكانت تباع في دكاكين العطار مواد صيدلانية والعطاريات القديمة ومواد التجميل والعطور•

كتبَ العرب كتبا عديدة حول العطور • ويذكر ابن النديم (١٦) اسماء اكثر من عشرة كتب مؤلفة في العطر ومن بينها كتابان نفيسان للعلامة الكندي وهما كتاب العطر وكتاب كيمياء العطر بالاضافة الى الكتاب الذي اشرنا اليه فيما مضى لنفس المؤلف •

كيمياء وصناعة العطور الحديثة :

المواد الخام التي تستخدم في صناعة الروائح والعطور في الوقت الحاضر هي مخاليط معقدة من النواتج الطبيعية Natural Products مع بعض الكيميائيات العطرية المصنعة (٢٣) • وتستحصل النواتج الطبيعية هذه عادة من الزيوت الاساسية Essential Oils الموجودة في بعض

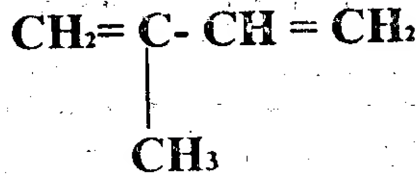
النباتات . والزيوت الاساسية تؤلف جزءا أساسيا ومهما في بعض النباتات ، فهي موجودة كما ذكرنا سابقا في جذور او سيقان او اوراق او ازهار او اثمار أو بذور بعض النباتات . وسميت هذه الزيوت ايضا بالزيوت المتطايرة ، وسميت كذلك بالزيوت العطرية بسبب رائحة العطر التي تنبعث منها بسبب بعض المواد الموجودة في تركيب هذه الزيوت . وقد تبين منذ وقت غير قليل ان المكونات الكيميائية لتلك الزيوت هي مزيج معقد من مركبات عضوية غير حلقية وحلقية وأروماتية وحلقية غير متجانسة .

فالتربينات Terpenes هي مركبات كيميائية امكن فصلها من الزيوت الاساسية وهي تحتوي في تركيبها على الكربون والهيدروجين او على الكربون والهيدروجين والاوكسجين ولا تمتلك هذه المواد اية صفة أروماتية. والمواد التربينية الموجودة في بنية الزيوت الاساسية تكون عادة بشكل سلسلة مفتوحة او متفرعة او تكون حلقية التركيب . وقد ثبت ان هذه المركبات التربينية تكون اما هدروكربونية او كحولية او ألديهدية او كيتونية او تكون بشكل أكاسيد غير كيتونية .

هناك طريقتان تقليديتان لفصل الزيوت الاساسية من النباتات وذلك بجانب بعض الطرائق الحديثة المستخدمة في يومنا هذا .

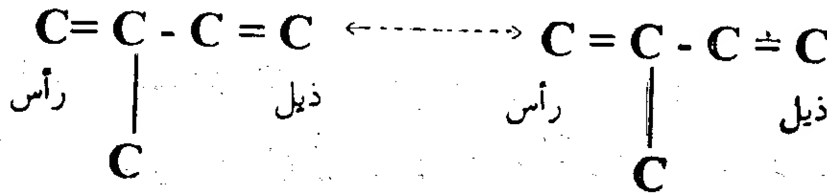
وأستخدمت الطريقتان التقليديتان لفصل الزيوت الاساسية من النباتات على نطاق واسع منذ سنين طويلة ، وهما طريقة التقطير التجزيئي Fractional Distillation وطريقة الاستخلاص المذيب Solvent Extraction

دُرست التراكيب الجزيئية للتربينات باستفاضة خلال العقود القليلة الاخيرة ووجد انها تتكون من وحدات الايزوبرين C_5H_8 التي تكتب بالصيغة :



جـزيئـة الأيـزوبرين

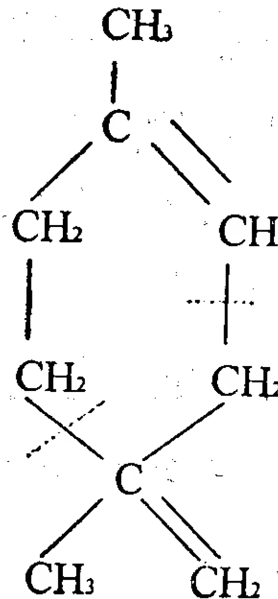
وترتبط هذه الوحدات مع بعضها البعض عادة خلال اتصال ذيل جزيئة أيزوبرين مع رأس جزيئة أيزوبرين ثانية على النحو :



جزيئـة المايرسـين

لتكوين جزئية المايرسين • وقد يتم احيانا ارتباط ذيل جزئية ايزوبرين مع ذيل جزئية ايزوبرين ثانية خلافا للقاعدة المشار اليها آنفا •

يتألف ابسط تربين معروف من وحدتي ايزوبرين ، ويكون بشكل سلسلة مفتوحة (غير حلقية) كالمايرسين Myrecene او يكون بشكل حلقي كما في الليمونين Limonene



الليمونـين

يوجد المايرسين في العديد من الزيوت العطرية ، واستخلص لاول مرة عام ١٨٩٥ من زيت شجرة الغار Bay وكذلك من شجرة الاوجاع Verbena ويوجد كذلك في زيت حشيشة الدينار . والاوسيمين Ocimine هو شبيه بالمايرسين من حيث الصيغة الكيميائية ولكنه أقل ثباتا منه ، ويستخلص من اوراق نبات اليافانيس Javanese ومن الزيوت الاساسية لبعض النباتات الاخرى . أما التربين الهدروكربوني المسمى بالليمونين فهو منتشر في زيوت عطرية عدة مثل زيوت الليمون والبرتقال والكمون والبرغموت .

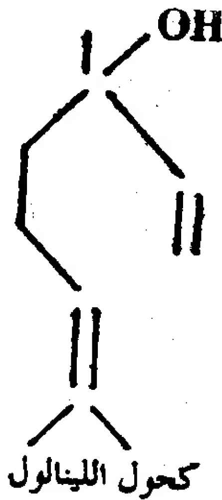
تُصنَّف التربينات بحسب عدد وحدات الايزوبرين التي تتألف منها ، ويكون قانونها العام $(C_5H_8)_n$ حيث n عدد وحدات الايزوبرين في جزيئة التربين . ويعتمد التصنيف ايضا على الطريقة التي ترتبط بها ذرات الكربون الموجودة في جزيئة التربين . فالتربينات الاحادية مثلا قد تكون غير حلقية او احادية الحلقة او ثنائية الحلقة . وقد تكون التربينات موجودة على هيئة مشتقاتها بشكل كحولات او ايثرات او الديهيدات او كيتونات او على هيئة خلائط هذه المواد . وقد يحتوي التربين على ذرات هدروجين اضافية ، أو تكون بعض ذرات هدروجينها منزوعة وقد يكون التربين على هيئة هدروكربونات مؤكسدة . والتربينات المشتملة على الاوكسجين عُرفتْ منذ القدم باسم « الكافورات » ومفردُها « الكافور » غير أن هذا الاسم لم يَعُد يُسمح باستعماله في يومنا هذا . والصيغة الكيميائية العامة للكافور هي $C_{10}H_{16}O$ وهو كيتون مشبع ، والمركب ثنائي الحلقة .

يُستخلص الكافور من شجرة الكافورة التي تُدعى Cinnanomum التي تنتشر في جزيرة فرموزة . ويُستخلص من هذه الشجرة زيت عطري خاص يُستخرج منه الكافور بالتجميد بعد تحويله الى معقد مع حامض الكبريت ، ونظرا لاهمية الكافور في تحضير بعض العقاقير الطبية والعطور

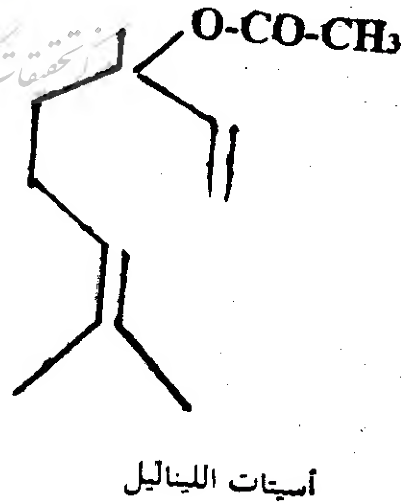
واستعماله كملدن لنترات السليلوز بدأ العلماء منـذ زمن طويل بدراسـة المركب • وجرى تحضيره أيضا من زيت التربنتين المستخلص من السـائل الصمغي لاشجار الصنوبر بعد فصله من المـادة الراتنجيـة بعملية التقطـير البخاري • والكافور موكب كيميائي صـلب يمتاز برائحـة خاصة ويتسامى بدرجة حرارة الغرفة ، وله فعالية بصرية • إن غالبية مشتقات التربينات تتمتع بروائح عطرية طيبة •

ولابد لنا من الاشارة الى بعض انواع الزيوت الاساسية التي تستخدم بصورة مباشرة في الصناعة الحديثة للعطور ، ونذكر منها •

١ ــ اللاونـــدا Levender هو زيت اساسي مهم يستخدم بشكل كبير في صناعة العطور في الوقت الحاضر ، ويسمى ايضا بزيت اللاوندا Levender Oil • ويكثر وجـود هـذا الـزيت في أزهـار انواع خاصة من النباتات • ويحتوي على مكونات كيميائيـة رئيسة مثـل كحول اللينالول Linalool وأسيتات اللينالول Linalyl Acetate



كحول اللينالول



أسيتات اللينالول

واللاوندا الانكليزي له رائحة خاصة بسبب محتواه الواطيء من الاستر Ester ، لذا فانه يباع باسعار اغلى من اللاوندا الفرنسي الغني بالاستر • وتتركز صناعة العطور الفرنسية على المنحدرات الجنوبيـة لجبال الالب • وقد خصصت تلك المناطق لنمو نباتات خاصة لاستخلاص

زيوت أساسية فيها لاستخدامها في صنع العطور • ويتم الحصول على زيت اللاوندا من ازهار تلك النباتات بعملية التقطير البخاري •

٢ ـ الياسمين Jasmine الذي يُسمى ايضا بزيت الياسمين • ويُستحصل عليه من ازهار الياسمين البالغة وذلك بطريقة الاستخلاص بالمذيبات مثل مذيب اثير البترول Petroleum Ether وبعد ازالة المذيب تبقى مادة سمنتية القوام وتكون على هيئة مادة شمعية ذات لون برتقالي مائل للاحمرار نظرا لاحتوائها على كميات محسوسة من المواد الشمعية •

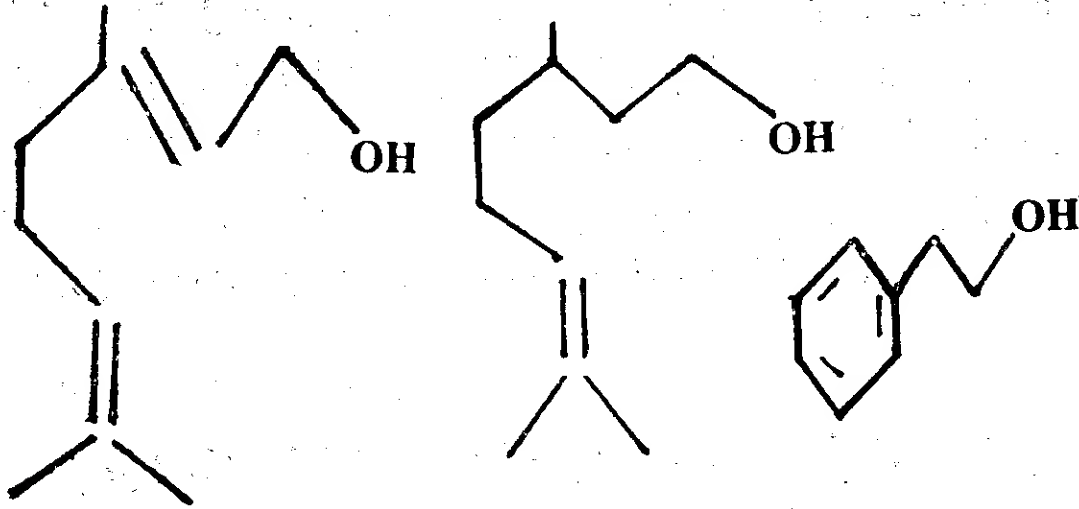
يُفضل استخدام الياسمين على هيئة مطلق الياسمين Jassmine Absolute • ويُستحصل عليه بغسل المادة السمنتية التي اشرنا اليها قبل قليل عدة مرات بالكحول الدافىء فتتخلف بهذه العملية مادة شمعية غير ذائبة في الكحول • ويتم تبريد المحلول الكحولي بعد ذلك بشكل مفاجيء ثم يُفصل الراسب منه بالترشيح ، وتتم ازالة الكحول من الراشح بالتسخين الهادىء تحت ضغط واطيء وبذلك يتم الحصول على مطلق الياسمين • ومطلق الياسمين هذا مادة تذوب في الكحول وهو يحتوي على العديد من المكونات ذات الروائح الطيبة • ومطلق الياسمين يكون بهيئة مادة لزجة بلون برتقالي داكن ويحتوي على مواد عطرية ثمينة • والطن الواحد من ازهار الياسمين البالغة (التي تضم من ٦ الى ٨ ملايين من الازهار الناضجة) يحتوي على ٢ر٧ كيلوغرام فقط من المادة السمنتية التي يمكن الحصول منها على حوالي ٤ر١ كيلوغرام من مطلق الياسمين •

٣ ـ مسك الروم Tuberosa ويُستخلص من ازهار مسك الروم • ويتم الحصول على مطلق مسك الروم من زيت مسك الروم بطريقة خاصة • والازهار التي تنتج مطلق مسك الروم تتمتع بخصائص

انتاج زيت مسك الروم حتى بعد قطعها وحصادها • توضع الازهار عادة على صوانٍ واسعة تحتوي على شحوم • وتقوم هذه الشحوم بامتصاص زيت العطر الذي تنتجه الازهار وهي مفروشة على طبقة الشحم • وتترك الازهار هكذا في تماس مع طبقة الشحم لمدة ٢٤ ساعة حتى يتشبع الشحم تماماً بالزيت العطري المتسرب من الازهار • ويصبح الشحم المشبع بالزيت العطري هنا بمثابة المادة السمنتيةالتي أشرنا اليها عند التحدث عن الياسمين • ويتم استخلاص المادة الشحمية المشبعة بالزيت بوساطة الكحول وبعمليتي التبريد والترشيح • ويؤدي تركيز المستخلص بعد ذلك الى الحصول على مطاق مسك الروم • ويكون هذا المطلق على هيئة عجينة لينة بنية اللون لها رائحة المسك الطيبة •

٤ ـ الورد (Rose) ـ لاشك ان اكبر مستخلص عطري يمكن الحصول عليه الآن يتم بتقطير أوراق الورد • ويعود تاريخ الحصول على العطور بهذه التقانة الى سكان بلاد وادي الرافدين وما حولها ، وتؤرخ به حقبة معينة من التاريخ • إن زراعة أنواع خاصة من الورود للحصول منها على زيت العطر كانت مألوفة في هذه البلاد وفي بعض البلدان المجاورة مثل تركيا وايران وانتقلت هذه الصناعة الى بلغاريا حتى ترسخت فيها عام ١٧١٠م •

ويتم الحصول على عطر الورد بالتقطير البخاري للازهار • وتجري هذه العملية بعد قطف الازهار مباشرة • ان ما يتم جمعه من تقطير الازهار بهذه الصورة سرعان ما ينفصل الى طورين هما الزيت المباشر وماء الورد • ويعاد تقطير ماء الورد ثانية ، والحجم الكبير من الزيت الذي يتم فصله بهذه الطريقة يخلط مع الزيت الذي تم عزله من التقطير الاول وذلك للحصول على عطر الورد • وينجم هذا السلوك الغريب بسبب ذوبانية انواع الكحول المستخلصة (٢٦ـ٢٨) والتي تشتمل على الجيرانول Geranol والسترونيلول Citronellol وكحول الفنيل والاثيل Phenylethyl Alcohol



كحول الفنيل والأثيل　　　كحول السترونيلول　　　كحول الجيرانول

وعطر الورد البلغاري سائل اصفر شاحب قليــلا ، وبتبريده الــى ٢١ درجة مئوية تنفصل منه بلورات عديمة اللون والرائحة تـدعى بــ (ستيروبتين Stearopten امــا الســائل المتبقــي فانــه يـُدعــى بــ (ايليــوبتين Eleaopten الــذي يحتــوي على جميــع المكونــات العطــرية ذات الرائحة العطرة التي تـُستخدم في صنع انواع مختلفة من العطور •

وتنتج بعض بلدان العالم العربي مثل مصر وتونس بشكل خاص زيوت الاساس بكميات كبيرة ، وتنتج زيت القرنفل الغني بمــــادة Eugonol من براعم ازهار بعض انواع الورد •

زيــوت الحمضــيات :

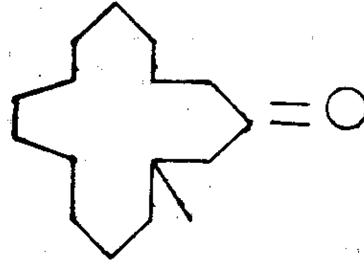
تقوم بلدان كثيرة في العالم ولاسيما اسبانيا وايطاليا وفرنسا وامريكــا بالحصول على زيوت الحمضيات لاستخدامها في صناعة العطور • ويـُستحصل على هذه الزيوت من قشور الاثمار بتقنية خاصة تدعى العصر Expression يتم فيها سحق القشور لغرض تحطيم جدران الخلايا التي تحتوي على الزيوت الاساسية • وتنتج اسبانيا وايطاليا زيــت الليمون وزيــت البرتقال وزيــت اللالنكي (يوسف افندي) في حين تنتج جزر الهند الغربية زيــت ليمــــون

الحامض • وتعمل بعض البلدان على انتاج زيت العطر من ازهار الحمضيات (كالبرتقال وليمون الحامض) بعملية التقطير البخاري للازهار • وتلجأ بلدان كثيرة اخرى الى الحصول على زيت الأساس من اوراق واغصان اشجار بعض الحمضيات ، وبهذا يتم الحصول على اكثر من نوع واحد من زيت الاساس لاستخدام مخاليط من هذه الزيوت في صناعة العطور •

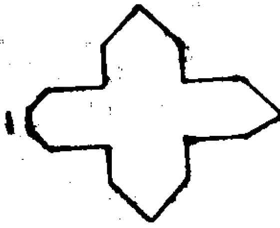
البحوث الكيميائية التطويرية :

البحوث الكيميائية التي جرت على زيوت الاساس في العقود القليلة الاخيرة أصبحت تركز على تشخيص المكونات الكيميائية غير الاعتيادية الموجودة فيها ، وفصلها ، واخضاع تلك التي تتمتع بالرائحة والنكهة الطيبة للدراسة والبحث العميقين • وقد امكن مثلا فصل اوكسيد الورد Rose Oxide وهو في واقعه ايثر تربينو يدي Terpenoid Ether الذي تم التعرف عليه (٢٩) في زيت الورد البلغاري وذلك عام ١٩٥٩ • وهذه المادة تكون عادة ذات لون أخضر حشيشي ولها رائحة نفاذة وتستخدم في تصنيع العطور التي تضاف الى الصوابين • وأمكن فصل سلسلة من المشتقات التعويضية لمركب « أكيل أللوكسي البايرزين » من زيت القنة (الكلبانيوم) Galbanium Oil • واصبحت هذه المواد بالتالي من اهم مقومات العطور الحديثة وللمواد التي تمتاز بالنكهة الطيبة (٣٠) •

أستخدمت الصناعة في وقت سابق عددا محدودا من النواتج الطبيعية المشتقة من المصادر الحيوانية في صناعة العطور ، ومن أمثلة تلك النواتج الطبيعية « المسك Musk » و « والزباد Civet » • واستطاع الكيميائيون منذ وقت ليس ببعيد تصنيع مركبات كيميائية بديلة عنها • وقد تحقق ذلك في الانجاز الرائع الذي حققه العالم المعروف روزيكا Ruzieka الذي استطاع (٣١) تحديد البنية الحلقية للمركبين سيفيتون Civetone والماسكون Muscone .



ماسكون



سيفينـون

وهناك مواد كيميائية تتمتع بروائح عطرية وهي موجودة في بعض المواد النباتية الطبيعية ، واهتم الكيميائي الصناعي في العقود الاخيرة بعزل هـذه المواد من مصادرها الطبيعية بعملية التقطير التجزيئي • وبتطبيق هذه التقنيـة على زيت الليمون الاخضر Lemon grass Oil او علـى زيـوت مشابهة امكن الحصول على نتاج جيد من مـادة سترال الالدهيد • وتتمتـع هذه المادة برائحة الليمون الطازج ولكنها تفتقر الى الثبات والاستقرار ومـع ذلك فهي تستخدم اليوم كمادة وسطية لتصنيع انواع معينة من العطور •

وهناك مادة اخرى تدعى أيوجنول Eugnol التي تسـتخرج عادة من زيت القرنفل • والخصائص الفينولية لهذه المادة تفيد في تحضير ملح الصوديوم من المكونات الهدروكربونية لهذا الزيت • ويعامل ملح الصوديوم بطرائق كيميائية خاصة للحصول على مثيل الايوجنول Methyleugnol ومثيـل الأيـزو ايوجنـول Methylisoeugnol وهي مـواد تستخدم كمضافات ومقومات في صناعة العطور الحديثة (لاحظ المخطط ١) •

غـاق الفجـوات :

والاسلوب الاخر في البحث عن مواد كيميائية جديدة مصنعة والتـي تتمتع بالرائحة الطيبة والنكهة يكـون في غاق الفجـوات التـي تركتهـا الطبيعة (٢٣) • ومعلوم ان الكثير من مسارات الوراثة الاحيائية تؤدي الـى

تكوين زيوت اساسية ولكن القواعد التي تخضع لها تلك المسارات تنطوي على إلغاء بعض تلك المسارات وعدم امكان حدوثها في الحالة الطبيعية • ولتوضيح هذا الامر يلاحظ ان ايا من المسارات التي ذكرناها لا يؤدي الى تكوين مركب كيميائي يحتوي على مجموعة البيوتيل الثلاثي T. Butyl Group • وعلى هذا كان من المنطقي أن يفكر المحضر الكيميائي في ايجاد طرائق لادخال هذه المجموعة في مركب كيميائي ذات أهمية في صناعة العطور •

فالمركب بيوتيل فينول P - T - Butylphenol يمكن تحضيره بسهولة من الفينول والآيزوبيوتين • ويؤدي ادخال الهدروجين والاسيتون في المركب الناتج الى تكوين مركب اسيتات بيوتيل حلقي هكسيل P - T - Butylcyciohexyl الذي يكون بصيغتي عبر Trans و تجاور Cis • وصيغة التجاور للمركب تتمتع باستقرار أقل من الصيغة الاخرى ، ولكنها مفضلة من قبل صناع العطور • وتحضير هذا المركب يمثل بداية قصة النجاح للمحضر الكيميائي • وافادت° الرائحة القوية البلسمية لهذا المركب في استعماله على نطاق كبير في صناعة العطور •

وتمثل الايونونات (Ionones) مجموعة من المركبات التي تمتاز باهمية بالغة في صناعة العطور (٢٣–٢٤) • ويمكن تحضير هذه المركبات بالتكثيف الالدولي للسترال Aldol Condensation وهي المادة التي تفصل عادة من زيت اخضر الليمون • ويتكون في التفاعل مركب الآيزوأيونون Pseudoisoionone الذي يُعامل مع حامض الكبريت للحصول على مادة بيتا ايونون B - Ionone • ان استعمال هذه المادة في صناعة العطور محدود جدا ولكنها مادة وسطية في تحضير الفيتامين (أي) • وعند استعمال حامض الفسفور بدل حامض الكبريت يتم الحصول على النظير ألفا أيونون a - Ionone

وتتعقد العملية بعض الشيء عند احلال الاسيتون محل كيتون الاثيل والمثيل ، اذ يتكون مركبان هما مثيل الايونون الاعتيادي والايزومثيل الايونون • وبغلق السلسلة باستعمال حامض الكبريت يتكون مركبان متوافقان من سلسلة بيتا • وعند استعمال حامض الفسفور بدل حامض الكبريت يتكون مركبان رئيسان لالفا مثيل الايونون ، وهي المواد التي تستخدم بكثرة في صناعة العطور في يومنا هذا (لاحظ المخطط ٢) •

التربينات المصنعة : Synthetic Terpens

تُستخدم التربينات المصنعة اليوم على نطاق واسع في صناعة العطور الحديثة (٢٣ ــ ٣٢) • وتتسابق الشركات الصناعية في تحضيرها بطرائق أقل كلفة • والمادة الاولية التي يتم منها تحضير التربينات هي ألفا α أو بيتا (B) بينين (Alpha - and or B - Pinene) وهذه المادة تُعَدُّ من المكونات الرئيسة لمعظم التربينات • واضافة الهيدروجين الى هذه المركبات (أي الى البينين) تؤدي الى تكوين مادة البينان (Pinane) التي تتم اكسدتها بعد ذلك باستخدام الهواء او الاوكسجين للحصول على هيدرو بيروكسيد البينان Pinane Hydroperoxide • ويتم بعد ذلك اختزال هذا المركب الكيميائي للحصول على الكحول المناظر وهو البينانول Pinanol • وعند التسخين الحراري لهذا الكحول يتكون كحول التربين Terpene Alcohol الذي يسمى ايضا باللينالول Linalool وهي مادة تُستخدم اليوم في صناعة العطور بسبب رائحتها النفاذة المميزة •

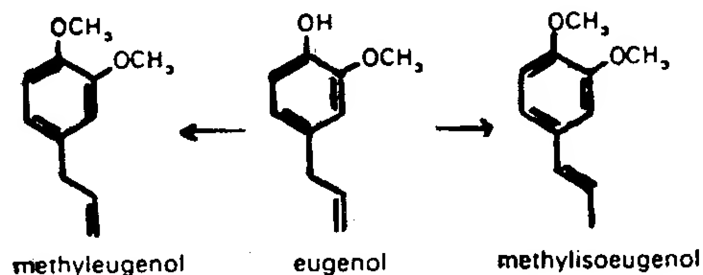
ويؤدي التحويل الاليايي Allylic Transposition لموقع مجموعة الهيدروكسيل في المركب الى تكوين مزيج من الجيرانويل والنيرال Geranial - Neral الذي يمثل المادة الوسطية في تحضير الايونونات

وباختزال الاصرة المزدوجة المترافقة في السترال تتكون Ionones . مــادة سترونيلال Citronellal التي لا تعد ذات اهمية كبيرة في صناعة العطور ولكنها مادة حيوية في تحضير المينثـول Monthol وهو المكون الرئيس في صناعة معجون الاسنان وفي تحضير بعض المواد الاخرى ذات النكهة الطيبة.وتكتمل الدورة عند الحصول على مادة سترونيلول Citronellol المستخدمة بكثرة في صناعة العطور الحديثة بسبب رائحة الورد التي تنبعث منها (لاحظ المخطط ٣) .

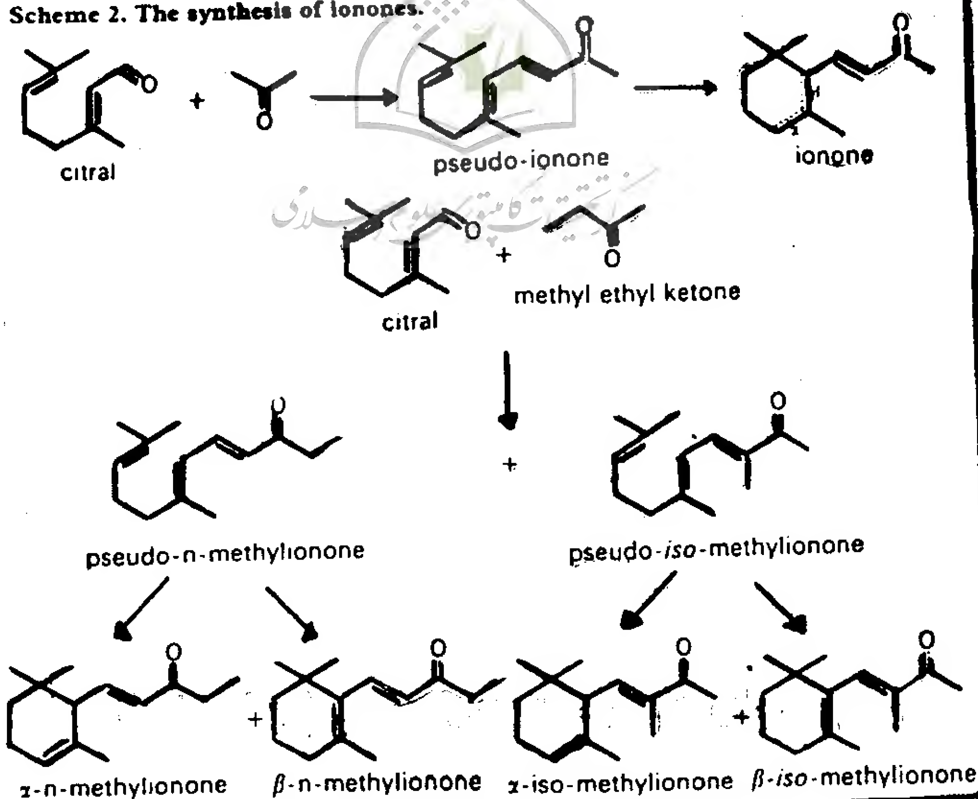
الخلاصـــة :

يجري تصنيف المواد المصنعة المستخدمة في صناعة العطور على اساسين: كمي ونوعي . فزيت الاساس هو محصول نباتي يُستحصل عليه عادة من النباتات ، ويتوقف انتاجه على الظروف الموسمية والمناخية . ويؤدي الاعتماد عليه في الصناعة على حصول ارتفاعات وانخفاضات في اسعار العطور التي تنتج منها ، بعكس المواد المصنعة التي يمكن التحكم في كمياتها واسعارها في السوق ، ومنع حدوث اضطرابات في آلية وسيولة تجهيز الاسواق بها . اما من حيث النوع ، فان نوعية زيت الاساس تتباين من موسم الى اخر على عكس المواد المصنعة التي يمكن اخضاعها الى مواصفات نوعية ثابتة وبحسب الطلب.

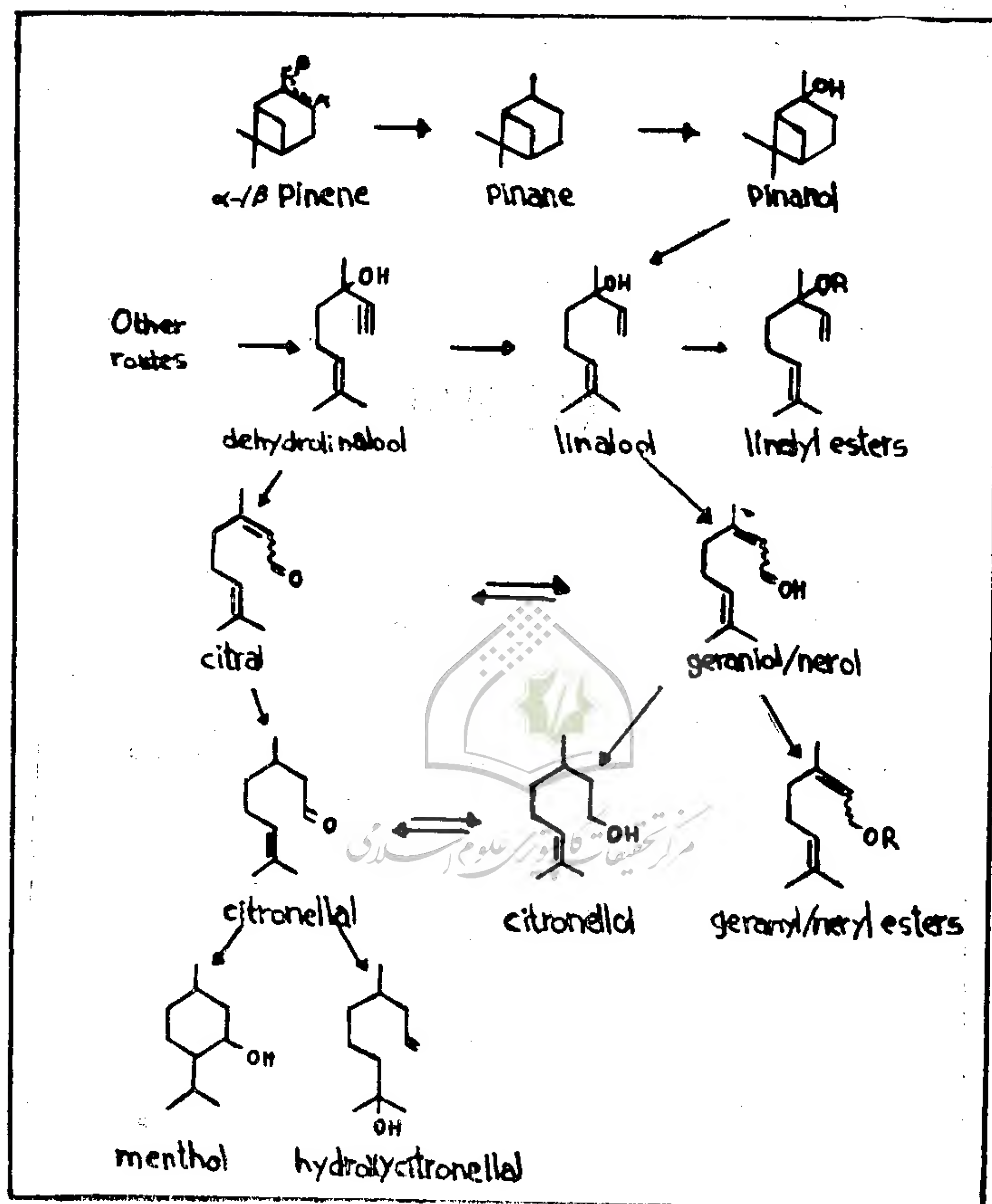
فالتربينات المصنعة شَغَلَتْ خلال ربع القرن الاخير حصة مهمة في اسواق العطور العالمية ، ولكن ليس بمقدورها ابدا أن تحل تماما محل زيت الاساس المستخدم في هذه الصناعة . فالرائحة والنكهة المستخلصتين من التربينات تبقى غير متكاملة قياسا بالرائحة والنكهة التي تتمتع بها العطور المحضرة من زيت الاساس . فزيت الاساس يشتمل على مخاليط معقدة من مواد عطرية وتتمتع بروائح تفوق في الطيبة والتأثير على تلك التي يتم الحصول عليها من التربينات المصنعة .. ولابد لنا من الاشارة الى ان الزيوت الاساسية غالية الثمن نسبة الى اثمان المواد المصنعة ، وعلى هذا فانه يجدر بالمشتغلين في هذه الصناعة ايجاد نوع من التوازن في الاعتماد على هذين المصدرين الاساسيين في صناعة العطور في يومنا هذا .



المخطط (١)



المخطط (٢) ـ تحضير الأيونونات



المخطط (٣) ـ مسارات لتحضير التربينات

المصـادر المعتمـدة

١ ـ الكيمياء والتكنولوجيا في وادي الرافدين ، تأليف مارتن ليفي ترجمـة محمود فياض المياحي وجواد سلمان البدري وجليل كمال الدين ، سلسلة الكتب المترجمة (١٦) ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٠ الصفحات ١٨٣ـ ١٩٩ .

2. E. Guenter, Essential Oils, (New York 1948), I.P. 145.

٣ ـ تاريخ العلم ، تأليف جـورج سارتون ، الاجـزاء ١ـ٦ ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٤ ـ تاريخ العلم والتكنولوجيا ، ترجمة الدكتور اسامة امين الخولي ومراجعة محمد مرسي احمد ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٧ .

٥ ـ موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة ، تأليف طـه باقر ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ .

6. J.R. Partington, Origin and Development of Applied Chemistry (London, 1935), P. 19-20.

٧ ـ تطور الفكر العلمي في الكيمياء ، جلال محمد صالح ، مجلة المجمع العلمي ، بغداد ١٩٩٧ .

٨ ـ تاريخ العلم اليوناني ، تأليف جابـر عزيـز الشكري ، كلية الاداب جامعـة بغداد ، ١٩٨٤ .

٩ ـ لمحات بمآثر العراق العلمية في الكيمياء ، تأليف جابر عزيـز الشـكري ، منشورات وزارة الثقافة والعلام ١٩٨٥ ، الصفحات ٦٧ـ٧٢ .

١٠ـ تاريخ العلم ، جابر عزيز الشكري ومحمود فياض المياحي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد ١٩٨١ .

11. E.J. Holmyard,Alchemy (Sarmonsdsworth PenJuim Books, 1957) .

١٢ـ كيمياء العطور والتصعيدات ، تأليف يعقوب بن اسحق الكندي ، ترجمـة كارل كاربرس ، سلسلة الكتب رقم ٢٩ لسنة ١٩٤٤ المكتبة المركزيـة ـ جامعة بغداد .

١٣ـ مواد التجميل في الحضارة العربية ، تأليف جابر عزيز الشكري ، مجلة المجمع العلمي ـ بغداد ١٩٨٤ مجلد ٣٥ جزء (٥) الصفحات ١٩٨ ـ ٢١٧ .
١٤ـ الكيمياء عند العرب ، تأليف جابر الشكري ، الموسوعة الصغيرة (٥٠) ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٧٩ .
١٥ـ اعلام العرب في الكيمياء ، تأليف فاضل احمد الطائي ، السلسلة العلمية (٧) ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٤ .
١٦ـ الفهرست ، ابن النديم ، طبعة لايبزك ١٩٦٤ ، الصفحات ٢٢ و ٢٥٥ .
١٧ـ الكندي حياته وآثاره ، تأليف كوركيس عواد ، مديرية الفنون والثقافة الشعبية ، وزارة الارشاد ، بغداد ١٩٦٢ .
١٨ـ التزيين عند المرأة في العصر العباسي ، تأليف زكية عمر العلي ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٧٦ .
١٩ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف حكمت نجيب عبدالرحمن ، منشورات جامعة الموصل ، ١٩٦٧ .
٢٠ـ تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف عمر فروخ ، بيروت ١٩٧٠ .
٢١ـ العلوم عند العرب ، تأليف صالح احمد العلي ، بيروت ١٩٨٩ .
٢٢ـ العلوم عند العرب ، تأليف قدري حافظ طوقان ، دار مصر للطباعة ١٩٦٠

23. B.A. McAndrew, Chemistry in Britain, 1982, 18, 864
24. S. Arcander, Perfume and Flavaur Materials of Natural Origin, (New Jerse, Elizabeth, 1960).
25. C.F. Seidel and M. Stoll Selvchim, Acta, 1959, 42 1930.
26. G. Riezebos, Soup, Perfume, Cosmat, 1971, 45, 759.
27. V. Prelog, J. Chem Soc., 1950, 420.
28. S. Arctander, Perfhme and Flavor Componuds, (Montelair, 1969)
29. P.Z. Bedoukian, Perfumary, and Flavoring Synthetics 2nd, edn. (Amsterdam, Elsevier, 1967), P. 198.
30. R.E. Close, Manuf. Chem. Aerosol News, 1980, December, 41.
31. F.V. Wells and C. Bellot, Perfumary Technology, 2nd Ed. (Chichester Ellis Harwood, 1981) Chapt. 8.
32. Sans Beyer, Organic Chemistry, (Leipzig Edition, 1963), P. 531-535.

٣٣ـ كيمياء النواتج الطبيعية ، جانيت القصير وعادل سعيد وصفي ، مطبعة كلية العلوم ، جامعة بغداد ١٩٨٢ الصفحات ٥٤ـ١٢٢ .

آفاق المستقبل ودعم الحوار بين المسلمين والغرب

أ. د. رياض حامد الدباغ
عضو المجمع العلمي
رئيس الجامعة المستنصرية

تقديم :

تتصاعد اهمية الحوار بين المسلمين والغرب يوما بعد يوم كلما اتضحت معالم النمو والاهمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمعات الاسلامية من جهة وتعملقت قوى الغرب الاقتصادية والعسكرية وما تتبعها من سطوة سياسية مسنودة بالقوة المادية والقدرة الاقتصادية التي تبحث عن اسواق جديدة ومساحات اخرى لترسيخ النفوذ .

ومن هنا كان للحوار اهمية للطرفين (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن) ، للتوصل الى نقاط تضمن لكل منهما مصالحه وسيادته على موارده الاقتصادية ومقوماته البشرية ومنظومات قيمة ومثله ، في عالم يسوده التناحر على مفتاح الحياة والقدرة على مواصلة الاستقرار والرخاء . ان هذا الحوار لايقتصر على البعد السياسي والعسكري والاقتصادي فحسب بل يتعدى ذلك الى مستويات فلسفة الحياة وفهم الحياة والمجتمع والتقاليد والمثل والقيم (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عندالله اتقاكم) . لانها الاساس الاول في الحفاظ على الاصالة وعدم الانجراف ومن ثم الانهيار فالاستسلام ومن منطلق هذه الاهمية تظهر الحاجة الماسة الى وقفة متأنية دونما تعصب او انحياز لدراسة اوضاع المسلمين ونظرتهم الى الغرب (بحكم الخبرة في التعامل معه) واوضاع الغرب ونظرته الى المسلمين (بحكم الجذب السياسي والضغط

الاقتصادي والتنافس التجاري على كسب المنطقة ومجتمعاتها) . ولذلك فان الحاجة الى مثل هذه الدراسة حاجة قائمة ودائمة مادامت العلاقة بين المسلمين والغرب تعتورها الاختناقات والانفراجات (على محدوديتها) بين الحين والآخر (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله) .

صيغ واساليب دعم الحوار بين المسلمين والغرب

يحتل موضوع الحوار بين المسلمين والغرب زاوية مهمة من فكر المسلم ، تتسع او تضيق تبعا لمدى ايمانه واهتمامه بامر المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم ناهيك عن ماضيهم . وهذا الاهتمام بامر المسلمين نابع" اساسا من الايمان والتمثل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم) فهو واجب ديني ومطلب ايماني فضلا عما يستتبعه ذلك من ضغط الضمير النابع من الشعور بالانتماء الى هذه الامة التي تشرفت بالاسلام وحملت رسالته الى العالم . وبحكم اهتمام المسلم بأمور المسلمين وفي هذا العصر بالذات وتطلعه الى المستقبل مستحضرا دروس الماضي الذي اضاع فيه المسلمون الاندلس لتغلب المصالح الذاتية للامراء المتشرذمين على مصالح الامة وتشبثهم بالمناصب الدنيوية على حساب المسؤولية الدينية والدنيوية في رعاية مصالح المسلمين والدفاع عن منجزاتهم وحضارتهم التي بنوها بالدماء وبالجهاد في سبيل الله،ففتح الله أمامهم ابواب الشرق والغرب لينشروا الاسلام بعدالته وسماحته لتتجه اليه القلوب بين الابدان .

لقد كان الانتشار الاسلامي في الغرب نعمة استوجبت الشكر عليها بادامة اسبابها من توحد ونكران ذات وجهاد مستمر في سبيل اعلاء كلمة الحق والعدل . ولكن المسلمين اضاعوا هذه النعمة بتفرقهم وبابتعادهم يوما بعد يوم عن منابع الاسلام وتخليهم عن دورهم الرسالي وتشبثهم بزخارف

الحياة واستمرائهم الحياة الوديعة الامنة وانتقال سطوة الاسلام الى سطوة الامراء الحكام .

كان هذا في العصر الوسيط ، والمسلمون في هذا العصر مقبلون على اضاعة فلسطين بتفرقهم وانجرارهم الى كل ما يبعدهم عن التوحد ازاء العدو الذي يفصح عن اهدافه واستراتيجياته ويعمل بجد لتحقيقها في ارض خصبة من الفرقة وعدم التوحد بين المسلمين وضياع قوتهم وعزتهم بعد ابتعادهم عن مصدر القوة والعزة . وتفرقت بهم السبل وتعددت قيم الحق وضاع الحق بين ظلال السياسة وضلال النوايا .

ولما كان الغرب مصدرا من مصادر القوة للعدو ومنبعا من منابع الغزو الفكري والثقافي(٢) المدعوم بالاعلام والدعاية والتضليل ، فقد كانت الدعوة الى الحوار بين المسلمين والغرب استجابة صادقة لمطلب ديني وحضاري على السواء ، لو استقام امره لاختزل كثيرا من الجهود الفردية الضائعة .

ومن هنا كان الاهتمام فكانت الوقفة التي تستدعي منا جميعا استحضار الماضي واستلهام دروس الحاضر لبناء اسس لمستقبل يقوم على اساس احقاق الحق فكريا وثقافيا واقتصاديا بما يمنح الأطراف جميعا حقوقا مشروعة في رعاية مصالحها والتماس سبل الحياة في خطوط واضحة المعالم بعيدا عن الاستغلال والسيطرة والاستغفال .

لقد استهدف هذا البحث أن يوجد اطاراً نظرياً لمثل هذا الحوار وارضية سليمة يمكن ان يقوم عليها الحوار مع ما يتطلبه ذلك من تأن في كل خطوة ووعي تام بمعطيات هذا العصر ومتطلبات المواجهة واستخدام المنطق العلمي بجانب المنطق الموضوعي دون افتئات على الحقائق والمصالح ، وبعيدا تماما عن النزعات والاجتهادات الفردية والمذهبية التي تجعل من كل فرقة او نحلة توكل الى نفسها الوصاية على المسلمين فتحول افرادها من دعاة الى قضاة على رقاب المسلمين يكفرون هذا ويكفرون ذاك وهكذا .

فلو ابتعد المُحاور من الفروع وتمسك بالاصول وترك القشور والتمس اللباب لكان للحوار معنىً ونتيجة ومن ثم استجابة من الطرف المقابل • ولذلك فقد اقتَرَحَ هذا البحث ان يقوم هذا الحوار على ثلاث ركائز هي :

الركيزة الاولى : الفهـــم

الركيزة الثانية : التفهـــم

الركيزة الثالثة : التفاهـــم

وسيحاول البحث ان يقدم لكل ركيزة متطلباتها واساليبها ومبرراتها ايضاً •

الركيزة الاولى :الفهـم

استوقفتني مقولتان اطلعت عليهما واثرتا في نفسي كثيرا احداهما لعَلَمٍ من اعلام المسلمين في مصر والاخرى لعَلَمٍ من اعلامٍ بريطانيا •

فقد نسب الى الامام محمد عبده الـذي سماه الاستاذ الـراحل عباس محمود العقاد (عبقري الاصلاح) قوله :

(ذهبت الى باريس فوجدت اسلاما ولم اجد مسلمين وعدت الى الشرق فوجدت مسلمين ولم اجد اسلاما) •

والامام محمد عبده غني عن التعريف ، وبخاصة في مصر والذي يَرْمي اليه في هذا القول : ان كثيرا من الصفات الاسلامية والسلوك الاسلامي مطبق عرفا لدى الغرب كالصدق في القول وابداء المساعدة وضبط المواعيـد وعدم اخلافها •• مع انهم ليسوا مسلمين ، في الوقت الذي ترك فيه اغلب المسلمين هذه الصفات ومكارم الاخلاق فانتشر فيهم الكذب والنفاق والانانية وخيانة الامانة •• وغيرهـا مع انهم مسلمون • وهـو في هذا القـول ينبهنا الى ان الاسلام سلوك وتصرف وليس انتماءً شكليا أو وراثيا للأمة ، تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الايمان ماوقـر في القلب وصدقه العمل) فالعمل شاهد فعلي على مافي القلب من ايمـان • والقول الاخر لاتتوني ناتنغ

وزير الشؤون الخارجية البريطاني في وزارة (ايدن) الذي استقال عن الوزارة ابان العدوان الثلاثي على مصر مستنكرا هذا العدوان .. ففي كتابه (رأيت بعيني عواقب كارثة السويس) يستعرض زياراته الى الاقطار العربية من العراق وحتى مراكش في المغرب ويستنبط دروسا من هذه الزيارات ، يمكن ان تكون هذه الدروس مادة حية من مصدر غربي حول طريقة فهم الامور ومايستتبع ذلك من سياسة وتعامل مع الدول والامم . ومع انه كتب كتابه هذا في ١٩٧٥ الا انه اشار فيه الى امور عديدة لعل من اهم مايستنتج منها :

١ ــ ان الغرب لم يفهموا الشرق حق الفهم .

٢ ــ وان سوء الفهم احيانا من الاعتماد على التقارير فضلا عن النوازع والاتجاهات الفكرية والسياسية التي تحكم السياسة فتغفل امورا وتبرز امورا اخرى تبعا للمصلحة لاتبعا للحقائق والمبادىء .

٣ ــ انه في زياراته المتعددة اكتشف بنفسه أمورا كانت تخفي عليه .

وهذا يدل على ان (الفهم) عنصر مهم من عناصر الحوار ولكن ما (الفهم) ومن اين يبدأ ؟

ان الفهم المطلوب من الغرب للاسلام وللمسلمين لابد أنْ يستند الى الاتي :ــ

١ ــ ان الاسلام والعبادات دين لايقتصر على العقائد والعبادات كالاديان الاخرى بل يتجاوز ذلك الى المعاملات في المستوى الفردي او الجماعي والى العلاقات الشخصية والعامة بين الافراد وبين الجماعات وبين الدول ، ويعطي للسلوك القويم بانواعه اهمية خاصة .

٢ ــ ان الاسلام شيء وأن المسلمين في الوقت الحاضر شيء اخر ، ولا يحسن الاستدلال على الاسلام بدالة المسلمين في هذا العصر .

فقد ابتعد اغلب المسلمين عن دينهم بل وابعدوا دينهم عن حياتهم واستلهموا قيما جديدة ليضيفوها الى قيمهم فاضاع الكثير منهم المشيتين

معاً واضاعوا بذلك اصالة الاسلام (بجمودهم) وتشبثوا بقشور القيم الغربية دون لبابها (بانبهارهم وانجرافهم السريع) (٢) فضيقوا على المتنورين من المسلمين مساحات الفهم المشترك واللقاء الحضاري المشترك ، كما ضللوا المتنورين من الغرب في الوصول الى حقائق الاسلام بعد ان تشوهت سلوكيات المسلمين وتصرفاتهم التي يستدل بها الغربيون على الاسلام .

٣ ـ ان الاسلام والمسلمين بنوا حضارة ونقلوا حضارة اليونان بعد ان اضافوا اليها والى الغرب بامانة وباحترام (٣) وتلقف الغرب هذا العطاء من المسلمين باهتمام وجدية ، فواصلوا المسيرة من حيث انقطع المسلمون عنها خلال فترة مظلمة طالت مئات السنين .

وبعد هذه الرقدة الطويلة واتساع الهوة الحضارية بين الغرب والمسلمين لا يكفي المسلمين التغني بماضيهم مع بقاء حاضرهم على ماهو عليه من الفرقة والتشتت والتأرجح . لذلك لابد من الرجوع الى الاصول واستلهام المناهل بعقل متفتح وقاب سليم لوضع اسس لفهم الاسلام من جهة وفهم المسلمين في ماضيهم وحاضرهم من جهة اخرى اما متطلبات الفهم من قبل المسلمين للغرب فمنها :

١ ـ ان يفهم المسلمون بان الغرب ليس شرا كله ، وان الغرب سعى وجد بالعمل واكتشف واخترع بحكم التخلص من جمود الكنيسة والتحرر من سيطرتها ، فنهلوا من منابع العلم دون تردد وأسهموا في بناء حضارة مدنية عظيمة لابد ان تكون محط دراسة لكل مهتم بحاضره ومستقبله . فلولا انحسار سطوة الكنيسة لما رأينا النهضة الصناعية ولا تطور العلوم ولا ظهور العلوم الجديدة ولا الابحاث ولا غزو الفضاء ولا غيرها . ولكن الوقفة المهمة هنا هو من قبل المسلمين ان يفهموا ان اوربا بعد ان تخلصت من الكنيسة (الدين) بنت الحضارة وتقدمت في مضمار العلم . ولكن هذا الامر لا ينطبق على الاسلام لان الاسلام دين يدعوا الى العلم والى عدم التوقف فيه ويفتح

المجال لان يبحث الانسان لا في نفسه وبيئته بل في اقطار الارض والسموات والكون كلها (بسم الله الرحمن الرحيم •• يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فأنفذوا لا تنفذون الا بسلطان)(١)، فلا تعارض بين الدين والعلم بل تطابق وحث وتشجيع (٤) • ولذلك فان الذين يلتمسون الرقي والتطور على غرار التطور العلمي والتكنولوجي الغربي يعولون على ضرورة ابعاد الدين عن التعليم مسوغين ذلك بجمود بعض علماء الدين وتشبثهم بالمحافظة من دون التجديد وبالتقليد والنقل من دون اعمال العقل • ناسين ان هؤلاء نفر من المسلمين وليسوا ممثلين للاسلام دينا يدعو الى العلم والعمل •

٢ ـ ان الغرب وجد في ديار المسلمين ارضا لم تستغل ومعادن لم تستثمر وموارد طبيعية كامنة غير مستثمرة ، كما وجد في المسلمين اصحابها اهمالا لها وكسلا عن القيام باحيائها واستثمارها ، او نقصا في القدرة على الاستثمار فبحث لنفسه عن امتيازات للاستثمار فنالها واستثمر ومن ثم استولى وسيطر ، وكأنهم احيوا ارضا مواتا فحق لهم ثمرتها ، ومن ثم نفذوا الى السيطرة على منابع هذه الموارد حفاظا عليها من الزوال او من تأميمها من قبل اصحابها ،ووجدوا انهم من غير هذه المنابع والموارد لا يستطيعون بناء حضارة او ادامتها او الحفاظ عليها ، فشددوا من التمسك بها والتمسوا لهذه السيطرة وسائلها السياسية والاقتصادية والعسكرية فكان لهم ذلك ، واستمر الغرب حتى الوقت الحاضر ينظر الى ديار المسلمين وكأنها شرايين الحياة بالنسبة له •

ولكن المفهوم المطلوب من المسلمين هو ان يدركوا ان مواردهم لهم وليس بوسعهم استثمارها مالم يهيئوا او يتهيأوا لذلك • وهذا لا يتم الا بالعلم والعمل • وبتوفير الاسباب التي وفرها الغرب وبالاستعانة بالجدية في العمل ، وفهم تجربة الغرب المستثمر في هذا المقام لا في مقام المظاهر والقشور •

٣ ـ ان الغرب له مصالح وهذه المصالح منها مشروعة ينبغي احترامها ومنها غير مشروعة ينبغي مواجهتها والتفريق بين المشروع وغير المشروع امر يعود الى الامة لا الى الافراد •

والكي يفهم المسلمون الغرب لابد ان يتتبعوا مسالك الغرب وسياسته في المجالات كافة ومصادر الضغط والقوة فيه والعوامل المؤثرة في سياسته ، والتعامل مع السياسات اكثر من التعامل مع السياسيين • والادراك الواعي بان اساليب السيطرة الغربية ليست عسكرية وسياسية واقتصادية فقط بل ان الثقافة والعلم وسيلتان من وسائل السيطرة اذا لم تجدا في المجتمع الاسلامي قيما ومثلا واصالة تحفظ له اصالته ولاتدع الا الاصيل النافع ينفذ الى افراده فيكون مصدر تقوية لهم لامصدر ضعف فيهم (٥) •

الركيزة الثانية :التفهم

يكثر الجدال بين المثقفين والمتنورين في اثناء حوارهم عن الشرق والغرب والعلم ونقل التكنولوجيا وقوة المال وقوة العلم وما الى ذلك • وينبرى بعضهم الى تسطيح كثير من الامور بالتعامل مع الغرب بندية ، وانه بالمال يمكن شراء التكنولوجيا ولا يفرقون بان الحضارة شيء والمدنية شيء آخر وان نقل المدنية امر ممكن ، فالعمارات والشوارع والسيارات والطائرات يمكن شراؤها لكنها تبقى دخيلة على المجتمع الذي لم يصنعها ويكتفي بالتمتع بها من دون السعي الى صنعها• ويعيبون على الغرب بانه يشترط في البيع شروطا قد تكون قاسية وبخاصة في بيع الاسلحة والطائرات وغيرها • وينسون ان الغرب او الشرق هو صاحب الامتياز وصانع الجهاز فله الحق في ان يحتفظ لنفسه باسرار المخترعات لانها لم تصل اليه بسهولة بل بسعي وجهد وانفاق • ولا يتوقع ممن صرف جهدا ومالا واضاع زمنا واهدر نفقات حتى يصل الى نتيجة ان يبديها بسهولة لقاء مال الى الجهة التي تطلبها خاصة وان الموضوع يتجاوز حدوده التجارية الى المقاصد العسكرية والسياسية • وهذا يدل على

عدم (تفهم) لسياسة المقابل ، وهو مثال واحد شاخص ملموس يغني عن ذكر امثلة اخرى وفي مجالات اخرى كثيرة .

وكذلك في الغرب لايتفهمون ان للمسلمين عادات وتقاليد وقيماً ينبغي مراعاتها ومعرفة اصولها وحكمتها قبل الحكم عليها بانها متخلفة او متقدمة (٦) . فالفقه الاسلامي عموما غير معروف لدى عامة الغرب فقطع يد السارق مثلا لا يفهم منه عندهم انه قطع لدابر الجريمة وانه لا يحكم به الا بحدود معينة وليس كل سارق تقطع يده ، وان العقوبة في الاسلام عقوبات متدرجة تبدأ بالنصح والارشاد وبالزجر والتعزيز ثم الحد القضائي كما لم يكن في الاسلام (سجن) في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمعنى المعروف به في الوقت الحاضر بل كان المجتمع يقوم بهذه المهمة فيقاطع من عليه الحد فيشعر بانه في سجن كبير ويقاطعه حتى اقرب الناس اليه كما حدث للثلاثة الذين خلفوا .. (حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ، وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا)(١) . وحدث ان هؤلاء الثلاثة قوطعوا في السوق والبيت ومن الاهل والاصحاب فذاقوا سجنا معنويا كبيرا حتى تاب الله عليهم .

آنذاك كان المجتمع موحدا متماسكا لا يقام الحد الا على الندرة والقلة كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ادرأوا الحدود بالشبهات » . وكانت الجريمة غائبة نسبيا والامن سائد ولكن المجتمع حينما يتسع ويتطور لابد من حدود وعقوبات وتعزيز وتأديب وهكذا .

هذا الامر وغيره (كالزواج من اكثر من واحدة (٦)) لا يفهمه الغرب بسهولة بحكم النشأة والخبرة وعدم دراسة المجتمع الاسلامي على حقيقته ضمن شرائعه ، حيث اوضح غوستاف لوبون (٦) ان تعدد الزوجات لم يكن خاصا بالاسلام وهو ليس ادنى مرتبة ، وقال ايضا : لا نذكر نظاما اخطأ الاوربيون في ادراكه كمبدأ تعدد الزوجات وانه علة انحطاط الشرقيين ، ودعا

لوبون القارىء الى ان يطرح عنه اوهامه الاوربية جانبا لان مبدأ تعدد الزوجات نظام يرفع المستوى الاخلاقي ويزيد الاسرة ارتباطا ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراهما في اوربا •

ومن هنا كان لابد من وضع اسس للتفهم بين المسلمين تجاه المجتمع الغربي وبين الغرب تجاه المجتمع الاسلامي على اسس من البصيرة واتباع الاصول من دون الفروع :

١ ـ ان يتم تفهم الفكر في الطرفين من قبلهما •

٢ ـ دراسة التقاليد والعادات والعرف الاجتماعي وجذورها ومنابعها الاصلية •

٣ ـ دراسة منظومة القيم الاسلامية والقيم الغربية في مستوى الافراد والعلاقات والمجتمع في مبادىء ، الحرية الفكرية ـ العدالة ـ التعلم والعلم ، الاسرة ، المجتمع ، الجيرة ، الصداقة ، الامانة وغيرها •

٤ ـ عدم التسرع في اطلاق الاحكام على الغرب من خلال تصرف بعض الغربيين وعدم التسرع في اطلاق الاحكام على الاسلام من خلال تصرف بعض المسلمين •

٥ ـ تنوير الغرب بالتاريخ الاسلامي وتنوير المسلمين بتاريخ الغرب وتطوره •

وتتعدد المجالات في الكلام على التفهم من قبل الطرفين استعدادا لبدء حوار متبادل مبني على اسس رصينة • ومن اجل ان نقف على ارضية صلبة لابد ان نؤكد بان الفهم مفتاح للتفهم وبقدر وضوح الفهم ودقته وموضوعيته يكون التفهم دقيقا واضحا وموضوعيا • وان نؤكد ايضا ان التفهم يتطلب البدء من الحاضر مع استدعاء الماضي للاستدلال والاستشهاد ليس غير ، وليس

للفخار والانتساب فحسب ، وهذا الامر متروك للطرفين ولمن يضع اسس العمل البدء به. مع ايماننا بانه عمل شاق واسع وطويل الا ان هدفه ونتيجته يسوغان كل هذا الجهد .

الركيزة الثالثة : التفاهم

قد يترادف الحوار مع التفاهم ، لان التفاهم مبني اصلا على وجود ارضية مشتركة ووجود حدود لها ووجود نية بالحوار حول مدياتها وعمقها وسعتها وما الى ذلك .

والتفاهم مرحلة تسهل كثيرا على المتحاورين اذا ما أرسيت أسس متينة للركيزتين السابقتين مما يتطلب تنوير المعنيين بان عليهم مهمة كبيرة وان مسؤوليتهم لا تتحدد بحدود وظائفهم بل انها مسؤولية للافراد والمنظمات تحتمها ظروف الحياة المعاصرة وضغط الحاجة اي انتشال المسلمين من وهدتهم وحقن منشطات للاجسام الراكدة ومهدئات للاجسام المتحفزة دون روية ، لكي يستقيم العمل الناشط والمجدي والنافع لصالح المسلمين عموما يحفظ لهم حقوقهم في الدين والقيم والحياة ويتفهم بان للاخرين وهم الغرب حقوقا في المعتقد والقيم والحياة(٧) .

وتبقى بعد ذلك مسألة التنظيم والترتيب وايجاد الاذان الصاغية الى اهمية الموضوع وبخاصة من الغرب بعد ضمان الموضوعية في الاستجابة وعدم الالتفاف حول كل نشاط من المسلمين واحتوائه لتوجيهه الوجهة المطلوبة من قبل الغرب او عند الاخفاق في ذلك تفويت فرصة النجاح على العاملين المخلصين .

ان هذه المهمة مهمة كبيرة يحسن الا يقوم بها الا القادرون عليها والمقدرون للمسؤولية الدينية والتاريخية والحضارية لها . وان يتم التهيؤ

الفكري وتهيئة الارضية المناسبة لانجاحها بمد جسور الحوار المبدئي بين العلماء والمفكرين والمثقفين المتنورين من الطرفين لوضع اسس للعمل والتوكل على الله واخلاص النية والبدء من حيث ينبغي ان يكون الابتداء .

وان مثل هذه المهمة اذا صلحت اوتار بداياتها فلا يهم متى تنتهي لان المسيرة طويلة والمسؤولية كبيرة ، والتخطيط واجب بشكل دقيق ومتأنٍ ، يشارك فيه كل ذوي النية المخلصة والقدرة على العطاء ، ومن الله التوفيق .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

صدق الله العظيم





المصـادر والمراجع المعتمدة

١ ـ القـرآن الكريم

سورة الرحمن (٣٣) ، سـورة التوبة (١١٧) ، سـورة النحـل (١٢٤) ، سورة الحجرات (١٣) ، سورة آل عمران (٦٤) .

٢ ـ الدكتور توفيق يوسف الواعي ، (١٩٨٨)

الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٦٨٥ فما بعد . دار الوفاء ـ القاهرة .

٣ ـ زيغـرد هونكـه

شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة كمال الدسوقي وزميله ـ ص ١٢١ ، دار صادر ـ بيروت ـ لبنان .

٤ ـ عبدالرحمن محمد عثمان ، (١٩٦٨)

جامع بيان العلم وفضله ـ ينظر الى الفصل الذي كتبه عبدالبر القرطبي (ت٤٦٣هـ) القاهرة .

٥ ـ الدكتور عبدالعزيز كامل ، (١٩٨٧)

التحدي الحضاري الخليجي ـ وقائع ندوة التحديات الحضارية والغـزو الثقافي لدول الخليج العربي ـ عمان منشورات مكتب التربية العـربي لدول الخليج ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية .

٦ ـ الدكتور غوستاف لوبون ، (١٩٥٦)

حضارة العرب ـ ترجمة عادل زعيتر ص ٨٧ ـ القاهرة .

٨ ـ سعيد سليمان ، (١٩٨٧)

الهوية العربية الاسلامية في الخليج العربي ـ وقائع ندوة التحديـات الحضارية والغزو الثقافـي لدول الخليج العربـي ـ عمان ، منشـورات مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية

نظريات تكوين الطرز في الجنين

ا. د. محمود حياوي حماش
عضو المجمع العلمي
استاذ علم الاجنة ـ كلية صدام الطبية
رئيس جامعة صدام

١ ـ مقـــــــدمة :

يعتبر موضوع تشكيل الطرز في الجنين نموذج للنشاط النظري المصاحب للبحوث والدراسات المختبرية ـ الوصفية والتجريبية • والتنظير هنا هـــو محاولة لتكوين تصور اكثر شمولية يمكن من تفسير الظواهر الجزئية من خلال تنسيق النتائج التجريبية وربطها والاستهداء الى فرضيات ونظـــريات ذات مواصفات اكثر تجريـــدا وتعميماً • ويهـــدف ذلك الى توجيه البحث العلمي وفتح افاق لمزيد من التقدم •

يتكون الجنين من خلية واحدة • هي الخلية المخصبة • الناتجة من اتحاد مشيجين : ذكري وانثـــوي • وفيهـــا تكتمـــل الجموعـــة الصبغيـــة (اكروموسومية) وكمية المادة النووية ــ دنا (DNA) بما يعادل الخلية السوية الجسمية • وتحتـــوي الخلية المخصبة على كميـــة كبيرة مـــن الهيـــولى (السايتوبلازم) والعضويات والحبيبات والمـــواد الغذائية المخزونة • وهذه المكونات الاخيرة ، هي في الحقيقة استمرار لسايتوبلازم البويضة قـــبل الاخصاب ، ولكن تحصل فيها اعادة توزيع بعد دخول الحيمن •

والمراحل التاليـــة ــ بعد الاخصـــاب ــ تتميز بالانقسامات المتكررة وفي مرحلة معينة من نمو الكتلة الاريمية ، تبدأ كل مجموعة من الخلايا بأن تأخذ منحى مختلفا ومتميزا عن بقية المجموعات ولكن بصورة تدريجية • ان توزيع

وانتظام المجموعات الخلوية التي في طور التمايز في الكتلة الجنينية بأي مرحلة من المراحل يوصف بكونه «طرز» ، ويكون الطرز ثابتا للنوع المعين من الاحياء في المرحلة المحددة وذو صفات مكانية معينة • ولتوضيح ذلك ، نجد مثلا ان الاريمة (BLASTULA) المتكونة بعد مرحلة التفلج تظهر صفات وامكانيات متباينة لكل موضوع مما يطلق عليه الخارطة المستقبلية (FATE MAP) اي ان جهة منها تكون الاديم الخارجي السطحي (اي الجلد) ومنطقة اخرى تكون الجهاز العصبي ، واخرى تكوّن سقف المعي واخرى المعي البدائي • كذلك الحال عند بداءات الاعضاء • فهناك جزء من الصفيحة العصبية سيكون الدماغ الامامي ، وجزء آخر سيكون النخاع الشوكي ، او عندما نأخذ برعم الطرف العلوي الذي يظهر في البداية بسيطا وخلاياه متشابهة جدا ، وفي وقت لاحق تظهر مناطق محددة : منطقة لتكوين اليد ، ومنطقة لتكوين الساعد وعظامه ، ومنطقة لتكوين العضد ، ان هذا التوزيع المنظم والنمطي والثابت هو ما نطلق عليه « الطرز » والطرز اساسي جدا في تكوين الجنين ، ومن دون هذا النسق لا يتكون جنين وانما كتلة من الخلايا والانسجة الممزوجة عشوائيا حتى وأن ظهرت فيها انواع مختلفة •

٢ ـ المشـكلة :

ان المشكلة في عملية تكوين الطرز (PATTERN FORMATION) في الجنين ذات اوجه متعددة وذلك اولا لكون الخلايا المتكونة في المراحل الاولية متشابهة من اغلب الوجوه ، والاهم من ذلك ان المعلومات الوراثية التي تحملها كل خلية من الخلايا المكونة للجنين ، هي واحدة • اي ان المادة الوراثية هي على العموم تكرار للمعلومات الوراثية للخلية المخصبة • والمعروف ان المادة الوراثية هي التي تسيطر وتوجه كافة الفعاليات الكيميائية والوظيفية والتكوينية للخلية • لكن ظهور التمايز الخلوي يدلل على وجود «آلية» معينة تؤدي ان يتوجه نشاط الموروثات (الجينات) في خلايا معينة بصورة متميزة عن مجموعات خلوية اخرى • وهذا النشاط يخضع لنمط ونسق

معين ، فيظهر السؤال : كيف يحصل ذلك ؟ ان هذه هي احدى المسائل النظرية والعملية العويصة في مجال عام الاجنة وعلم الحياة التكويني • وثانيا ، لان الاهتمام بهذه المسألة يشتد ويفتر بين فترة واخرى فقد ظهرت وجهات نظر متباينة ونظريات متعددة ودراسات كثيرة مبثوثة في الادبيات ، ولكن لا يوجد اتفاق عام او مشترك على نظرة موحدة وشمولية رغم ان نظرية « المعلوماتية المكانية » التي تؤثر بتفصيل كبير في عرضنا هذا قد احتلت حيزا كبيرا في الادبيات وفي قبولها من عدد واسع من المعنيين بهذا الحقل ولفترة تمتد اعتبارا من عام ١٩٦٩ ، عندما نشر (ولبرت) هذه النظرية وحتى الثمانينات او ربما لحد الان ، ولكنها لم تعد النظرة الوحيدة التي تؤطر الجانب النظري للملاحظات التجريبية[١] •

لذا فأن مهمة الدراسة الحالية هي مراجعة هذه الاراء والنظريات ومناقشتها على ضوء الوقائع التجريبية • ومن ناحية اخرى فأن لعرض هذه المسألة والنظريات المتعلقة بآليات تكوين الطرز ، اهمية نظرية عامة،فهي تتناول واحدة من المشاكل التي يتم فيها تحقق الانتقال من الهلامي المتماثل اصلا الى التشكل المتمايز او اللامتجانس وكذا الانتقال من الامكان الى المتحقق •

٣ ــ الدراسات والاراء المبكرة :

استرعت مشكلة التناسق والقدرة على التنظيم في الجنين انتباه الباحثين منذ وقت طويل ، وقد وضع عدد من العلماء تصورات نظرية عن هذا الموضوع معززة بالملاحظات والمحاولات التجريبية •

وقد كان موضوع الاستقطاب (POLARITY) من المواضيع التي حظيت بقسط كبير من الدراسة وخاصة تحديد المحاور الاساسية سواء للمراحل

المبكرة للجنين او حتى البويضة ، وعلاقة هذه المحاور بظهور الاعضاء لاحقا ، وكذلك محاولة فهم كيفية وحتى تحدد المحور الطولي او المحور الظهري البطني والامامي الخلفي للاعضاء المختلفة •

واهم ما تمخض من هذه الدراسات هو مفهوم « النظام التدرجي » (GRDIENT SYSTEM) والذي يعني افتراض وجود عامل او عوامل عديدة يكون توزيعها في التركيب الجنيني متدرجا من نقطة معينة وبأتجاه استقطابي معين • وقد يكون التدرج انحداريا (او تنازليا) او تصاعديا ، وقد ركز تشيلد (١٩٤١)[٢] ، على النظام التدرجي في الجانب الوظائفي او الفسلجي في المراحل المبكرة للجنين كفعاليات الاكسدة او الاختزال ، كما اشار تشيلد في سفره التفصيلي وكذلك آخرون الى ان العوامل التي تؤدي الى وجود النظام التدرجي قد تعتمد على توزيع مركبات كيمياوية بسيطة او معقدة تتحكم بجوانب من سلوك الخلايا ، وهناك ظواهر واضحة تدلل على وجود هذا النظام التدرجي ، على سبيل المثال ، يظهر توزيع حبيبات المح في البيضة المخصبة للبرمائيات (الضفادع) نمطا تدرجيا واضحا جدا مما يؤدي الى وضوح الاستقطاب بوجود قطبين : الحيواني (قليل المح) ، والنباتي (عالي تركيز المح) ، وتتوزع ايضا حبيبات سايتوبلازم على المحور الاستقطابي من القطب الحيواني الى النباتي (بانسكي ١٩٧٢)[٣] •

وضمن هذا النظام ادخل مفهوم « المجال » (FIELD) لتحديد مواقع بداءات الاعضاء ، ويعني ظهور بداءة العضو ضمن مساحة معينة وبمستوى معين من النظام التدرجي ، اي ان المجموعة الخلوية التي ضمن تلك المساحة يمكن ان تكون عضو معين ، وبالتدريج يحصل التحدد(DETERMINATION) ثم التشخص (INDIVIDUATION) ثم يلي ذلك النمو والتمايز والنضج الخلوي والوظيفي المتخصص •

وقد وضع (هاريسون)[٤] ، تفصيلات اضافية لكيفية تحديد النظام التدريجي للمحور الاستقطابي لعضو معين مثل الاذن في جنين البرمائيات بينما طور (وادينجتون)[٥] مفهوم المجال و « التشخص » ، في حين ان دراسات اخرى حاول الباحثون فيها التعرف على بعض الحقائق الكيميائية او الفسلجية وقد ظهرت محاولات للتأثير على النظام التدرجي بأستخدام الكيمياويات مثل سيانيد البوتاسيوم او اوكسيد الزنك وتأثيرها في نظام التدرج خاصة في المراحل المبكرة للجنين وتكوين الرأس والجهاز العصبي (ليهمان ١٩٤٦) . وقد درس النظام التدرجي ايضا في ظاهرة « الاخلاف » سواء في الجنين او في بالغ بعض الاحياء مثل الزواحف والبرمائيات ، حيث اعتبر ذلك نموذجا قابلا للدراسة وخاصة انه عند قطع جزء من بعض الاعضاء في كائنات معينة ، فأنها تعيد تكوين الاجزاء المفقودة ، بعد ان تتكون كتلة خلوية غير متمايزة . وقد أعتبر ان القطع يؤدي الى الاخلال بنظام التدرج القائم وخاصة فيما يتعلق بتركيز مواد او عوامل مثبطة او كابحة للنمو ، وازالة جزء من من الكتلة الخلوية سيؤدي الى انخفاض تركيز الكابح ، وهذا يؤدي الى تحول الخلايا نحو اعادة التوازن والتعويض عن الجزء المفقود .

وخلال دراسة نماذج مختلفة من اجنة الكائنات المتنوعة لوحظ وجود نوعين من انظمة التشكل الجنيني : الاول ـ وسمي بالتشكل القابل للتعديل (REGULATIVE DEVELOPMENT) حيث يتم فيه تحديد الاجزاء والاعضاء المكونة بصورة متدرجة ، وضمن حدود معينة، يتمكن من التغلب على التداخلات الخارجية او ازالة مجموعة صغيرة من الخلايا ، فيعيد تنظيم خلاياه لتكوين جنين متكامل . اما الثاني ـ فقد سمي بالتشكل الفسيفسائي (MOSAIC DEVELOPMENT) ، حيث تتحدد الخلايا المكونة لكل جزء من الجنين مبكرا ، ولا تتوفر مرونة للتعديل في حال حصول اي اختلاف بأي جزء .

والفروق الاساسية بين النوعين تعتمد على وجود اتصال وتفاعل بين الخلايا في النموذج الاول بينما يتضاءل ذلك ويتم التحدد (DETERMINATION) بصورة سريعة ، وليس تدريجية في النموذج الثاني .

ومعظم الدراسات الحالية لتكوين الطرز تنصب على النموذج الاول ، هذا وقد وجد فيما بعد ان انواع من التشكل الجنيني تقع بين النوعين ، ويرى الباحثون ان الاختلاف الظاهر بين هذه النماذج ليس سوى اختلاف بدرجة سرعة العمليات المتعلقة بالطرز .

٤ ــ نظرية ((المعلومة المكانية)) (POSITIONAL INFORMATION

عمل (لويس ولبرت L. WOLPERT) على تطوير الافكار والمفاهيم التي تضمنتها دراسات العلماء السابقين بخصوص النظام التدرجي ، في نموذج (MODEL) عام اطلق عليه «المعلوماتية المكانية» ، والتي اساسها الخلية تكتسب معلومات مكانية ،في ضوء موقعها ضمن نظام معين بالاشارة الى نقاط مرجعية مما يصف هذا النظام بوجود احداثيات ، وعلى ضوء ذلك فأن الخلايا تستجيب لهذه المعلومات بطريقة معينة .

في ضوء هذه النظرية هناك خطوتين ، الاولى ان تمتلك الخلايا مواقع ضمن نظام احداثيات معين ثم بعد ذلك تأتي الخطوة الثانية التي تفسر الخلايا القيم الموقعية بما يؤدي الى التميز ، والخطوة الاولى امتداد للنظام التدرجي ــ الاستقطابي ، كما ان وجود مساحة معينة يوازي « المجال » ، ولكن تم التأكيد على الاحداثيات والنقاط المرجعية او الحدود ، وهكذا فأنه وفق هذا النظام التجريدي يمكن ان تكتسب الخلايا قيم مكانية (POSITIONAL VALUE) ، ويبدو ان الخطوة الثانية هي اكثر حسما بالنسبة لتكوين الطرز ، وهذه الخطوة توصف بالتفسير الخاوي . او التأويل (INTERPRETATION) ، وهذا التفسير يعتمد على التاريخ التطوري للخلية ومعلوماتها الوراثية .

اذن يمكن اعتبار الطرز المتحقق وفق ذلك هو نتيجة « التفسير » الخلوي كما ان ذات المجموعة القيمية المكانية يمكن ان تستخدم لتوليد طرز مختلفة . وهذا يعني انه قد تستخدم نظام احداثيات عام ، مرات متعددة ، لتوليد طرز مختلفة . ان التغيير الاساس ـ وفق هذه النظرة خلال التطور الاحيائي هو في « التفسير » . ومن الادلة الواقعية التي تؤيد هذه النظرة ، حالات الطفرة الوراثية في حشرة ذبابة الفاكهة التي تؤدي الى ان تتكون « ساق » محل « مجس » . فالمفترض هنا ان الخلايا تتحسس موقعها وتتصرف وفق التكوين الوراثي ، ففي الحالات الاعتيادية (في النوع البري) فأن الخلايا في هذا الموقع تكوّن « مجسا » ولكن بسبب التغيير الوراثي فأنها تفسر الاحداثيات لتكون « رجلا » ، فالافتراض هنا ان القيم المكانية واحدة ولكن اختلف التفسير .

ان هذا المفهوم « الجديد » هو ما يميز « المعلوماتية المكانية » مقارنة بالمفاهيم المبكرة حول «الحقل » و « التدرج » التي سبق ذكرها(٦) .

يؤكد هذا المفهوم ثلاثة امور مهمة :

الاول :ـ ان نظام التدرج او الاحداثيات ، قد تكون عامة (UNIVERSAL) تتكرر في انظمة تكوينية مختلفة او حتى في مراحل تطور احيائية مختلفة ولكن الذي يتغير من حالة الى حالة هو التفسير ، اي استجابة الخلايا في المواقع المعينة .

الثاني :ـ ان النظرية تنفي وجود اي تفاعل متبادل بين الخلايا المكونة لنظام معين ، سوى طرق انتقال المعلومات المكانية (المواد او الاشارات او غير ذلك) التي تمثل التدرج المشار اليه سابقا او اي صيغة اخرى من صيغ الاستقطاب .

الثالث :ـ في نظام كهذا تكون مسألة الحدود او المناطق التي تمثل مصادر الاشارة ذات اهمية كبيرة .

ومن الجدير بالذكر ان هذا المفهوم ـ كما عبر عن ذلك ولبرت نفسه ـ يتناقض مع فكرة وجود طرز بدائي (او ما قبل الطرز PREPATTERN) يمثل توزيعا معينا للمكونات او الامكانيات على رقعة الحقل او المجال ، بحيث يؤدي تطوره الى ظهور الطرز • اذ ان الطرز حسب مفهوم (ولبرت) لايعتمد على العوامل الاولية المذكورة وتراكيزها المختلفة في مناطق الحقل ، وانما هو عبارة عن تفسير خاص تقوم به الخلايا للاشارات المكانية التي ما هي الا مؤشرات لاحداثيات عمومية •

مثّل (ولبرت) المعلوماتية المكانية بنتائج انسيابية التدرج الذي يؤدي في حقل معين الى ظهور طرز من تشكل الالوان كما في (العلم الفرنسي) حيث الى اليسار تكون الاحداثيات بمستوى معين يؤدي الى تكوين اللون الازرق (B) وفي الوسط يظهر اللون الابيض W وفي الجهة اليمنى يظهر اللون الاحمر (R) • ولكنه يقول ان نفس التدرج او نظام الاحداثيات قد تفسره الخلايا على نحو مختلف ليظهر علما بألوان او اشكال اخرى •

ويطبق (ولبرت) هذا النموذج التجريدي على حالتي « التعديل » (REGULATION) التي يمكن ان تحصل في نظام تكويني قابل للتعديل كما في بعض الاجنة او في حالات «الاخلاف» (REGENERATION) لاجزاء مقطوعة في بعض الاحياء البالغة كاطراف بعض السحالي او اجنة البرمائيات • عند حصول قطع لجزء قابل للتعديل ، فأنه في حالة الاخلاف مثلا يتم باحدى طريقتين : اما عن طريق تحوير ما تبقى بحيث يعاد تكوين الجزء من جديد من الخلايا المتبقية فيتكون تركيب اصغر ولكنه يماثل الاصل • اما الطريقة الثانية ، فهي بتحويل الخلايا الواقعة في حد القطع الى كتلة متكاثرة ونامية تعيد تكوين الجزء المفقود فيعود ذلك التركيب الى سابق عهده •

قام اتباع نظرية « المعلوماتية المكانية » بدراسة نماذج واقعية عديدة من وجهة نظر هذه النظرية . فمثلا يمكن اعتبار المراحل المبكرة لاجنة البرمائيات نموذجا لتطور الطرز . وفق هذا التطور يمثل القطب الحيواني مركز الاشارة ومنه تتدرج المعلومات المكانية بأتجاه استقطابي واضح .

ولكن النماذج التي استحوذت على مساحة واسعة من النشاط التجريبي هي :

(١) نمو الطرف العلوي (الجناح) لجنين الدجاج

(٢) حيوانات الهيدرا

(٣) تكوين الطرز في الحشرات

التشكيل الجنيني لطرف جنين الدجاج :

يعتبر تكوين ونمو برعم الطرف كنموذج لدراسة المفاهيم المتعلقة بالطرز وظهور المحاور فهو موضوع مهم لنظرية المعلوماتية المكانية ، اضافة الى ان العمليات التكوينية فيه تعتبر نموذجا لتشكل اطراف الفقريات بما فيها الانسان . يبدأ التشكل بظهور البرعم النامي من الجانب المؤلف من غلاف من الاديم الخارجي وفي داخله كتلة غير كثيفة (في البداية) من النسيج الحشوي (المزنكيمي) ، والبرعم النامي ثلاثي الابعاد ، فيظهر له بالتدرج محاور : داني ــ قاصي ، وامامي ــ خلفي وظهري ــ بطني . وخلال نمو هذا البرعم تتشكل بالتدريج مناطق محددة تمثل على المحور الداني ــ القاصي : منطقة الكتف والعضد ، والساعد والرسغ والكف[٧] . ويظهر الطرز في هذه المناطق واضحا في تكوّن العظام في كل من هذه المناطق باشكال محددة ، والتساؤل الذي تحاول النظريات تفسيره هو كيف تتشكل هذه المناطق من كتلة الخلايا الميزنكيمية التي تبدو في المراحل المبكرة متماثلة تماما .

لقد وجد ان طبقة الاديم الخارجي تكون تثخنا محدداً في نهاية البرعم الطرفي ، ويدعم « الحيد القمّي » (ECTODERMAL APICAL RIDGE) وتظهر التجارب ان لهذا « الحيد » تأثيرا خاصا على تشكل الخلايا الميزنكيمية لتكوين الاجزاء المختلفة من الطرف • كما وجدت منطقة معينة في الزاوية الخلفية لاتصال البرعم بالجذع ، سميت بالمنطقة الاستقطابية (POLARIZING ZONE) ويعتقد ان هذه المنطقةمصدر لمادة نافذة بحيث يحدد تدرج تركيزها من الخلف الى الامام المحور الامامي الخلفي • فالجهة القريبة الى المنطقة حيث يكون تركيز المادة عاليا يتكون الاصبع الرابع (مثلا) ثم الثالث ثم الثاني بأتجاه الامام • واذا زرعت تجريبيا منطقة مماثلة الى الجهة الامامية فسيتكون طرز انعكاس المرآة (أي ٤ر٣ر٢ر٢ر٣ر٤) وبعد ذلك فأن تغير عدد الاصابع في التكوين الجنيني قد يرجع الى اختلاف استجابة الخلايا فقط •

لقد افترض (ولبرت) وجماعته وجود منطقة نمو للنسيج المزنكيمي الذي على تماس بالحيد الخارجي ــ القمّي سموها بمنطقة التقدم (PROGRESS & ZONE) [٨] • ويتم فيها انقسام الخلايا وفي خلال ذلك « تقيس » الخلايا موقعها على ضوء المدة التي تقضيها في منطقة التقدم ، اي ان ذلك يتحدد في وقت مغادرتها لهذه المنطقة لتشارك في تكوين تركيب محدد من تراكيب الطرف ، فالتي ستغادر مبكرا ستكوّن منطقة دانية والتي تبقى متأخرة ستشهد انقسامات اكثر في منطقة التقدم ، وستكون تراكيب منطقة قاصية • ان السيطرة على هذه المنطقة يتم بواسطة حيد الاديم الخارجي ، وبذلك يكون له دور كبير في تحديد التراكيب وفق المحور القاصي ــ الداني • وقد وجد من التجارب المختلفة ان ازالة هذا الحيد في مرحلة مبكرة يعني تكون العضد فقط وعدم تكوّن المنطقة القاصية اللاحقة، أي توقف النمو عند حد معين ، في حين ازالته في مرحلة متأخرة ، فأن الذراع يظهر عدم تكون اليد ، من ناحية اخرى فأن ادلة اضافية تشير الى مساهمة

الانسجة القريبـــة من برعم الذراع وخاصـــة « الجسيمات » في تحديد صفة الطرف فيما اذا سيكون ذراعا او ساقا •

ونشهد في استمرار دراسة هذا النموذج ظهور مفاهيم جديدة بسبب تعقد العملية التشكلية ، فبعض الباحثين لاحظ وجود محور محيطي اذا تصورنا البرعـم النامي كاسطوانة مقطعها الطـرفي يظهـر كدائرة لها محور محيطي ، كما اثيرت مشكلة انه رغم وجود قيم مكانية مختلفة على طول المحور الداني ــ القاصي مثلا ، فأن انسجة متشابهة تظهر في عدة مناطق على هذا المحور وليست محصورة بقيم مكانية واحدة • فالغضاريف (كنسيج) تظهر في الكتف والعضد والساعد والكف •• وهنا ادخل جماعة (ولبرت) مفهوم عدم التماثل (NONEQUIVALENCE) اي ان خلايا بقيـم مكانية مختلفة تكون نسيجا متشابها ولكن ليس متماثلا[٩] •

كما ان دراسات جماعة المعلوماتية المكانية لم تأخذ بنظر الاعتبـار الحركة الداخلية للخلايا (بعد مغادرتها لمنطقة التقدم) واحتمال انتقالها من موقع الى آخر ، وكذلك مسألة النمو اللاحقة حيث ستتباين شدة النمـو وتوزيعها لكل تركيـب في اي من المناطق المعينة بحيث ينمـو بطول وشكل معين • وهذه الاشكالات تمثل صعوبات لاي نظرية تحاول تبسيط عملية التشكل والنمو المعقدة •

دراســات الطــرز في حيوان ((الهيـــدرا)) :

وهذه حيوانات بسيطة (غير فقرية) ، انبوبية التركيب وتوصف احدى النهايتين بالرأس وتضم الفم التحتي (HYPOSTOME) والمجسمات ، يلي الرأس منطقة وسطيـــة تعرف بمنطقة الهضـم ، يليها منطقة تدعى بمنطقة التبرعـم ومنها تنشأ براعم جانبية لتكوين حيوانات جديدة • يلي ذلك « السويق » الذي ينتهي بالقرص القاعدي • لهذه الحيوانات قدرة على الاخلاف ، في

حالة ازالة جزء منها • ان امكانية التبرعم والاخلاف جعلها ملائمة لاجراء تجارب ودراسات بشأن ظهور ونمو الطرز ، وذلك بأزالة او قطع اجزاء واعادةزرع اجزاء اضافيةفي مواقع مختلفة ثم ملاحظة ما يحصل للطرز المتشكل او الجديد[١٠] •

لقد وجد ان زرع جزء اضافي من منطقة تحت الفم التحتي في جسم الهيدرا ، اسفل المنطقة الهضمية ،فأنذلك يؤدي الى نشوء محورجديد ويتكون برعم ينمو كحيون متكامل • في حين ان زرع نسيج مماثل تحت منطقة الرأس مباشرة لا يؤدي الى نمو برعم جديد ، وأي نسيج من اي منطقة يزرع في هذه المنطقة يتم امتصاصه ويصبح مماثلا لما هو موجود اصلا •

اثبتت التجارب ان لوجود الرأس تأثير مثبط لنشوء رأس جديد ، وهذا التأثير على اقوى ما يكون قرب الرأس الاصلي ويضعف تدريجيا نحو القاعدة • لقد اعتبر ذلك دليل على وجود تدرج او انحدار في العامل المثبط من الرأس نحو القاعدة • ويرى (ولبرت) والباحثون المشاركون معه (٧) ان هذه النتائج ــ ونتائج اخرى تفصيلية ــ يمكن تفسيرها في ضوء نظرية « المعلوماتية المكانية » حيث ان الخلايا في مواقع معينة ، تكتسب قيمة مكانية وتقوم بتفسير هذه القيمة بالتطور والنمو بأتجاه معين • ويمكن اعتبار ان منطقة الرأس تمثل حدودا ذات تأثير في تحديد القيم المكانية للخلايا •

وفي الوقت الذي يرى فيه جماعة (ولبرت) ان التدرج ناشيء عن مواد نافذة يرى (وبستر) ان النتائج يفسرها وجود « نقل فعال » بأتجاه معين لخلق التدرج[١٠] • كما ان (وبستر) يذكر ان النتائج يمكن تفسيرها وفق نماذج (او موديلات) اخرى مثل « موديل لورنس » لما يسمى « انسياب الرمل » او (موديل كودوين وكوهن) • والاهم من كل ذلك « الموديل » الذي يعتمد الحث و « العتبة » الذي يتضمن الاقرار بوجود تفاعل واتصال

بين الخلايا بصورة مستمرة • يناقض ما يفترضه ولبرت • والافتراض الاخر الذي يدخله (وبستر) هو وجود تدرج في « العتبة » او المستوى الذي يؤدي الى الاستجابة الى تأثير المثبط • فمثلا يمكن للخلايا من نوع (أ) ان تنتج مادة (م) تستخدم من قبل خلايا نوع (ب) التي تقوم باستهلاك هذه المادة او تحطمها عندما يرتفع تركيزها عن مستوى معين • وعندما ينخفض تركيز المادة في منطقة الخلايا (ب) عن حد معين فأن مجموعات منها تتحول الى نوع (أ) • وعندما يكون الانتاج مساويا للتهدم او الاستهلاك فان الحالة بين (أ) و (ب) تكون متوازنة • وعند ازالة اي جزء من (أ) او من (ب) سيؤدي الى الاخلال بالتوازن مما يؤدي الى التأثير على سرعة الانتاج او الاستهلاك فيحصل تحول بالخلايا مما يؤدي الى التوازن • ويرى وبستر ان منظمة تحت الفم التحتي يمكن ان تعتبر مصدر الحث او « منظم » يكون مفعوله الرئيسي خلق استقطاب معين للخلايا للتحكم بمحور التشكل •

جانب من دراسات الطرز في الحشرات :

ينقسم جسم جنين الحشرة من مناطق (الرأس ، الصدر ، البطن ••) وكل منطقة مقسمة الى قطع (SEGMENTS) • والقطع متشابهة الى حد كبير مع بعضها ، عدا بعض التحويرات •

وكنموذج لدراسة الطرز مايسمى (عثة الشمع GALLERIA) يمكن ملاحظة القشور او الحراشف لها اتجاه محدد يشير الى الاستقطاب الذي هو اساس الطرز • وفي نوع آخر من حشرة البق يدعي (RHODINUS) يتمثل الطرز بالحزوز والطيات المستعرضة التي وجد ان لها نمطا يعبر عن اختلاف تدريجي في الخلايا المكونة لهذه الخطوط على المحور المتجه من الامام الى الخلف • ومن اجراء تجارب قطع اجزاء من « القطعة » في مواقع مختلفة وتدويرها بدرجات مختلفة ، ظهر الى ما يشير الى اهمية حدود القطعة في تحديد الطرز فيها • حيث ان الاجزاء من وسط القطعة عند تدويرها ١٨٠ درجة تكون

الخطوط المستعرضة قد غيرت اتجاهها في الوسط بصورة معكوسة ، ولكن عند الاطراف تنحرف متأثرة بالنمط المحيط بالقطعة (من نسيج المضيف) ، مما يدلل على وجود تفاعل في الطرز يحصل بعد التدوير • ثم وجد ان حدود القطعة الامامية والخلفية تتحكم باستقطاب القطعة[١١] •

أستنتج (لورنس)[١١] من التجارب على قطع الحشرات وجـــود « التدرج » او الانحدار الاستقطابي ، اعتبارا من حدود القطعة بالاتجاه الاخر ، وربما يكون ذلك قد نشأ من وجود مادة نفاذه تنتقل من خـلال القطعة • وتمثل كل قطعة مجموعة « كلونه » خلوية مجددة تفصلها الحواف بين القطع ، والتي تعمل كمنظم للتدرج الحاصل في القطعة الواحدة • ووصف لورنس تنائج نقل الخلايا من مستوى عال في السلم التدريجي الى مستوى منحدر فأن مادة التدرج الانحداري تنساب من المستوى العالي الى المنخفض مما يؤدي الى تغيير في الجهتين ، من ناحية اخرى اظهرت تجارب (ماكورس ١٩٦٢) ان زرع قطعة تحتوي على الحافة الخلفية للقطعة في وسط قطعة المضيف او المعيل فأن خلايا الاخير تغير استقطابها بأتجاه النسيج المزروع مما يؤكد تغلب تأثير المنظم الذي تمثله الحافة الخلفية ، بتغيير استقطاب الخـلايا •

صعوبات امام نظرية « المعلوماتية المكانية » :

أظهرت هذه النظرية انتشارا وقبولا واسعا وحفزت على العديد من الدراسات وهناك امثلة عديدة يمكن تفسير تطور الطرز فيها في ضوء الموقع المكاني للخلايا ضمن مجال معين ، مما يؤشـر اهمية القيـم المكانية ، وكاطار نظري ومفاهيمي اعتبرت هذه النظرية تقدما على المفهوم العام للتدرج او المعدل الانحداري لتركيز مواد او فعاليات ضمن المجال التكويني • غير انها تتضمن في الوقت نفسه تبسيطا واختزالا نظريا للواقع المعقد والمتغير • ويمكن ان نشير الى الصعوبات التي نعتبرها غير متوافقة مع المفهـوم التبسطي للنظرية المذكورة ما يأتي :

(١) ان الصيغة الاساسية للنظرية تفترض صفيحة بسيطة من الخلايا المتجاورة التي ينعدم التفاعل ما بينها وبين ما يحيطها ، وهذا قد ينطبق على مراحل محدودة من التكوين الجيني •

(٢) ان افتراض عدم التفاعل بين الخلايا سواء المتجاورة او التي تمثل طبقات جنينية مختلفة يتنافى مع الوقائع •

(٣) لا تنطوي النظرية على اية تفسير لظهور « الحدود » المؤثرة في خلق مجال محدد ذي تدرج انحداري معين •

(٤) ان اضطرار النظرية الى التعامل مع حالات يساهم تكاثر الخلايا (او النمو) وتشكل المحاور للابعاد الثلاثة قد ادى الى تحويرات مستمرة في النظرية •

(٥) ان افتراض افتراق (التفسير) عن القيم المكانية يدفع السؤال الى مرحلة اخرى ، وهي كيف تمتلك الخلايا تفسيرا خاصا بها ؟ اليس ذلك هو التحدد او تقرير مصير الخلايا الذي هو جوهر موضوع تطور الطرز والتمايز الخلوي • كما ان انعدام المعرفة الدقيقة بحقيقة المواد والعوامل التي تنشيء منظومة تدرج انحداري ، ومدى تركيز هذه المواد او تطور العتبات او الحدود التي تتحكم في الاستجابة المحددة ، كل ذلك لا يجعل افتراض عمومية الاحداثيات في الانظمة المختلفة ، يستند الى اساس متين •

٥ ـ الحث والتفاعل النسيجي :

وفق هذه النظرة فأن الحث الجنيني هو الاساس في تكوين الطرز في مختلف الاجهزة والتراكيب • والمقصود بالحث الجنيني ، ان نسيج جنيني معين ، يؤثر على مصير او تمايز نسيج آخر عندما يصبح على تماس معه • واری انه يمكن تمييز نموذجين للحث :

الاول ـــ وهو الاهم والذي له تنائج محددة وواضحة بأن يؤثر نسيج معين يمكن تحديده في تطور ومستقبل نسيج آخر بحيث يؤدي الى استجابة سريعة ومحددة جدا ، ويحصل ذلك عادة ضمن مدى زمني معين ، ويكون عادة النسيج المستقبل محدودا وفي حالــة مما تدعى حالــة « الاستعــداد » (COMPETENCE) وتحصل الاستجابة خلال مدة زمنية محدودة اي بسرعة عاليــة •

اما النوع الثاني ـــ فهو التأثير المتبادل لنسيجين متجاورين لفترة زمنية غير قصيرة ، وبحيث يكون ذلك التأثير مستمرا ولا تظهر الاستجابة محددة وواضحة بشكل سريع •

يشمل النوع الاول امثلة كلاسيكية كما في حالة الحث في تكــوين الجهاز العصبي بتأثير تراكيب معينة من الاديم المتوسط ، ويطلق على هذا الحث بالحث الجنيني الاولي ، وهو الذي يؤدي الى تكوين الرأس بتراكيبه المختلفة والجهاز العصبي بمختلف اجزاءه •

ومن الامثلة الاخرى هو حث الحويصلة البصرية للاديم الخارجي لكي يكون عدسة العــين ، وكذلــك حث انسجــة الاديم لتكوين « الريــش » في الطيور مثلا ، وحث نسيج البرعم الحالبي لتكوين الانابيب الافرازيــة في الكلية ، وغير ذلك من النماذج المهمة •

اكتشف الحث من خلال عمليات زرع اجزاء من الاريمية (BLASTULA) لمنطقة ما يسمى بالشفة الظهرية للفتحة الاريمية الى مناطق جديــدة تحت الطبقة التي تكوّن عادة بشرة الجلد ، كان ذلك من قبل (سبيمان وغولد ١٩٢٤)[١٢] ، وقد تكون نتيجة لذلك رأس جديد يضم جهاز عصبي وملحقاته، فدعيت هذه المنطقة بالمنظم (ORGANIZER) ومنطقة الشفة الظهرية المذكورة تنبعج في مرحلة لاحقة الى الداخل لتكوّن الجزء الوسطاني من طبقة الاديم المتوسط المتمثل بالحبل الظهري والقطع الجسمية على جانبيه • وتفســر

ظاهرة الحث بأن هـذه التراكيب تطلق « موادا » تؤثـر في النسيج الواقع فوق هذه المنطقة فتتحول الى صفيحة عصبية • ويستنتج من الظواهر ان هناك تدرجا او انحدار في تراكيز هذه « المواد » المؤثرة (او الحاثة) وقد افترض بعض الباحثون وجود نوعين من العوامل او المواد في النوع الاول يكون التراكيز اعلى في منطقة الرأس ويقل تدريجيا بالاتجاه الذيلي وفي نوع ثاني يكون الانحدار بالعكس •

وازاء عدم معرفة ماهية المواد الحاثة الطبيعية (حيث توجد مواد عديدة من مصادر خارج هذه المنطقة وجد انها يمكن ان تؤثر بنفس الاتجاه) فقد طرحت افتراضات عديدة ، بينما أوّل (ولبرت) الحث بأنه انتقال المعلومات المكانية الى طبقة مجاورة من الخلايا ، ان الحث يحصل على نطاق واسع وفي اجهزة ومراحل متعددة •

والنوع الثاني من الحث الذي اشرنا اليه فيتطلب تفاعلا مستمرا بين الانسجة والخلايا وربما بعوامل عديدة تشمل المكونات لما بين الخلايا ، بمـا يؤثر على المحيط المباشر لنسيج معين ، ومن الامثلة الواضحة تفاعل نسيج الاديم المتوسط مع النسيج الظهاري في مواقع متعددة وذلك التأثير قد يكون واضحا مثلما يحصل في تكـون التفرعـات في الرئة ، والكريـات والقنـوات اللعابية وغير ذلك ، ويمكن الى حد كبير وصف العديد من مراحل التكوين الجنيني بكونها تشمل حث متدرج ومتعاقب •

٦ ــ مفهـوم « الانسالية » (او الكلونة) :

لم تتم صياغة نظرة الانسالية بشكل واضح او على شكل نظرية ولكن هناك منظور يتوسع من خلال الدراسات والبحوث وتبرز جانب يمكن ان يفهم منه ان تكوين الطرز في كثير من الاحيان هو نتيجة ليس لنظام مرن قابل للتعديل وفق التغيرات المباشرة ، وانما هو في الحقيقة ناتج من نمط نمو لنسائل معينة من الخلايا حيث يتم حصـول التحديد المبكر ، قبل ان تظهـر

اية ظواهر او صفات خاصة بالخلايا ، فهذا التحدد بالحقيقة يعني ان عدد محدود جدا من الخلايا (٢ــ٣٢) تصبح ذات مصير واحد تقريبا في وقت واحد[١٣] • وهكذا فأنه في الحقيقة سيكون لدينا مجموعات صغيرة محددة المصير وكل من هذه ستنمو (وربما ستهاجر) بوتائر معينة ويؤدي هــذا النمو لهذه المجموعات الى طرز معينة •

فمثلا نستطيع ان تتتبع الخلايا التي ستكون الاديم المتوسط الـــى عدد محدود في جنين بحدود ٣٢ خلية •

كما يظهر ايضا في مراحل لاحقة ان القطعة الادمية للجلد هي عبارة عن نمو وامتداد انسالي لعدد محدد من الخلايا •

وقد تطورت الدراسات التجريبية لهذا الجــانب بتقنيــات التهجين الجنيني ، وخاصة بمزج خلايا جنينين متميزين بمواصفات وراثية معينة يمكن ملاحظتها لاحقا ، مثل توزيع الخلايا الصبغيــة والوان الشعر وغير ذلك مــن الصفحات ، مما يكشف الجانب الانسالي لهذه الصفات (MINTZ, 1977) [١٣] • اضافة الى ذلك فقد وجد ان هذه النظرة تفسر ظواهر ظلت لفترة طويلــة تحــير الباحثين مثــل القطــع العصبية للانبــوب العصبــي للدماغ (NEUROMERES)

وهناك دراسات اخرى لها علاقة بالمفهوم الانسالي وتتعلق هذه بفعاليات جينات محددة ترافق ظهور طرز في المراحل المبكرة كما لوحظ ذلك فيما يتعلق بتكون القطع (SEGMENTS) في المراحل المبكرة لاجنــة الحشرات ظهر ان فعالية ذات الجينات يمكن ملاحظتها في أجنة الفقريات ، حيث يظهر التعبير عن جينات معينة وفق تسلسل محوري امامي ــ خلفي(١٤) •

٧ ــ نموذج « الاوراق المتساقطة » :

درس الباحث(ثوروكود) نمطااكثر تعقيدا من الطرز التي تتصف بتشكيل مجدد أو منتظم ، وذلك بدراسة تشكل الاجزاء الغضروفية في جمجمة الجنين

فهذه الاجزاء ليست مجرد تشكل او تمايز موضعي في نسيج واحد ،وانما هي تجمعات لخلايا من عدة مصادر ، وان طرز التشكل لايفسر بنظرة بسيطة كالتي توفرها « المعلوماتية المكانية » •

يلاحظ الباحث انه في المراحل المبكرة لتكوين الجمجمة وجود مصدرين رئيسيين من الانسجة : احدهما الاديم المتوسط والثاني من خلايا مهاجرة مما يعرف بالعرف العصبي(NEURAL CREST الذي هو من الاديم الخارجي اصلا

وخلال حركة الخلايا وهجرتها وحتى استقرارها النهائي ، يحصل امتزاج ويصعب فصل او تمييز الخلايا من اي من المصدرين •

يرى (ثوروكود) ان يؤخذ بنظر الاعتبار في عملية تشكل الطرز في جمجمة الفقريات هجرة وتجمع واستقرار الخلايا المهاجرة ، فنمط هذه الهجرة وهذه التجمعات هي التي تظهر بالنتيجة كنمط ظاهري(١٥) •

يمثل (ثوروكود) عملية الهجرة والتجمع للخلايا بما يطلق عليه نموذج «الاوراق المتساقطة» • ومن دراسات الكيمياء الخلوية يظهر ان للظهارة العصبية دورا مهما في حصول التجمعات حيث تظهر في مراحل مبكرة افرازات لمواد غروية (كولاجين II) على مواضع معينة ومحددة من سطح الظهارة العصبية التي تكون الانبوب العصبي الدماغي ، وخاصة في مناطق الثني والانحناء والبروزات •

وتعتبر هذه الافرازات من المكونات المهمة لمواد اللحمة (MATRIX) وتعمل على اجتذاب او بالاحرى اقتناص الخلايا الميزنكيمية المهاجرة ، وخاصة تلك التي مصدرها العرف العصبي • ان النمط المختلف لتجمع الخلايا سيؤدي الى الشكل العام وطرز تكون اجزاء الجمجمة •

ان هذا النموذج يبرز اهمية العوامل المحلية ، وان التغيرات الطفيفة في توزيع التغيرات الكيميائية ـ الحياتية في موضع معين يؤدي الى تغيرات كبيرة في الطرز وفي الشكل العام ، اضافة الى انه يظهر ان التشكل عملية

دينمية مستمرة تتغير فيها المؤثرات ، وفي جوانب منها تظهر اهمية العوامل المحددة لحركة الخلايا واستقرارها ، اضافة الى الاستقرار في موقع معين قد يعطيها قيم مكانية معينة •

ـ نظـــــرة ختاميـــــة :

مما تقدم نلاحظ ان نظريــة «المعلوماتيـــة المكانيــة » قــد ســادت ولفترة طويلة في مجال النظر الى تفسير تكوين الطرز في الجنين ، ولكن رغم ذلك فأنها لا تبدو من الشمولية والواقعية بحيث تستوعب كل الامثلة والحقائق، من دون تحوير او ادخـال فرضيات عرضية (AD HOC HYPOTHESES) كما نلاحظ في متابعة تطور البحـوث التجريبية للبرعم الطرفـي ، مما اضطر متبنوا « المعلوماتية المكانية » الى طرح نماذج أو «موديلات» نظريـة جديدة او تفسيرات جديدة •

من منظور جديد يمكن ان نرى اننا امام حالات ، وليس حالـة متماثلة تماما في كل مرة نرى تشكل طرز جديد او تركيب منظم من اجـزاء الجنين ، وهذا يجعل الاختزال صيغة تجريدية مبسطة وشاملة امر ليس بيسير •

اذا كنا ننظر الى اي تركيب جنيني في مراحله المبكرة على انه مجال اوحقل معين لتشكل ذلك التركيب ، فانه يبدو بسيطا في البداية لكنه بالتدريج ينتقل الى تقسيمات او «حقول» ومجـالات أصغر ، ويؤدي ذلك الى ظهـور مناطق متميزة ضمن هذا التكوين وقد تعود هذه المجالات او الحقول الى ان تنقسم الى حقول فرعية اخرى وهكذا •

في كل هذا التطور من المجال المتجانس الى مجالات فرعية ، تبدو لنا عوامـل مهمة يجب أخذها بنظر الاعتبار :

الاول ــ هو وجود « الاستقطاب » (POLARITY) ، الذي يرافقه تدرج او انحدار تركيزي (GRADIRNT SYSTEIM) سواء اعتبرنا ذلك الانحـار

من جراء مواد ذات نفاذية او خلال تراكيب بتدرج معين ، قد تتحكم بالتالي بالحد او العتبة التي تؤدي الى تغيير في سلوك الخلايا بمستوى معين •

ان من الملاحظ ان هذ النظام التدرجي (او الانحداري) يتحكم في التناسق العام بين الاجزاء •

الثاني ــ هو اهمية العوامل «الموضعية» ، سواء كان داخل الخلايا او مايحيط بها • ومن الملاحظ ان نظرية «المعلوماتية المكانية» تلغي اهمية العوامل الموضوعية ، التي قد تؤخذ بأنها نوع من التوزيع التشكلي لما يسمى بـ «ماقبل الطرز» (PRE-PATTERN) ولكن ذلك ليس بالضروري ان هذا هو الشكل الوحيد لتأثير العوامل الموضعية •

فالمعلوماتية المكانية ترى وجود نظام تدرجي ، وقدره تفسير للخلايا ، بغض النظر عن العوامل المحيطة بالخلية ، وهي تنكر اي تفاعل تبادلي محلي ، وهذا عكس ما تشير اليه الدراسات العديدة في هذا المجال •

الثالث ــ اننا نلاحظ ان مجموعات خلوية معينة او تراكيب بدائية تظهر اثناء تطور التشكل الجنيني ، في مناطق معينة ، لها فعالية كبيرة ودور مؤجه لتشكل الخلايا القريبة منها ، قد ندعوها مؤقتا بالتراكيب المتحكمة وقد تكون هذه مؤقتة من حيث ظهورها في الجنين ، كما نلاحظ من دون الحبل الظهري مثلا ، او ظهور الحيد الظهاري القمي في برعم الطرف او حدود القطعة في الحشرات •

الرابع ــ النمو وطرزه سواء في الجنين ككل او في تركيب محدد ، اذ ان لذلك اهمية كبيرة جدا في التشكل وفي الهيئة النهائية للتركيب • وللنمو علاقة مباشرة بمفهوم «الانسالية» حيث ان النمو والانتشار لمجموعة خلوية بموصفات معينة بالنسبة الى مجموعات اخرى يتحكم في الطرز في حالات عديدة •

عند استعراض مراحل اساسية في التشكل الجنيني المبكر ، نجد مثلا اهمية ظهور الاستقطاب في البويضة ، وهذا يظهر في بعض الاحياء ، حتى وأن كانت البويضة لازالت فيالمبيض،ولتوزع المواد الغذائية المنتقلة من الام خلال الخلايا الحاضنة او الحويصليةفيالمبيض، فيداخل سايتوبلازم البويضة، حتى ان بعض الاحياء اللافقرية يكون ارتباط البويضة بالمبيض عامل متحكم في ظهور الاستقطاب .

وعند الاخصاب يلعب موقع دخول الحيمن في الكثير من الاحياء دورا مهما في استقرار الاستقطاب وكذلك في ظهور مناطق محددة على المحور الاستقطابي ، وهذا مصحوب بتعاضم الفوارق في توزيع المواد والتراكيب الخلوية المختلفة داخل البويضة المخصبة مما يؤكد اهمية العوامل الموضعية او « المناطقية » . ومن امثلة هذه التراكيب الواضحة في توزيعها ، مثلا تركيز أو كمية المح في سايتوبلازم الخلية ، حيث يتركز ذلك في منطقة معينة من البويضة وهذا يؤشر الى « القطب النباتي » في حين تتناقص كثيرا كمية المح في منطقة «القطب الحيواني» ، ويرافق ذلك ايضا توزيع تفريقي لحبيبات قد تكون ملونة في المناطق المختلفة ، وبالنتيجة تظهر اهمية هذا التوزيع بأن كل منطقة ستكون نسيجا جنينا محددا ، كأن تكون منطقة القطب النباتي ،الجهاز الهضمي ، وتشكل منطمة القطب الحيواني ، نسيج الاديم الخارجي وفي الوسط يتكون الاديم الخارجي .

بعد هذا التوزيع المبكر للمواد المختلفة ، وما يؤدي اليه ذلك التوزيع من اختلافات موضعية وبالتالي يحدد ايضا امكانيات التطور المستقبلي لكل منطقة ، يلي ذلك حصول حركة بالانسجة المكونة بما يعرف بالحركة التشكلية (MORPHOGENTIC MOVEMENT) ، بحيث تنشأ علاقات جديدة واعادة تشكل عام للمجموعات الخلوية ، يتبع ذلك ظهور المجالات المختلفة للاعضاء والتراكيب الرئيسية للجنين وبعض هذه المجالات والتحديدات تنشأ مرتبطة

بصورة واضحة بعلاقة نسيج الى نسيج اخر وهذا ما اشرنا اليه سابقاً بالحث الجنيني • ان كل ذلك يظهر ان التحديد تدريجي ومتسلسل فالخلايا التي تبدو متماثلة في بداية التكوين الجنيني تنطوي بالحقيقة على فروقات ضئيلة وغير ظاهرة ، يتم « استثمارها » في المراحل المتسلسلة من التغييرات والانقسامات لتتعاظم هذه الفروقات ، فتظهر مناطق متمايزة تمثل مجموعات الخلايا بمواصفات تختلف عن بعضها البعض •

ان هذه الفروقات وما تؤدي اليه من تحدد لسلوك الخلايا وصفاتها ، يتضمن ايضا ظهور مناطق للخلايا المتحكمة التي تغير مصير ما حولها وتجعلها ضمن مجال تأثيرها ذلك التأثير الذي يأخذ صفة التدريج (او الانحدار) •

اذن فهناك تعددية بالعوامل المؤثرة على مصير الخلية ضمن نظام تظهر له حدود وكأنه حقل للتأثير • واذا كانت نظرية « المعلوماتية المكانية » تميل الى فصل نوعية وتفاصيل العوامل عن ناتج تأثيرها الذي يعتبر استجابة الخلية لهذه العوامل او المعلومات ، اي ان التمايز يحصل بخطوتين فلا اظن ان ذلك اكثر من محاولة توضيح لعملية واحدة متداخلة في احداثها وجوانبها • فقد يكون ذلك تأثير مباشر او غير مباشر على آلية « التعبير الموروثي » (GENES EXPRESION) لنظام المعلومات الوراثية الذي هو في حالة معينة وفقا لتسلسل الاحداث الذي اثرت فيه بحيث جعلت « مورثات » في ذلك الوضع المتمثل بمجموعة العوامل المحيطة اكثر استعدادا وقدرة على ان « تستنسخ » لتكون البروتين او الانزيمات التي بدورها تؤدي الى ظهور صفات معينة بالخلية من مورثات آخرى اصبحت بحالة غير فعالة • ان الاستقرار النهائي او شبه النهائي لحالة فعالية «المورثات» للخلايا التي تميز بعضها البعض لاتتم الا خلال مراحل متدرجة ولكن هذه العملية لازالت غير معروفة بتفاصيلها الدقيقة ، وتبدو بعض الحالات ان العوامل المؤثرة في تحديد مصير خلايا معينة مقارنة بمثيلات لها مجرد عوامل طارئة كأن تكون تحديدات ميكانيكية او تغيرات في زمن وقوع حدث معين مقارنة بمجموعات آخرى ••

وهذه لاتعود الى ظواهر او صفات تبدو محددة مسبقا ضمن المعلومات الوراثية وانما هي تتاج لعمليات لتغيرات ونشاطات اخرى قد تكون من النتائج الثانوية لفعاليات وراثية معينة ، ولهذا السبب وبالرغم من أن المعلومات الوراثية هي المتحكمة لكنها لاتتحوي على وصف للنتائج وانما على مفاتيح لعمليات تتيح الصول الى النتائج المعنية ولذا توصف عملية التكوين الجنيني بذلك بأنها عملية تخليق او توليد (EPIGENESIS) (١٦) ، وليست عماية موصوفة مسبقا بكل تفاصيلها •

ويمثل هذا منظور تبدو فيه الاحداث ليست ذات تحدد كامل مسبقا ، بل تحدد تدريجي وبوجود نظام يستثمر الفروقات الجزئية يصبح من الممكن ان نحصل على تنوع كبير ومتصاعد بل ومعقد في التشكلات الممكنة اضافة الى ان تحقق الحدث وانتقاله من الممكن الى الوقوع هو عملية تدريجية في مدى تحددها المسبب •



1. Wolpert, L. (1969) Positional information and the Spatial Pattern of Cellular differentiation. J. Theoret. Biol. 25, p 1-47.21.

2. Child, C.M. (1941) "Patterns and problems of development". University of Chicago press.

3. Balinsky, B.I. (1970) "An Introduction to Embryology" W. B. Saunders Co Philadelphia.

4. Harrison, R.G. (1935). Factors Concerned in the development of the ear in Amblystoma punctafum. Anat. Rec. 64-38-39.

5. Waddington, C.H. (1957). "The strategy of the Genes". London: Allen and Unwin.

6. Wolpert, L. (1971). Positional Information and yattern formation. In "Current topics in developmental Biology" vol. 6. edited by Moscona, A.A and A. Monroy Academic press. New York, London.

7. Saunders; J. W. (1948). The Proximo - distal sequence of the origin of the parts of the chick wing and the role of ectoderm J. Exp. Zool. 108, 363-403.

8. Wolpert, L. ; Lewis, J.H. ; and Summerbell, D. (1975) . Morphogenesis of the verebrate limb. In "Cell patterning", Ciba Foundation Symposium 29, eds. R. Porter and J. Rivers, PP. 95-130. Elserier-North Holland. Amsterdam.

9. Wolpert, L. (1982). Pattern formation and change, in "Evolu tion and development". ed. J.T. Bonner. Dahlem Konferenzen. Spring Verlag Berlin. PP. 169 - 188.

10. Webster, G. (1971). Morphogensis and pattern formation in Hydroids. Biol. Rev. 46, 1-46.)

11. Lawterce, P.A. (1971). The organization of the insect segment. In " Control Mechanisms of Growth and Differentiation ". Symposia of the Society for experimental biology 25. PP. 379-390,. Cambridge University press.

12. Spemann, H. (1938). "Embryonic development and induction". Yale University press. New Haven.

13. Mintz, B. (1971). Clonal basis of Mammalian Differentiation. "Control Mechanisms of Growth and Differentiation". Symposia of the Society for Experimental biology -25. PP. 345-370. Cambridge.

14. Holland, P.W. (1988). Homeobox genes and the vertebrate head. Development, 103 Supplement, 17-24.

15. Thorogood, P. (1987), Mechanisms of morphogentic specification in Skull development. In "Mesenchymal Epithelial Interactions in Neural development ed. J.R. Wolff; J. Sievers and M. Berry", PP. 141-152. Springe- Verlog. Berlin.

16. Lovtrup, S. (1974), "Epigenetics", J. Wiley, London.



نهايـــة النهايـــة

١ ـ توجس السياسة الاسبانية وعصر الغارات البحـرية الاسـلامية

بقلم اللواء الركن
محمود شـيت خطاب
عضو المجمع العلمي سابقا
عضو شرف حاليـا

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول ان يحتفظ بشخصيته وكرامتـه وحقه في الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التي تريد ان تسحق في بقية الامة المغلوبة كل أثر للحياة الحرة الكريمة ، ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة اخرى ، نذيرا عميق الاثر للسياسة الاسبانية ، ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها ، وكان الشعـب المسكين الاعـزل ما يزال رغم ضعفه وذلتـه يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة في الشؤون الاقتصادية ، وكانت الكنيسة ما تزال تنفث الى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق ايمانه ، وقد وصف المطران جريرو الموريسكيين في سنة (١٥٦٥م) بقوله : (انهـم خضعـوا للتنصير ، ولكنهـم لبثوا كفرة في سرائرهم ، وهم يذهبون الى القداس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية في أيام الاعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيـوم الاحد ، ويستحمون حتى في كانون الثاني ــ ديسمبر ، ويقيمون الصلاة خفية ، ويقدمون اولادهم للتنصير خضوعا للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان اولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم الى الكنيسة في ثياب اوروبية ، فاذا عدن الى المنـزل استبدلنها

بثياب عربية ، واحتفل بالـزواج طبقا للرسوم العربية»[١] • وهـذه الاقوال تنطوى على كثير من الصدق ، ذلك ان الامة الموريسكية المهيضة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والارهاق متعلقة بتراثها الروحي القديم • وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهـم مسلمين في سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمـة خفية ، ويكتبون أحكام الاسلام والادعية والمدائح النبوية بالقشتالية الاصلية ، أو بالقشتالية المكتوبة بحروف عربية ، وهي التي تعرف بالالخميادو Aljamiod'o أي (الاعجمية) • وقد وصلت الينا كثـير من الكتب الدينية والادعية والمدائح الاسلامية الموريسكية مكتوبة بالالخميادو ، وكثير منها يدور حـول سيرة النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والاساطير المقدسة[٢] • بيد انها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من اخلاص راسخ لدينها القديم ، وان التبست عليهم أصوله وشعائره بمضي الزمن •

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطـه ضد الموريسكين طـوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الاسلام بقيت بالرغم من كر الاعوام وتوالى المحن ، دفينة في قلب الشعب المضطهد ، تنضح آثارها من آن لآخر ، يدل على ذلـك ما تسجله محفوظات الديوان ، من ان قضايا الموريسكيين امام محاكم التحقيق ، بلغت في سنة (١٥٩١م) ، (٢٩١) قضية ، وبلغت في العام التالى (١١٧) قضية ، وظهر في حفلة : « الاوتو دا فى » Auto-da-fe التى اقيمت في (٥ ايلول

(١) Dr. Lea: The Moriscos; P. 213-214 وكذلك Marmol; Ibid, II Cap. I.

(٢) وضع القس الاسباني Pedro Longts عن حياة الموريسكيين الدينية كتابه Vida Religiosa de los Moriscos (Madrid 1915)
وفيه يورد كثيرا من رسومهم وعوائدهم الدينية ، وكثـيرا من الايات والمدائح النبوية بالقشتالية .

ـ سبتمبر سنة ١٦٠٤م) ثمانية وستون موريسكيا ، تفذت فيهم الاحكام ، وظهر في حفلة (٧ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٦٠٧م) ثلاثة وثلاثون موريسكيا، واستعمل التعذيب في محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الاتهام يوجه أحيانا الى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحـــلات الموريسكية ، فقد حدث مثلا في سنتى (١٥٨٩م و ١٥٩٠م) ان سجلت في قرية مسلاته الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت في قرية كارليت مائتان ، واتهم اربعون اسرة بصوم رمضان . والواقع انه كان من الصعب على من بقيت في نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء . ولم يخمدها تعاقب جيلين او ثلاثة من النصرانية المفروضة ، ان يكونوا دائما بمنجاة من الاتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكي بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق او الباطل ، واذا كانت ثمة اوقات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالاخص الى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين في بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح . كانت أسرة بنى عامر من أعرق الاسر المسلمة القديمة ، التي أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها اخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ، ودون خوان ، ودون هرناندو بني عامر ، ومنزل الاسرة في بنجوازيل (بنى وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات اخـــرى ، محرمـــة على الموريسكيين . ففي (مارس ـ مايو سنة ١٥٦٧م) صدر قـــرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد ان وافقت المحكمـــة العليا (سوبريما) نظرا لخطر مكانتهم ، فاختفى الاخوة الثلاثة حينا ، ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات في (كانون الثاني ـ يناير ١٥٦٨م) ، وقرر في التحقيق انه يعتقد انه نصر طفلا ، ومـــع ذلـــك فانه لا يعتبر نفســـه نصرانيا بل مسلما ، وانه جرى خلال حياتـــه على مراعاة الشعائر الاسلامية ، ولم يذهب الى المعترف الا خضوعـــا للاوامر ، على انه ينبغي ان يكـــون في

المستقبل نصرانيا ، وان يؤدي ما يطالبه المحققون اليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته اي دفاع ، ولكنه افرج عنه في (١٥ حزيران - يوليو) بضمان قدره الفى دوقة ، على ان يبقى في بلنسية ولا يبرحها • ومع ذلك سافر دون كوزمى الى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة الاف دوقة ، واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، ان يحصل للموريسكيين في بلنسية على قرار التوفيق الصادر في سنة (١٥٧١م) كما قدمنا •

وفي سنة (١٥٧٧م) جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الاسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الاولى ، ولكن القضية ، أوقفت قبل ان يصل التحقيق الى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ استطاعوا ان يحصلوا على براءتهم واطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال(٣) •

وهكذا نرى ان الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذي فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، ان يحتفظوا في قرارة نفوسهم الكليمة ببقية راسخة من تراثهم الروحي القديم •

هذا من ناحية الدين والعقيدة ، أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعا متماسكا متضامنا ، قويا بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن السادس عشر وفقا لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر بعضهم الآخر عددهم يومئذ باربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان اسبانيا في ذلك الوقت ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين • ووصفهم سفير البندقية في سنة (١٥٩٥م) ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد في العدد والثروة ،

(٣) Dr Lea : History of the Inquisition V. III. P. 362-365

وانهم لا يذهبون الى الحـرب ، ولكن يكرسـون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح • وذكر الكاتب الاسـباني الكبير فرڤانتيس[٤] في بعض رسائله ، أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون اولادهم قط في سـلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون في الانفاق ، ويكتنزون المال ، فهم الآن اغنى الطوائف في اسبانيا • وأمـا عـن الناحيـة الاقتصادية ، فقد قيـل ان الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصـيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالـة والماشية ، ومنهـم القصابـون والخبازون واصحاب الفنادق وغيرهم ، ولا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال اموالهم ، وقد كان ذلك من اسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية[٥] •

كانت اسبانيا النصرانية اذاً ، أبعد من ان تطمئـن الى مجتمـع العرب المتنصرين ، فقد كانوا في نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهي تخشـى ان يعود الى الثورة ، وهي تخشى من صلاتـه المستمرة مع مسلمي افريقيـة ومع سلطان الترك ، وهي ما زالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الاخـيرة للشعب الفاتح ، والقضاء الى الابد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا •

والواقع ان صلات الموريسكيين مع اعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الاسبانية • وقد كانت المماليك والامارات المغربية في الضفة الاخرى من البحر على استعداد دائما لان تصغى الى هذا الشعب المنكود ، سليل اخوانهم الامجاد في الدين ، وان تعاونه كلما سنحت الفرص • وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغـوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على اشدها ، في مياه البحر الابيض المتوسط ،

---

(٤) مجيـل ثرفانتس دى ساڤـدرا (٤٧ ١-١٦١٦) من اعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصـة الفروسية الشهيرة : دون كيخوتـي دى لامانشا .

(٥) Dr Lea : The Moriscos. P. 204, 210

وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية. واكثر من ذلك ان السياسة الاسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على ان تعتبر الموريسيكين خطرا قوميا يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الينا الرواية الاسبانية دلائل هذا الخطر في حوادث كثيرة ، ففى سنة (١٥٧٣م) وقفت السلطات الاسبانية على انباء مفادها ان أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » في مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين في بلنسية ، وقيل بعد ذلك ، ان هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لاراغون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسى ، وان سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيدا المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول في مياه برشلونة وفي دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ،وان الفضل في اخفاق هذا المشروع كله يرجع الى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حينا على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الاسبانية من ان هنري الرابع ملك فرنسا ، كانت له في ذلك مشاريع خطرة ، ترمى الى غزو اسبانيا من ناحية بلنسية، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وان زعماء الموريسكيين وعدوا بأضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، وان يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر ان تقوم الثورة الموريسكية في سنة (١٦٠٥م) ، ولكن المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التي جمعها « ديوان التحقيق » الاسباني على يد اعوانه وجواسيسه ، تنقصها الادلة التاريخية الحقة[٦] .

---

(٦) Dr. Lea : The Moriscos; P. 281-284 and 286 - 288

على ان الخطر الحقيقي ، كان يتمثل في غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الاسبانية ، وتملأ سير هذه الغارات فراغا كبيرا في الرواية الاسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الانتقام للاندلس الشهيدة • وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهرا بعد اخراج العرب المتنصرين من اسبانيا • ويشير المقرى مؤرخ الاندلس الى مغزى هذه الغارات البحرية بعد اخراج الموريسكيين ، فيقول : انهم انتظموا في جيش سلطان المغرب، وسكنوا مدينة سلا ، وكان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الان[٧] •ويجب أن نذكر أن مياه البحر الابيض المتوسط شرقه وغربه ، خلال العصور الوسطى كانت دائما مسرحا سهلا للاساطيل الاسلامية • فمنذ ايام الاغالبة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الاساطيل الاسلامية تجوس أواسط البحر الابيض المتوسط وغربيه ، وكانت الدول الاسلامية الاندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة في شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ، وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية ، وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال « القرصنة » توجد في هذه العصور دائما ، الى جانب نشاط الأساطيل الرسمية • وكان البحر الابيض المتوسط منذ أقدم العصور مسرحا لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر « القراصنة » يومئذ من النصارى ، من الامم التي غزت البحر في عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة وفي أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات في البحر الابيض المتوسط ، واستمر النصارى عصورا زعماء هذه المهنة • ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج • وكانت المغانم الوفيرة من الاتجار في الرقيق ، والبضائع المهربة ، وافتداء الرقيق ، تذكى عزمهم ، وتدفع اليهم بسيل من

---

(٧) نفح الطيب (٢/٦١٧) ، وقد انجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠م •

المغامرين من سائر الامم . ولما ظهرت الاساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر ، ضعف أمر اولئك المغامرين . ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا في هذا الميدان الا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الاندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى ، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية . وكانت الشواطىء المغربية تقدم اليهم المراسى الصالحة . ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على القسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر . وكان سقوط غرناطة واضطهاد الاسبان النصاري للمسلمين ايذانا بتطور هذه المغامرات البحرية ، ونزول الاندلسيين والموريسكيين المنفيين الى ميدانها ، واتخاذها مدى حين ، صورة الجهاد والانتقام القومى والدينى ، لما نزل بالامة الاندلسية الشهيدة من ضروب العسف والارهاق[8] .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على السواحل الاسبانية ، عقب استيلاء الاسبان على غرناطة ، واكراههم للمسلمين على التنصير . في ذلك الحين غادر الاندلس آلاف من الاندلسيين المجاهدين ، أنفوا العيش في الوطن القديم ، في مهاد الذلة والاضطهاد ، تحت نير الاسبان ، وعبروا البحر الى عدوة المغرب ، وقلوبهم تفيض حقدا ويأسا ، واستقروا في بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر وبجاية ، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله ، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم ، وظلموا أمتهم ، وانتهكوا حرمة دينهم ، وكان البحر يهيىء لهم هذه الفرصة التي لم تهيؤها لهم الحرب البرية ، وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ، وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة ، التي تحميها وتحجبها الصخور العالية ، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك التجار المجاهدين والقراصنة المغيرين . وكانت الجزائر

(٨) Lane-Poole : The Barbary Corsairs; P. 26 and 27

وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والاقلاع ، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالاخص على عنصر المباغتة ، وتنجح في معظم الاحيان في تحقيق غاياتها •

ويصف بيترو مارتيري هذه الغارات بأسهاب ويقول : ان فردنياند الخامس أمر في سنة (١٥٠٧م) للتحوط ضد هذه الغارات ، بأخلاء الساحل الجنوبي من جبل طارق الى ألمرية لمدى فرسخين الى الداخل • ثم صدرت مراسم متعددة تحضر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئا ، واستمرت الغارات على حالها • وكان اللوم يلقى في ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولا سيما أهل بلنسية • وكان الموريسكيين كلما اشتد عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا الى اخوانهم في المغرب يستصرخونهم للتدخل والانتقام • وكان المجاهدون المغاربة يغيرون بسفنهم على الشواطىء الاسبانية ، ويخطفون النصارى الاسبان ، ويجعلونهم رقيقا يباع في اسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن احوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ، ويمدونها بالاقوات والمؤن • وكانت الحملات تجهز في أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ان تنقل منهم الى الشواطىء الافريقية جماعات كثيرة •

وقد ظهر منذ اوائل القرن السادس عشر الميلادي في الميدان عنصر جديد ، أذكى موجة الغارات البحرية في هذه البحار • ذلك ان البحارة الترك، وعلى رأسهم الاخوان الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين[٩] اندفعوا

(٩) ويعرف كلاهما في الرواية الاوروبية : بارباروسا (او ذو اللحية الحمراء ، وقد انتهى الينا عن مغامرات هذين الاخوين الشهيرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية ، منقول عن اصل تركي ، نشر في الجزائر سنة (١٩٣٤م) بعنوان « غزوات عروج وخيرالدين » . والظاهر انه من تأليف راوية معاصر ، أو قريب من العصر •

من شرقي البحر الابيض المتوسط الى غربيه ، في طلب المغامرة والكسب • وفي سنة (١٥١٧م) سار أوروج في قوة برية وبعض السفن الى الجزائر واستولى عليها • ولما قتل في العام التالى في معركة نشبت بينه وبين الاسبان ، استولى أخوه خيرالدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكما على هذه الانحاء ، وأمده بالسفن والجند • وتألق نجم خيرالدين في ذلك الحين ، وأصبح اسمه يقرن بذكر اعظم امراء البحر في ذلك العصر ، وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغودالنه خلفه في الرئاسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودي ، وايدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة • وبسط اولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر الابيض المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الايطالية والاسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والموريسكيين • وبدأ خيرالدين غاراته في المياه الاسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة اشهر ، عاث فيها في البقاع الساحلية ، وجمع في سفنه كثيرا من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، واسر كثيرا من الاسبان • وعرج اثناء عوده على جزيرة منورقة • وكان من اهم الغارات التي نظمها خيرالدين على الشواطىء الاسبانية ، غارة وقعت في سنة (١٥٢٩م) ، وذلك ان جماعة من الموريسكيين في بلنسية فاوضوه لكي ينقلهم خلسة الى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه ، ايدين ريس ، وصالح ريس ، الى المياه الاسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلا عند أوليفا الواقعة شمال غربي دانية أمام مصب نهر « ألنيا » ونزلت منها الى البر قوة استطاعت أن تجمع من الانحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الاسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) • ولكن سفن بربروس انقلبت فجأة من الدفاع الى الهجوم ، وأنقضت على السفن الاسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت بعضها الآخر ، وسارت سالمة الى الجزائر

تحمل الموريسكيين الفارين ، وعددا من اكابر الاسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الاسبانيـة الفخمة • وكان صريـخ الموريسكيين يتوالى الى خيرالدين وخلفائه من أمـراء المغرب ، ولا سيما أيام الثورات المحليـة التي تشتد فيها وطأة الاسبان على الامة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالت بعوث خيرالدين وغاراته على الشواطىء الاسبانيـة ، وتتابعت الفـرص لـدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة وفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خيرالدين منهم الى شواطىء المغرب نحو سبعين ألفا[١٠] •

وكان سلطان خيرالدين وزملائه البحارة الترك في المياه المغربية ، عاملا في تحطيم كثير من مشاريع اسبانيا البحرية في المغرب • وكان الاسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة (١٥٠٥م) ، واحتلوا ميـاه تونس سنة (١٥٣٥م) ، بانضواء أميرها الحفصى المعزول تحت لوائهم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم الى الاسبان للاحتفاظ برياستهم • ولدينا صور من عدة وثائق موجهة من هؤلاء الامراء الى الامبراطور شرلكان ، يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضـواء تحت حمايته ، وهي تدلـى بموضوعها او أسلوبها بما انتهت اليه الجبهة الاسلامية في المغرب في هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم •

---

(١٠) راجع كتاب الاستاذ لاين بول The Barbary Corsairs في الفصول الاول والثانـي والثالث ، حيث يـورد كثيرا من التفاصيل المهمـة ، عن هـذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخيرالدين ، وراجع كتـاب « غزوات عروج وخيرالديـن في ص (١٩ و٤٨ و٨١ و٨٢) • وخير الدين واخوه مجاهدان لا غبار على جهادهما ، بـذلا جهدهما في الدفـاع عن المستضعفين من المسلمين الاندلسيـين ، وانتقما ممن ظلم اولئـك المستضعفين ، وانقذا عشرات الالوف من المسلمين الاندلسيين المضطهدين من براثن ظلم الاسبان النصارى ، فهما مجاهدان بالنسبة لنا ، وقراصنة بالنسبة للمستشرقين وغير المسلمين ، ولا عبرة باتهامهما من اعداء الاسلام بالقرصنة ، ولكن على المسلمين الا ينقاوا اتهام النصارى واعداء المسلمين ويصدقونها •

وفي سنة (١٥٥٩م) قام أمـير البحـر التركي طرغود ، الذي خلف خيرالدين في الرياسة بغارة كبيرة على الشواطىء الاسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفي وخمسمائة موريسكي ، في سنة (١٥٧٠م) استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين في بالميرا ، وفي سنة (١٥٨٤م) سار اسطول من الجزائر الى بلنسية وحمل الفين وثلاثمائة موريسكى . وفي العام التالى ، استطاعت السفن المغيرة ان تحمل جميع سكان مدينة كالوسـا . وبلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية بـين سنتى (١٥٢٨م و ١٥٨٤م) ثلاثا وثلاثين غارة . هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعة من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الاسبانـي الكبير ثرڤانتيس هذه الغـارات البحرية المروعة في صور مثيرة شيقة ، ولا غرو فقد كان هو ايضا من ضحاياها ، اذ أسر في الغارات التـي وقعـت سنة (١٥٧٥م) ، وحمـل أسيرا الى الجزائـر ، ولبث يوسف في اسره بضعة أعوام ، حتى تم أفتداؤه في سنة (١٥٨٠م)[١١].

وكان ممن عمل في البحر مجاهدا في تلك الايام ضد الاسبان ، بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذى غدوا من أثر الاضطهاد من ألـد أعداء اسبانيا ، مثل الريس بلانكيو Blanquillo والرئيس أحمد أبو على من أشونية ، ومراد الكبير جواد يانو من مدينة تيوداد ريال (المدينة الملكية) وغيرهم ، وقد أبلى هؤلاء الزعماء الموريسكيون في البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لاحكام الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية ، ومضاعفة عصفها وعيثها .

ووقعت في سنة (١٦٠٢م) غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غربى قرطاجنة على مقربة من الشاطىء ، وحمل عددا من الاسرى ، وكثرت الغارات في الاعوام التالية على الشاطىء

(١١) Dr Lea : History of the Inquisition in Spain; V.III. P. 363

الجنوبى ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار انكليزى مغامر ، يحشد في سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث في الشواطىء الاندلسية ، ويقتنص الاسرى النصارى ، ويبيعهم عبيدا في اسواق المغرب •

وكانت ثغور تونس في ذلك الوقت نفسه ، في أيام حاكمها عثمان داى (سنة ١٠٠٧هـ — ١٠١٩هـ = ١٥٩٨م — ١٦١٠م) ملاذا لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشاطىء الاسبانى بلا انقطاع• وكان من أشهر أولئك البحارة يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غـارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان في كل مرة يعود مثقلا بالغنائـم والسبى • وهكذا لبثت الغـارات البحرية عصرا من الزمان ، تزعج الحكومة الاسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالاخص منذ منتصف القرن السادس عشر ، وكان هذا غريبا في الواقع ، اذ كانت اسبانيا سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الاطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهنـد الغربية ، وتسيطر على ميـاه البحر الابيض المتوسط الغربية ، بيد أنها لم تستطع ان تقمع هذه الغارات البحرية الصغيرة المفاجئة ، التي كان يقوم بها على الاغلب جماعـات مجاهدة ، من رجال البحر المغاربة ، في سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم في ذلك يلقى دائما على الموريسكيين ، ولا سيما سكان الثغور منهم فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيره بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون، ويعينون لها مواقع الرسو والاقلاع ، وقد كانت تأتى على الاغلب لمعاونتهم على الفرار الى ثغور المغرب ، وقد كان الموريسكيون بالرغـم من اضطهادهم والتشدد في مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى افريقية وأمراء المغـرب جميعـا •

لبثت هذه الغارات البحرية عصرا مشغلا شاغلا للحكـومة الاسبانية لا تجد سبيلا الى قمعها والتخلص من آثارها• وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال الموريسكيين ، عنصرا بارزا في تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة

الانتقام للامة الشهيدة ، تجشم في معظم الاحيان وراء هذه الغارات المجاهدة. ولما تم نفى الموريسكيين من اسبانيا ، زادت هذه الفكرة وضوحا واشتدت وطأة الغارات بما انتظم في صفوف المجاهدين من المنفيين ، وعدت مدينة شلا بالأخص ، مركزا لاولئك المبعدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الاسبانية[١٢] .

ولبث البحارة الترك عصرا ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ، ثم أخذت هذه الغارات تفقد هدفها القديم بمرور الزمن ، وتنقلب الى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الايطالية ، كما تنظم على الشواطىء الاسبانية ، وترمى قبل كل شيء الى تغذية أسواق المغرب والشرق الادنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة، مغامرون من الأفرنج من سائر الامم. وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ اواخر القرن السادس عشر على طرابلس الغرب وتونس والجزائر ، في هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الانزال والاقلاع في ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون الى خزينة الباشا او الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الالوف من النصارى ، واستمرت بعد ذلك هذه الغارات زمنا طويلا[١٣] .

وحدثت في تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية ، في اوائل عهد فيليب الثالث ، في عدوة المغرب احداث أخرى ،

---

(١٢) نفح الطيب (٢/٦١٧) .

(١٣) استمرت تلك الغارات في البحر الابيض المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الاوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة بعضها الاخر والاضرار بتجارتها ومنذ القرن السابع عشر تعمل انكلترا وهولندة وفرنسة على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها وذلك بمهاجمة الشواطيء الغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر ، على انها لم تنقطع نهائيا الا بعد ان غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها (سنة ١٨٣٠م) .

زادت في توجس السياسة الاسبانية ، من مساعى الموريسكيين في استعداء مسلمي افريقية . ذلك ان الحرب الاهلية نشبت في مراكش ، بين السلطان زيدان بن المنصور ، واخيه الشيخ المأمون ، وتعددت المعارك بينهما ، وانتهت بهزيمة الشيخ . وفر الشيخ مع اسرته وأمه الخيزران الى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بتقديم ثغر العرائش الى اسبانيا نظير معاونته . وكان ذلك في اوائل سنة (١٦٠٨م ـ ١٠١٧هـ)[١٤] . وهنا أرسل الموريسكيون في بلنسية ، رسلهم الى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد ليقدموا له مائتي ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو وفتح أحد الثغور الاسلامية الهامة ، ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده[١٥]. واستجاب فيليب لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض سفنه الى شاطيء المغرب ، واستولى الاسبان على ثغر العرائش ، فأشتد السخط على الشيخ ، وانفض عنه كثير من انصاره ، وما زال الشيخ في مغامراته حتى قتل على مقربة من تطاون (تطوان) سنة (١٠٢٢هـ ـ ١٦١٣م) ، وانتهى بذلك أمره[١٦] . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته في سنة (١٠٣٧هـ ـ ١٦٢٧م) أعني بعد نفى الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاما ، في كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة في سنة (١٦١٢م) أن غنمت السفن الاسبانية في مياه المغرب ، على شاطيء الاطلنطى فيما بين آسفى وأغادير ، مركبا لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وفيها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة[١٧] ، وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر ملتجئا الى الجنوب ، وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فانتهبها الاسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب الى اسبانيا ، وضمت فيما بعد الى مجموعة الكتب الاندلسية بقصر الاسكوريال[١٨] .

(١٤) الاستقصا (١٠٢/٣) . (١٥) Dr. Lea : The Moriscos; P. 289-290
(١٦) الاستقصا (١٠٦/٣) . (١٧) الاستقصا (١٣٠/٣) .
(١٨) نهاية الاندلس (٣٦٢-٣٧٥) .

٢ ـ مأساة النفي

أ ـ تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطرا قوميا يجب العمل على درئه والتخلص منه ، وكان هذا التوجس يزيد على كر الاعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولا سيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات المجاهدين البحرية على الشواطىء الاسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى افريقية وبلاط القسطنطينية • وسواء أكان هذا الخطر حقيقة يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر في تصويره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد في نظر السياسة الاسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها •

وكانت السياسة الاسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطواتها الحاسمة ، في شأن الموريسكيين ، وكان هذا الملك المتعصب نفى الموريسكيين بعد الذى عانته اسبانيا في قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل في سنة (١٥٨٢م) مشروعا لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه • وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الامة الاندلسية الى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى سوى ذكريات غامضة • وكان التنصير قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا ابناء قريش ومضر بحكم القوة والضغط والارهاب ، نصارى يشهدون القداس في الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ، غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم الى حظيرتها القومية • وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الاندلسية القديمة ، وكانوا ما يزالون رغم العسف والارهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ،

قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصرا بارزا في انتاج اسبانيا القومي ، ولا سيما في الصناعات والفنون • ولكن السياسة الاسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن أخفقت بوسائلها الهمجية البغيضة في كسب محبتهم وولائهم • وكان ديوان التحقق من جهة اخرى ، ومن ورائه الاحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبدا وصمة في نقاء النصرانية ، ويتصور الاسلام دائما يجرى كالدم في عروقهم •

وقد تضاربت آراء الساسة والاحبار الاسبان ، في شأن الخطوة الحاسمة التي يجب اتخاذها، للقضاء على خطر الموريسكيين• ورأى بعض أكابر الاحبار ان خطر الموريسكيين لا يزول الا بالقضاء على الموريسكيين انفسهم• وكان مما اقترحه المطران ربيرا أن يقضى عليهم بالرمة وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل في السفن ومناجم الهند ، حتى يتم افناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب بعضهم الآخر الى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثاني ، ان يجمع الموريسكيون ، ويحملوا على السفن ، ثم يغرقوا في عرض البحر(١٩) • واستمرت السياسة الاسبانية حينا من الزمن تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثاني (سنة ١٥٩٨م) وخلفه ولده فيليب الثالث • وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأي والارادة، يتأثر كأبيه بنفوذ الاحبار ، ويخضع لنفوذ وزيره وصفيه الدوق دي ليرما • وكان الدوق من أشد أنصار القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ (سنة ١٥٩٩م) ، ووضع لتنفيذها مشروعا ، خلاصته : ان الموريسكيين انما هم عرب ، ويجب ان يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، او ان يسترقوا ويرسلوا للعمل في السفن ، وتنزع املاكهم • أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ، فينفوا الى المغرب ،

(١٩) Dr. Lea : The Moriscos, P. 296-299

واما الاطفال فيؤخذوا ويربوا في المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سرا لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين في اسبانيا .

وفي سنة (١٦٠١م) ، قدم المطران ربيرا تقريرا الى الملك يقول فيه : ان الدين هو دعامة المملكة الاسبانية ، « ان الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الاخيرة ، ولا يأكلون لحم الخزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولا يعملون شيئا من الامور التى يعملها النصارى » . ثم يوضح الاسباب التى تدعوا الى عدم الثقة من ولائهم بقوله : « ان هذا المروق العام ، لا يرجع الى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع الى العزم الراسخ العام في أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون ، أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة ، وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لانهم لا يريدون معرفتها ، ولانهم لا يريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى[٢٠] ، ثم يقول المطران في تقرير آخر : ان الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وان كل وسيلة للرفق بهم قد أخفقت ، وان اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، الى اخطار كثيرة ، وتتكبد في رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، واخماد ثوراتهم ، كثيرا من الرجال والمال . ثم يقترح ان تؤلف محكمة سرية من الاحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخياتتهم ، ثم تحكم علنا بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك في ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لان مجلس الدولة ، كان يرى أن يسير في تحقيق غايته سرا ، وألا تصطبغ أجراءاته في ذلك بالصبغة الدينية .

(٢٠) P. Longas, Vide Religiosa de los Moriscos, P. LXVIII

ومضت بضعة اعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب في أواخر سنة (١٦٠٧م) وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزوا اسبانيا ، وعزمهم على الثورة • عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع في أواخر (كانون الثانى ــ يناير ١٦٠٨م) ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ، وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين الى المغرب ، وقال : ان النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الاعضاء الآخرون ، وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لانهم يتكاثرون بسرعة ، بينما يتناقص عدد النصارى القدماء • وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله ، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصا وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب الى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج في سرقسطة وبلنسية • وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله الى لجنة خاصة على رأسها الدوق ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ، وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهرا لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا الى حيث شاءوا فمن جاز منهم الى افريقية منح السفر الامين ، ومن جاز الى أرض نصرانية أوصى به خيرا ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الاسس بذاتها ، ولكن هذه الاسس الرفيقة نوعا ما لم يؤخذ بها •

وفي كانون الثانى ــ يناير من سنة (١٦٠٩م) بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريرا ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين لاسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الادلة على أن الموريسكيين جميعا خونة مارقون ، يستحقون الموت والرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم ، وتكتفى بنفيهم من أراضيها • وتقرر أن ينفذ المشروع كله هذا العام في الخريف منه ، وأرسلت الاوامر

الى حكام صقلية ونابولى وميلان ، بأعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم ، واجتمعت منذ أوائل الصيف في مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط •

وهكذا انتهت السياسة الاسبانية بعد مدة من التردد ، الى اتخاذ خطوتها الحاسمة ، في القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة في « تطهير » اسبانيا نهائيا من آثار الاسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الاخيرة لشعب عظيم تالد •

ب ـ وفي (٢٢ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) أعلن قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهم الروع والاضطراب ، واليك نص هذا القرار الشهير في صحف المآسى والاستشهاد:

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، واحقاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأي الملك من نفيهم جميعا الى بلاد البربر (المغرب) • وبناء على ذلك فانه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين أن يرحلوا مع اولادهم في ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى الى الثغور التى يعينها لهم مأمور والحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة باطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنهم يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الايام الثلاثة في أماكنهم رهن اشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الاعدام في حالة المقاومة • وقد منح الملك السادة كل الاملاك العقارية والامتعة الشخصية التى لم تحمل ، فاذا عمد أحد الى اخفاء الامتعة أو دفنها ، أو أضرم النار في المنازل أو المحاصيل،

عوقب جميع سكان الناحية بالموت • ونص القرار على ابقاء ستة في المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم في صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ، ومحصول الارز ، وتنظيم الرى ، وارشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة من بين الاسر الاكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية • أما الاطفال ، فأذا كانوا دون الرابعة ، فأنه يسمح لهم بالبقاء اذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم واولياؤهم ، واذا كانوا دون السادسة سمح لهم بالبقاء اذا كانوا من أبناء النصارى القدماء (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لامهم الموريسكية ، فاذا كان الاب موريسكيا والام نصرانية أصيلة ، نفى الاب وبقى الاولاد دون السادسة مع أمهم • كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصاري مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » ، اذا زكاهم القسس • وحظر القرار اخفاء الهاربين أو حمايتهم• ويعاقب المخالف بالاشغال الشاقة لمدة ستة أعوام • كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، ان يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم • وأخيرا نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكي يشرحوا لاخوانهم كيف تم النقل الى المغرب على أحسن حال •

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقوع الصاعقة ، ونهكت قواهم ، وسادهم الوجوم والذهول • وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، اذ انهارت معنوياتهم ، ونضبت مواردهم • وكانت الحكومة الاسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها في جميع الانحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم في بلنسية ، فقروا أنه لا أمل لهم في المقاومة ، وأنه لا مناص لهم من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعا ، وألا يبقى منهم أحد ، ولا حتى نسبة الستة بالمائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتدا مارقا ، ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ،

وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت في الانحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة ، وقتل منهم عدد كبير •

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى ، وقالوا : انهم اعتنقوا النصرانية طوعا قبل التنصير الاجبارى ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شيء فصدر الامر الى الاساقفة ببحث ظلامتهم ، وأن يسمح بالقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والاخلاص •

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين ، فقد هرعت الى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا في بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الاسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والاثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الاثمان • وبدىء بتنفيذ قرار النفى في الجهات التي نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية ، وذلك منذ اوائل (تشرين الاول ـ اكتوبر سنة ١٦٠٩م) ، وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين الف نفس حملوا الى ثغر وهران في الضفة الاخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا الى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهنالك استظلوا بحماية السلطان • وعاد بعضهم الى اسبانيا ، ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا في أمن وسلام • ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، في سفن غير التى عينتها الحكومة الاسبانية ، لنقل المهاجرين واطعامهم دون أجر ، واضطرت الحكومة نتيجة لذلك أن تستدعى عددا كبيراً من السفن الحرة ، الى مياه بلنسية • ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ، ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسقى ونشيد الاغانى ، وهم يشكرون

(٢١) Dr. Lea. History of the Inquisition in Spain; Vol. III, P. 399

الله على العود الى أرض الآبـاء والاجداد ، ولما سئل فقيـه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب : بأنهم كثـيرا ما سعـوا الى شراء قارب أو سرقتـه للفرار الى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف اذا عرضت لنا فرصة السفر الامين مجانا ، لا ننتهزها للعود الى أرض الاجـداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهناك نعيش احرار مسـلمين ، لا عبيدا كما كنا ؟

وكانت الجنود تحرس المنفيين في معظم الاحوال ، حماية لهم من جشع النصارى الاسبان الذين انتظموا في عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحيانا . وفضلا عن ذلك فان تنفيذ قرار النفي لم يجـر دائما في يسـر وسهولة ، فقد أبى كثير من الموريسكيين في الجبل الخضوع للاوامر لعدم ثقتهم بولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالاخص في « وادي أجوار » ، حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفا ، وفي مويلادي كورتيس حيث اجتمع منهم تسعة آلاف ، فبادرت الحكومة الى محاصرتهم ، وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . واخيرا تسلّم من بقي منهم ، وحملوا قسرا الى مينـاء السفر ، وسبى الجند منهم كثيرا من النساء والاطفال ، باعوهم رقيقا . ولم يصل منهم الى شواطىء المغرب سوى القليل . وفي مويلادي كورتيس لم يبق منهم عند الابحار سوى ثلاثة آلاف ، ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الاضطراب نحو عام ، حتى قضي عليها بعد جهد جهيد[٢٢] .

وصدر قرار النفي في قشتالة في (١٥ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) . ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا في بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل الا في اواخر (كانون الاول ـ ديسمبر) ، ومنح الموريسكيون فيه شهرا للسفر ، بنفس الشروط التي تضمنها قرار النفي في الاندلس ، وسافر منهم شمالا الى حدود

(٢٢) Dr. Lea : History of theInquisition in Spain; V.III, P. 397-398

فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر الى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر الى الاراضى النصرانية ، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم الى الثغور المغربية •

وبلغ عدد المنفيين في الثلاثة أشهر الاولى زهاء مائة وخمسين ألفاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الاغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين في أراغون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفا ، الى ولاية ناقار الفرنسية ، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفا ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الكارون ، بشرط بقائهم على دين الكثلكة ، وأن تهيء السفن لمن أراد السفر منهم الى شواطىء المغرب •

أما في غرناطة وأنحاء الاندلس ، فقد أعلن قرار النفى في (١٢ كانون الثانى ــ يناير سنة ١٦١٠م) بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوما ، ويباح لهم بيع سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى بها عروض او بضائع اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، الا ما يكفى نفقات الرحلة بالبر والبحر ، وأما الاملاك العقارية ، فتصادر لجهة العرش • وقد استقبل الموريسكيون في الاندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نزح منهم الى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم الى مراكش •

ثم توالى اعلان قرارات النفى في جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، في سائر انحاء المملكة الاسبانية : في قطلونية ، وأراغون في (أيار ــ مايو ــ ١٦١٠) ثم في اشبيلية وإسترمادورة ، ثم في مرسية وغيرها وتأخر تنفيذه في مرسية نحو اربعة أعوام حتى (كانون الثاني ــ يناير ١٦١٤م) ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفا ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال الى الثغور الجنوبية •

واتجهت بعض الجهات الى الثغور الايطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت الى مصر والشام والقسطنطينية(٢٣) • وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم في أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل الى ملكتها (وهي يومئذ مارى دى مريتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الايذاء ، ويطلب حماية المنفيين(٢٤) • وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا الى المشرق بعض طوائف من يهود الاندلس ، ولا سيما طائفة « الحسريم »، التي ما زالت تقيم حتى اليوم في القسطنطينية ، ويقيم بعضها في مصر •

ونفذت قرارات النفى في كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهورا بل أعواما ، تحمل أكداسا من الكتل البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا وهناك • في مختلف الثغور الافريقية في جو من المناظر المروعة المفجعة •

وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقا لقرار النفي ، فيقول ناڤارتي وهو من اعظم مؤرخي اسبانيا : انه قد نفى من اسبانيا في مختلف الاوقات ، نحو مليونى يهودى وثلاثة ملايين موريسكى • ويقدر آخرون عدد المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ « ديوان التحقيق » بمليون نسمة • ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف نسمة • وفي الرواية العربية الموريسكية ، يقدر عدد الموريسكيين المنفيين بستمائة ألف • ونحن نميل الى أن عددهم لا يمكن ان يتجاوز هذا

---

(٢٣) نفح الطيب (٢/٦١٧) •

(٢٤) Dr. Lea : The Moriscos; P. 364

القدر ، وقد كان مجموعهم في أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا . ويقدر عدد من هالك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفي بنحو مائة الف[٢٥] .

وقد عاد معظم الموريسكيين الذين نفوا الى افريقية والمشرق ، الى الاسلام دين الآباء والاجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير القسري ، والارهاق المستمر ، جذوة الاسلام في نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا في أعماق سرائرهم .

وبذلك ينتهي الفصل الاخير من مأساة الموريسكيين ، وتطوى الى الابد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

جـ ـ وتقدملنا الرواية الغربية، تفاصيل اضافية عن مأساة الموريسكيين، من بدايتها الى نهايتها ، وتخصها بكثير من النقد والتعليق . ولكن الرواية الاسلامية مقلة حول ذلك ، شأنها في تاريخ الاندلس منذ سقوط غرناطة ، فهي لا تعنى بتتبع مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية بها ، ولا تقدم لنا عن مأساة النفي سوى بعض الشذور والأشارات الموجزة .

وأهم وأوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن احوال الموريسكيين ، ومساعيهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفيهم ، كتبها موريسكي عاش في جيّان في اواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر الى تونس قبيل النفي بقليل ، وكتب فيما بعد هذه الرسالة دفاعا عن الموريسكيين المهاجرين وشرف نسبهم ، وتوكيداً لحسن اسلامهم وتمسكهم بالاسلام ، ووردت خلالها حقائق تاريخية هامة ، عن النفي وأسبابه وملابساته ، ننقل منها ما يلي :

قد كثر الانكار علينا معشر اشراف الاندلس ، من كثير من اخواننا في الله ، بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله ، بقولهم : من

(٢٥) Dr. Lea : The Moriscos; P. 259

اين لهم هذا الشرف . وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئون من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام ، وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، الى غير ذلك من الكلام ...

مع أني صغير السن ، حين دخولنا هذه الديار ، عمرّها الله تعالى بالاسلام وأهله ، فقد اطلعني الله تعالى على دين الاسلام بواسطة والدي ، رحمه الله عليه ، وأنا ابن ستة اعوام وأقل ، مع اني كنت إذ ذاك اروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع الى بيتي فيعلمني والدي دين الاسلام ، فكنت أتعلم فيهما معا ، وسني حين حملت الى مكتبهم اربعة اعوام . فأخذ والدي لوحاً من عود الجوز ، فكتب لي فيه حروف الهجاء ، وهو يسألني حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فأذا سميت له حرفاً اعجمياً كتب لي حرفاً عربيا ، فيقول حينئذ : هكذا حروفنا ، حتى استوفى جميع حروف الهجاء في كرتين ، فلما فرغ من الكرّة الاولى ، اوصاني ان أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي ، وجميع قرابتنا ، وأمرني الا اخبر احدا من الخلق ..

وقد كان والدي رحمه الله يلقنني حينئذ ما كنت اقوله حين رؤيتي للاصنام ... فلما تحقق والدي انني اكتم امور دين الاسلام عن الاقارب فضلا عن الاجانب ، أمرني بأفشائه لوالدتي وعمتي ، وبعض اصحابه الاصدقاء فقط ، وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون في امر الدين ، وأنا أسمع .

فلما رأى حزمي مع صغر سنيّ ، فرح غاية الفرح ، وعرّفني بأصدقائه وأحبّائه واخوانه في دين الاسلام ، فاجتمعت بهم ، وسافرت الاسفار لاجتمع بالمسلمين الأخيار ، من جيان مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة والى قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى للإسلام ، فتلخص لي من معرفتهم اني ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونني بأمور غرناطة وما كان بها في الإسلام حينئذ ، فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للاسلام ، يقال

له : الفقيه اللوطوري ، رحمه الله وتعالى ونفعنا به ، فكأنه كان رجلا صالحا ، ولياً لله فاضلا ورعاً ، زاهدا ، قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة ، قبل استيلاء اعداء الله عليها ، وهو ابن ثمانية اعوام . ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من ايدي المسلمين اجدادنا ، وقد اذن العدو في ركوب البحر لمن اراده ، وبيع ما عنده ، وإتيانه لهذه الديار الاسلامية ، وذلك في مدة ثلاثة اعوام ، ومن اراد ان يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحرك لذلك اجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم واموالهم ، ومفارقة اوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز الى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز اليها حينئذ ، ودخلوا في زقاق الاندلس المعروف الان بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنتين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم ، لذلك نقض العهد ، فردهم رغم انوفهم من سواحل البحر الى ديارهم ، ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق بأخوانهم وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ، مع ان المسلمين اجدادنا استنجدوا مرارا ملوك الاسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من احدهما الا بعض مراسلات ، ليقضي الله امرا كان مفعولا .

ثم بقي العدو يحتال عليهم بالكفر غصبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامي ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الاسلامية شيئا فشيئا ، مع شدة امتناعهم والقيام عليهم مرار ، وقتالهم اياه ، الى ان قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالناس من لاحت عليه امارة الاسلام ، ويعذبه بانواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيّعوا من مسلم ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة والف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهرا دين الكفار ابعدهم الله ، فخرج بعض احبابنا وإخواننا وهو الفقيه الاجل محمد ابو العباس احمد

الحنني ، المعروف بعبدالعزيز القرشي ، ومعه احد اخواله ، الى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان احمد بن السلطان محمد آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بأخواننا بالاندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب امرا لصاحب فرانسة دمرها الله ، بأعلام السلطان يأمره بأن يخرج مَن كان عنده من المسلمين بالاندلس ، ويوجههم اليه في سفن من عنده ، مع ما يحتاجون اليه . فلما قرىء الامر السلطاني في ديوان الفرنسيس ، فسمعه مَن كان مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده يخبره بالواقع ، وأن السلطان احمد آل عثمان ، ارسل أمره الى فرانسا ، وأمر صاحبها ان يخرج مَن كان عنده من الاندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بأخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الاندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه، ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين . فلما احس بهذا الامر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع اكابر القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأي ، وما يكون العمل عليه في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبدء الشأن في أهل بلنسية ، فأخذ الرأي ، واجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب اوامر وشروطاً في شأنهم ، وفي كيفية اخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الاندلس ، نعم اريد ان أذكر لك نبذة يسيرة ختصرتها ، وترجمتها ، من جملة اسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله في أوامره ، التي كتبها في شأن اخواننا الاندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من امرهم ، وتعلم بعض الاسباب التي اخرجوا لاجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين .

قال الملك الكافر ، ابعده الله وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاخراج من يكدّر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا صالحا ، والتجربة اظهرت لنا عيانا ، ان

الاندلسيين الذين هم متولدون من الذين كدّروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم اكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين اظهرهم، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم اعضاءهم ، وتعذيبهم اياهم بأنواع العذاب ، الذي لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيرا منهم قد أُحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا ، وظهر لي ان بينهم وبينه مراسلات اسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت اليّ ، ومع هذا ان احدا منهم لم يأت الينا ليخبرنا بما هم يدبرونه هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ، وظهر لي ايضا ، ولارباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الامر واستشرت ، مع ان من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطتنا ، وان بأخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشىء من ابقائهم بمملكتي ، اردت اخراجهم من سلطتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى ، الذين هم رعيتنا ، طائعين لاوامرنا ودينا ، ورميتهم الى بلاد المسلمين امثالهم ، لكونهم مسلمين.

فانظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين ، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقدر على ازالة دينهم من قلوبهم ، وانهم متمسكون كلهم به ، مع انه كان يحرق منهم مَن ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرويته فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم ، فأي علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم بملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين ، امير المسلمين السلطان احمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الاندلسية .

فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر (كذا) والف . ووجد في دفاتر السلطان الكافر ، ابعده الله تعالى ، أن جملة مَن اخرج من أهل الاندلس كافة ، نيف وستمائة الف نسمة ، كبيرا وصغيرا . فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفا عنه ، وامر ايضا بأخراج مَن كان مسجونا في كافة مملكته ، وكل مَن كان أمر بأحراقه فأخرجه ، وعفا عنه ، وزوده وارسله الى بلاد الاسلام سالما ، فيالها من اعجوبة ما اعظمها ، ومن فضيلة ما اشرفها ، ومن كرامة ما اجملها ، ومن نعمة ما اكبرها ، فما سمع من اول الدنيا الى آخرها مثل هذه الواقعة(٢٦) .

وقد صدر قرار النفي ـ كما قدمنا ـ في ٢٢ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) وهو يوافق جمادى الثانية سنة (١٠١٨هـ) ، ولكن الرواية الاسلامية تضع تاريخ القرار احيانا سنة (١٠١٦هـ او ١٠١٧هـ) وهو تحريف واضح .

قال المقري ، وهو مؤرخ الاندلس ، وقد كان معاصرا للمأساة : « الى أن كان اخراج النصارى اياهم (أي العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب اعوام سبعة عشر والف ، فخرجت الوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ومَن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا اموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس . ونجا القليل من هذه المغرة . واما الذين خرجوا بنواحي تونس ، فسلم اكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى جيشا جرارا وسكنوا سلا ،

---

(٢٦) كاتب هذه الرسالة ، هو النسابة محمد بن عبدالرفيع الاندلسي المتوفى سنة (١٠٥٢هـ ـ ١٦٥٢م) ، اى بعد نفي الوريسكيين بأثنين واربعين عاما ، وقد وردت في آخر كتابه المسمى : « الانوار النبوية في آباء خير البرية » ، وهو لا يزال مخطوطا . وقد نقل الرسالة المذكورة الشاعر ابو عبدالله محمد بوجندار في كتابه المسمى : « مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥هـ) ، والرسالة منقولة عن هذا الكتاب مع بعض التصرف (ص٢٠٠ ـ ٢١٤) .

كان منهم من الجهاد في البحر ، ماهو مشهور الان . وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الان بهذه الحال ، ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى ، والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت »[٢٧] .

وقال ابن دينار التونسي ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاما في اخبار سنة (١٠١٧هـ) : « وفي هذه السنة والتي تلتها ، جاءت الاندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانيا ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرّق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم ان يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير ، وبنوا فيها ، واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا في عدة اماكن ، وعمروا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من اهل البلاد »[٢٨] .

وقال صاحب الخلاصة النقية ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفي سنة ست عشرة والف ، قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم اهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم »[٢٩] .

وهذه النصوص الموجزة ، هي كل ما تقدم الينا الرواية الاسلامية عن نفي العرب المتنصرين ، وقد لبثت رواية المقري عن المأساة ، مصدرا لكل ما كتبه الكتاب المتأخرون[٣٠] . وربما كان هذا النقص راجعا الى أنه لم يعن احد من كتّاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن

---

(٢٧) نفح الطيب (٦١٧/٢) .
(٢٨) المؤنس في اخبار افريقية وتونس (تونس) ص(١٩٣) .
(٢٩) الخلاصة النقية (تونس) ص (٩١) .
(٣٠) انظر الاستقصا (١٠١/٣) ، حيث تنقل هذه النصوص .

المأساة ، أو لعله قد ضاع ما كتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، وأنه كتب عن المراحل الاخيرة لتاريخ الاندلس والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقري سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا النصرانية كل ما وسعت لاخراج البقية الباقية من فاول الامة الإندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين الا اتخذتها ، ومع ذلك فأن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفي بصورة نهائية . فقد رأينا ان كثيرا من المنفيين قد عادوا الى اسبانيا ، فرارا مما لقوا في رحيلهم من ضروب الاعتداء المفزع ، وأسلموا انفسهم رقيقا يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الاسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون في المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقا في اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع انه صدر قرار يحظر وجودهم في العاصمة الاسبانية ، فأنه كان من الصعب اخراجهم من المملكة ، نظرا لما ترتب لاصحابهم عليهم من الحقوق . وكان بعضهم يفلح في ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سرا . وأخيرا توجست الحكومة الاسبانية من وجودهم ، فصدر في سنة (١٧١٢م) قرار بنفيهم ، خلال المدد التي يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم الى افريقية .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، ان يبقى في البلاد احد من الموريسكيين او سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم او اشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفات احد منهم من بطش ديوان التحقيق . وكان الديوان المقدس ابدا على اهبة لضبط أية قضية ضد موريسكي مختف او عبد متنصر ، ولكن هذه القضايا كانت نادرة ، مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضي الزمن بيد أن اسرى المعارك الحربية بحرا الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكان معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا الى الاسلام ، وخرجوا الى الجهاد في البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر الميلادي ، يجد بينهم

فرائس من آن لآخر . وعلى الجملة ، فأن آثار الموريسكيين والاسلام لـــم تعف نهائيا من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الاسر والافراد الموريسكيين الذين اندمجوا في المجتمع الاسباني ، على صلاتهم الخفية بالماضي البعيد ، وقد ضبطت خلال القـرن الثامن عشر امـام محاكـم التحقيق بعض القضـايا الخاصـة بالموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الاسلام خفية ، وضبط في سنة (١٧٦٩م) مسجد صغير في قرطاجنـة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على انـه كانت ما تزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والاسلام .

ولا تقدم لنا محفوظات ديوان التحقيق منذ اواخر القرن الثامن عشر ، أي ذكر للموريسكيين ، او الاسلام والمسلمين ، مما يدل على ان الاثـــار الاخيرة لمأساة الموريسـكيين قد غاضـت ، وأسـبل عليها الـزمن عفـاءه الى الابد[٣١] .

على أن ما يقال أخيرا ، أنه مازالت ثمة الى اليوم ، في بلنسية وفي غرناطة ومقاطعة لامنشا ، جماعـات من الأسبان ، تغلب عليهم تقاليد الموريسكيين في اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة[٣٢] .

والحقيقة انه يصعب على الباحث ، أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقا بكل ما لجأت اليه ، من الوسائل المغرقة في الظلم ، ان تقضـي نهائياً ، على آثار السلالة العربية والحضارة الاسلامية ، بعد ان لبثت ثمانيـة قرون تغمر النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، فأن تاريخ الحضارة يدلنا علـى أنه من المستحيل ان تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصا اذا لبثت آمادا مختلفة متداخلة ، على ان حضارة امة من الامم انما هي خلاصة لتفاعل الاجيال المتعاقبة . وفي وسع مؤرخ الحضارة ان يلمس في تكوين المجتمع الاسـباني

(٣١) Dr Lea : The Moriscos; P. 391-392

(٣٢) Dr Lea : Ibid. P. 395

الحاضر ، ولاسيما في الجنوب ، في ولايات الاندلس القديمة ، وفي خصائصه وتقاليده ، وفي حياته الاجتماعية ، وفي حضارته على العموم ، كثيرا من الخلال والظواهر ، التي ترجع في روحها الى تراث العرب والحضارة الاسلامية(٣٣) •

تأملات في آثار المأساة الاندلسية

تلك هي قصة الموريسكيين او العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن والصبر الجميل ، ولكن تفيض في نفس الوقت بصحف من الأبـاء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب • وقد لبثت السياسة البربرية التي اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعها ديوان التحقيق الاسباني ، ازاء العرب المتنصرين ، على كر العصور ، مثار الانكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والاسبان منهم انفسهم ، حتى يومنا هذا ، بأقسى النعوت والاحكام •

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على ابادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ، ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفي الموريسكيين ، من اوج عظمتها التي سطعت في عصر شارلكان وفيليب الثاني ، الى غمرة التدهور والانحلال ، التي مازالت تلازمها حتى هذه الايام •

بل ترجع عوامل هذا الانحلال ، الى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، او بعبارة اخرى الى السياسة التي أتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الامة الاندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والتوسع والاستيلاء ، في القرن الثالث عشر • فقد كانت القواعد والولايات الاسلامية الزاهرة ، تسقط تباعا في يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد في نفس الوقت اهميتها العمرانية

(٣٣) نهاية الاندلس (٣٧٦-٣٩٢) •

والاقتصادية ، اذ كانت العناصر الاسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها الى القواعد الاسلامية الباقية ، فراراً من عسف النصارى ، وتغادرها حاملة اموالها وفنونها وصنائعها . تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادي . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الامة الاندلسية في المنطقة الجنوبية ، وفي بعض القواعد الاندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين الى افريقية ، واستحالت الامة الاندلسية غير بعيد ، الى شعب مهيض ممزق ، هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومع ذلك ، فقد لبثت هذه الاقلية الاندلسية المضطهدة، عاملا خطيرا في اقتصاد اسبانيا القومي ، وفي ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها ، وكان الموريسكيون يحملون كثيرا من تراث الامة المغلوبة ، والى نشاطهم ودأبهم يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التي يملكها السادة الاقطاعيون فلما اشتد بهم الاضطهاد والعسف ، وأخذت يد الابادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم ، وقتل مواهبهم ، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية اخيرا خطوتها الحاسمة بأخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الانتاج الزراعي الذي برع الموريسكيون فيه ، وخرجت الضياع الكبيرة بفقد الايادي الماهرة ، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من انشط عناصرها وركدت ريح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التي كانوا اساتذتها وغاضت الفنون الرفيعة التي استأثروا بها منذ أيام الدولة الاسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضي الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى العمران ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت يد الاصلاح والتقدم ، ولم يمض على اخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح تعداد سكان المملكة الاسبانية كلها ستة ملايين نسمة ، وكان سكان قشتالة وحدها ايام سقوط غرناطة سبعة ملايين نسمة ، وفقدت معظم

المدن الكبرى ، مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة اربعة اخماس سكانها ، وعمّ الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، وخيّم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وقد ظهرت هذه الآثار المخرّبة ، بالاخص في محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور ايراد الضياع الكبيرة ، وايراد الكنائس والاديار ، دليلا على ما اصاب قوة اسبانيا المنتجة : الزراعية والصناعية ، بسبب نفي طائفة كبيرة من انشط طوائف السكان واغزرهم انتاجا . وكان من الحقائق المعروفة ان السكان الاسبان كانوا يبغضون الاعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها امرا شائنا ، وان الاسباني لا يربي اولاده لمزاولة العمل الشريف ، وان اولئك الذين لا يجدون لهم عملا في الجيش او الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدي المؤرخ الاسباني الكبير ناڤاريتي أسفه لوجود اربعة الاف مدرسة في عصره (اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر) يتعلم فيها ابناء الفلاحين بينما تهجر الحقول ، ولان اولئك الذين لا يجدون منهم عملا في الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول او التشرد او السرقة . وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر الى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الاسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوي ، حتى أن ما يمكن عمله في البلاد الاخرى في شهر ، يعمله الاسبان في أربعة أشهر(٣٤) .

ويردد الوزير محمد بن عبدالوهاب الغساني سفير سلطان المغرب مولاي اسماعيل الى اسبانيا ، وقد زارها في سنة (١٦٩١م) ، اعني بعد النفي بثمانين عاما ، عن الاسبان مثل هذا الرأي ، اذ يقول في رحلته : « وبحصول هذه البلاد (الهندية) ـ يقصد امريكا ـ ومنفعتها وكثرة الاموال الي تجلب منها صار هذا الجنس الاسبنولى اليوم اكثر النصارى نالا ، واقواهم مدخولا ، الا ان الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد احدا من هذا الجنس يتاجر

(٣٤) Dr. Lea : The Moriscos; P. 379-381

أو يسافر للبلدان يقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والانكليز والفرنسيس والجنوبين وأمثالهم ، كذلك الحرفة التي يتداولها السقطة والرعاع واراذل القوم ، يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الاجناس المسيحيين »[٣٥] .

وقد كان النبلاء والاحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون في تعهد اراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم فلما وقع النفي جمد النشاط الزراعي ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولاسيما عن منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء الى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنية وقطلونية ، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الاراضي التي نزعت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحاق بهم الضيق ، حتى اضطر العرش الى منح كثير منهم نفقات سنوية من خاصة امواله ، هذا فضلا عما اصاب طوائف السكان الاخرى ، التي كانت تتصل بالموريسكيين في المعاملات والتبادل من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والاديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيرا من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة اموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة ان تعول كثيرا من محاكم التحقيق التي اوشكت على الأفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء اموالها . وقد بيعت اموال الموريسكيين واراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على اصفيائه من الوزراء والنبلاء والاحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى الجزء اليسير منها .

(٣٥) رحلة الوزير الغساني ، المسماة : « رحلة الوزير في افتكاك الاسير » ـ (العرائش ١٩٤٠) ص (٤٤ ـ ٤٥) .

ويقدمون مثلا لما اصاب اسبانيا من الخراب نتيجة « للنفي » هو مثل مدينة : ثيوداد ريال (المدينة الملكية)[٣٦] عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة الفونسو العالم في القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطا حرة مغرية ، شجعت كثيرا من يهود ومسلمين على النزوح اليها • وفي سنة ١٢٩٠م كان دافعوا الضرائب فيها من يهود (٨٨٢٨) ، فلما اخرج يهود منها في سنة (١٤٩٢م) ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما اُخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خرجت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخرجت صناعة النسيج التي انشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها في سنة (١٦٢١م) الى (٥٠٦٠) نسمة والى نحو الف أسرة فقط ، في حين انها كانت تضم من السكان قبل « النفي » اثنتى عشرة ألف أسرة[٣٧] •

وكان مما ترتب على نفي الموريسكيين ايضا ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا منها وراءهم مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة • وأحدث ذيوع النقد الزائف اضطرابا شديدا في المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه والعقوبة عليه وعلى ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الاعدام ولكنها لم تفلح في استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة اعواما طويلة ، وعمد الاسبان بدورهم الى التزييف ، وعوقب كثير منهم امام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيرا من الضرر والارهاق •

ولم تمض أعوام قليلة على نفي الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الاثار المخربة كلها في حياة المجتمع الاسباني بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما اصاب الامة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دي ليرما في سنة (١٦١٨م) الى مجلس الدولة ان ينظر في هذا الامر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ، وقدم مجلس الدولة تقريره بعد

---

(٣٦) Cidad Real.

(٣٧) Dr. Lea : The Morioscos, P. 372-384

عام ، وأشير فيه الى خراب المدن والقرى ، ولكن لم يُشر الى نفي الموريسكيين والى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول ان يرجع الشر الى فداحة الضرائب ، والى الترف الذي تعيش فيه الطبقات الممتازة ، واسراف الملك في الاغداق على اصفيائه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالامر ، وقدم عنه تقريرا الى الملك ؛ ومع ان التقارير الحكومية التي وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر الى نفي الموريسكيين كعامل اساس فيما اصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان في القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة ، ففي سنة (١٦٢٢م) اصدر الملك فيليب الرابع، قرارا بخفض الضرائب على بلنسية ، اشار فيه الى هجرة السكان ، والى ما خسرته المدينة من ضروب الدخل ، التي كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم •

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئا في تخفيف هذه الضائقة، التي طافت بالمجتمع الاسباني ، وشملت سائر الطبقات سواء الانتاج او الاستهلاك ، ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الاحوال نوعا ما ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التي اصابتها •

يقول الدكتور لي : « انّه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، في القيام بقسط عظيم من الانتاج والتنظيمات المالية في البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون ان يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد اثرها الى اجيال مرهقة » • ثم ينعى على السياسة الاسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وانه لمن خواص السياسة الاسبانية في ذلك العصر ، أنه لم يفكر احد في هذه الشؤون ، ولم يحتط أحد في المباحثات الطويلة التي جرت في قضية الموريسكيين • وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التي ينفذ بها النفي ، وماذا

يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الاطفال • ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح اخفاق السياسة الاسبانية »(٣٨) •

وجوابا على هذا التساؤل ، فأن الذي حجب التفكير السليم عن الذين بيدهم الامر في اسبانيا يومئذ ، وهم رجال الدين والنبلاء المقربون للملك ، الذين هم صانعوا القرار ، هو امران : التعصب الاعمى المتسم بالجهل المطبق، والمتمثل في كره الاسلام والمسلمين • ومحاولة القضاء عليهم قضاءا مبرما • والثاني ، هو حرص اولئك الزمرة على اموال الموريسكيين المنقولة وغير المنقولة ، ورغبتهم الجامحة في اغتصابها لأنفسهم في غطاء من القرارات الملكية، دفاعا عن حاضر اسبانيا ومستقبلها ظاهريا ، واقتناصا للمكاسب المادية لانفسهم واقعيا ، حتى ولو ادى جشعهم الى الاضرار ببلدهم عامة ، ورخاء الفرد الاسباني خاصة • ولم يكن نشاط الموريسكيين مجهولا على النطاقين الحكومي والشعبي في اسبانيا ، فنشاطهم واضح معروف لا يخفى على احد ، وقد مر بنا ان قسما من النبلاء فاتحوا الملك في محاذير نفي الموريسكيين على الزراعة في اسبانيا ، فلم يفلحوا في توسطهم ، ويبدو ان هؤلاء النبلاء كانوا من الاقطاعيين الذين يستفيدون من مهارة الموريسكيين الفذة في الزراعة ، وتوقعوا ان مزارعهم سيتسرب اليها الخراب بعد نفي الموريسكيين ، وهذا ما حدث فعلا ، وعلى نفسها جنت براقش التي أعماها التعصب والجشع ، فقد كان صانعوا القرار الاسباني يومئذ متعصبين اولا ومنتفعين ثانيا ، فخرب تعصبهم بلادهم ، وانتفعوا بعددهم المحدود ، وأضروا الشعب بأسره ، وعلى رأسهم صفوته الموريسكيون بلا مراء •

تلك هي النتائج المادية الواضحة ، الاقتصادية والاجتماعية ، التي جنتها إسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لأبادة الأمة الأندلسية • فقد لبثت

---

(٣٨) Dr. Lea : The Moriscos; P.387

إسبانيا زهاء قرن تعمل بأقسى وسائل الأرهاق والمطاردة على استصفاء ما بقي من فلول الامة الاندلسية ، في الارض التي بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والامن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول الى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، ان تبقى عليها ، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت في سبيل اسطورة من التعصب والجهالة ، ان تقضي عليها بالتشريد والنفي النهائي ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من افضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا ان جاء نفي الموريسكيين ، في وقت اخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ينحدران سراعا الى الحضيض ، وجنح المجتمع الاسباني الى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها في التدهور ، فجاء نفي الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التي أخذت في التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحا عميقا لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فأنه من الواضح ان يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفي الموريسكيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما اصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والانحلال .

ب — على أن التفكير الاسباني يختلف في هذا الرأي وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالاخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخرّبة ، واكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفي الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الديني ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا ، وهو مؤرخ من مؤرخي القرن الماضي ، في كتابه الذي نشره دفاعا عن هذه الاجراءات : « بأن عصر اسبانيا الذهبي ، بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وانقذت من مشاغلها الداخلية ، وان النفي كان اعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »[٣٩] . ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون ان رخاء

---

(٣٩) Bleda . Difensio fidei in Causa Neophg orum aive Morischorum in Hispanios.

اسبانيا قد ذهب مذ اكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم ، وازدهرت التجارة ، وساد الامن في الداخل والخارج »[٤٠] • ويقول الحبر ڤنتي دي لافونتي في تاريخه الديني : انه من السخرية ان يقال : ان نفي الموريسكيين كان سببا في انحطاط اسبانيا ، فأن أمة قد تفقد مائة وخمسين الفا في وباء او حرب أهلية • ثم يتساءل في تهكم : لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟! على أنه يعترف مع ذلك بأن النفي كان سببا في تدهور دخول الاشراف والكنائس[٤١] • ويرى آخرون من الاحبار ، أن اسبانيا قد دفعت بالنفي ثمنا باهظا،ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون : أن وفرة الرخاء، تذهب بالفضائل ، وانه لا بأس من التقشف مع الايمان ، وان الفقراء استطاعوا بعد اجلاء الموريسكيين ان يجدوا اعمالا[٤٢] •

ولكن خبرا ومؤرخا اسبانيا كبيرا ، هو دون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ، ونفي الموريسكيين في قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكي روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدي اليه معاملتهم بشيء من الانسانية ، يزدادون مقتا لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة • وكان هذا سبب الاضطرابات التي ادت في سنة (١٦٠٩م) الى نفي هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهي خسارة فادحة لاسبانيا تضاف الى خسائرها الفادحة ، ففي مائة وتسع وثلاثين سنة ، انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، مابين يهود ، ومسلمين ، وموريسكيين»[٤٣] •

ويقول الكاردينال ريشليو الفرنسي ، وهو من اعظم احبار الكنيسة في مذكراته ، وكان معاصرا للمأساة : « أنها أشد ما سجلت صحف الانسانية جرأة ووحشية » •

---

(٤٠) Dr Lea : The Moriscos; P. 366

(٤١) Dr Lea : Ibid, P. 394-396 (٤٢) Dr. Lea : Ibid, P. 367

(٤٣) L'orente : Historia Critica de la Inqvisicion de Espana (1815 - 1817).

هذا عن الاحبار ، أما عن آراء البحث الاسباني الحديث ، فانها تختلف في تقدير آثار نفي الموريسكيين اختلافا بينا ، بيد انها تميل على الاغلب الى الاعتراف بفداحة الاثار المخربة التي اصابت اسبانيا من جرائه ، والى اعتباره عاملا قويا في تدهور اسبانيا وانحلالها . بيد انها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفي ، ويرى بعضهم أنه كان اجراء طبيعيا ، وضرورة لا محيص عنها ، وينكر بعضهم الآخر أنه كان كارثة او أنه ترتب عليه آثار مخربة ، ونورد هنا طائفة من آراء عدد من أكابر المؤرخين والمفكرين الاسبان المحدثين ، بدقة وافاضة تسمحان بفهم الروح الاسبانية ازاء هذا الحدث التاريخي الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

ويقول دانفيلا اي كوليادو : « وهكذا تحقق نفي الموريسكيين الاسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا او شيوخا ، صالحين او عقماء ، مذنبين او أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل في ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية ، وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان ، وحاول تحقيقها الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثاني ، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها . اما فيليب الثالث ، فكان يزاول سلطانه على يد أصفيائه ، ولذا ألفى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون ، وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الاندلسي ، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها ، وجها لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الانسانية والدين في صراع ، وخرج الدين ظافرا وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الابناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكي أية رأفة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة في سماء اسبانيا ، واغتبطت الامة اذ أضحت واحدة في جميع مشاعرها العظيمة .

وكان الموريسكيون شديدي المراس ، وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية ، التى تحققت باندماج سائر العروش

في شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوي ، كالذي تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التى تتجه اليها الحركة العامة للفكر القومى ، وكانت الصعوبة كلها تجثم في الدين ، ولم تكن اللغة التى كانت تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو في أى وقت عقبة بمثل هذه الخطورة ، ففى شمال اسبانيا ، وفي شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الجليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها • وكذلك يوجد مثل هذا التباين في النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء في سبيل وحدة الدين ، والروح القومى ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة التى خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتى جعلتهم دائما في حالة دائمة من التربص والتوجس • ان ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى ، لاخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثا ، ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريسكيون في عهد فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التى كانت لاسلافهم الذين أخضعوا بالسيف وقد ارتضوا حالتهم كمحنة مؤقتة عابرة ، ولم ينبذوا الامل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الاخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم » • ثم يقول : «وانها لخرافة أن يقال : ان الموريسكيين كانوا عنصرا مفيدا في انتاج اسبانيا ، ولوا أنهم كانوا كذلك ، لحملوا الرخاء الى بلد المغرب حيث ذهبوا »[٤٤] •

(٤٤) M. Danvila Collado : La Expulu'sionde Los Moriscos Espanoles (Madrid 1889) P. 320-322.

ويقول المؤرخ الكبير موديستو لافونتى ، وسترى أنه يذهب في الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة الى أبعد حد :

« وعلى أي حال ، فان مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين، قد جردت اسبانيا ــ وقد كانت يومئذ جد" مقفرة من السكان ، بسبب الادارة السيئة والحروب المستمرة ــ من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة اخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط في الضرائب • وكان أقل ما في ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التي حملتها الطائفة المنفية معها ، في الوقت الذى كانت فيه المملكة تعانى من قلة النقد ، فكان نقص الذهب الفجائى على هذا النحو أشد وطأة عليها • كذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد المزيف أو المنقوص ، الذى روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم • وأسوأ ما في ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس في الفنون النافعة • وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان لهم بأنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش في الري بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعا مناسبا ، كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ، ثم تابعوا بنسج الاصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهي صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة ، وانتهوا بمزالة الحرف الآلية ، وهي حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريسكيين واختصوا بها • وقد عانى كل شيء من نقص في السواعد وفي البراعة ،وهو نقص جعلت المفاجات من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظا بطيئا صعبا •

« يقول نفس المؤرخ البلنسي الذي شهد النفي ، وكتب عقب اتمامه ، أنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهى حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت الى قفر جاف موحش • وحدث هنالك كما حدث في قشتالة ، وفي باقى البلاد ،

أن بدا شبح الجوع الداهم ، وبالرغم من أنه قد جيء بسكان جدد الى الاماكن التي هجرها الموريسكيون لكي يتدربوا على العمل في الحقول والمصانع والمعامل ، الى جانب اولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلا ريب) • على ان مثل هذا التمرن لم يؤت نتائجه السريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذى استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص في البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته • وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش في الاماكن المهجورة • واذا كان ثمة بعض السادة الاقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الامر ببعضهم أن طلبوا نفقات للطعام • أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلا شك هم الدوق دي ليرما وأسرته ، وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين •

« ومن ثم فقد اعتبر نفي الموريسكيين من الناحية الاقتصادية بالنسبة الى اسبانيا ، أفدح اجراء مخرب يمكن تصوره وانه ليمكن ان نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الاجانب ، وهو الكاردينال ريشليو ، أن يسميه : (أعرق اجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في اى عصر سابق) ، والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول : انه لم يبرأ حتى عصرنا •

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الاجراء ثمرة الافكار التى سادت في اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمرة البغض التقليدى المتأصل ، الذى يكنه الشعب لغالبيه وأعدائه الالداء القدماء • وليس مما يمكن انكاره ، أنه كان مؤيدا لفكرة الوحدة الدينية ، التى دأب على العمل لتحقيقها واكمالها الملوك الاسبان والشعب الاسبانى • بيد أنا لا نعتقد أنه كان من البراعة

(ما عدا اعتباره صراعا مقررا هو من خصائص العصور الوسطى) أن نصل الى الوحدة الدينية بطريق افناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى • وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والاقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة •

« وأما كونه اجراء سياسيا ، قصد به الى تحقيق سلامة الدولة وسلامها ، فقد كان ممكنا أن نسوغ اتخاذه لو كانت المؤامرة حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة ، وكانت الوسائل قوية ، والخطر داهما ، وذلك كما افترض الوزير المقرب والاسقف ربيرا والنصحاء والآخرون • أجل لم يك ثمة شك في أنه كانت هناك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لاسبانيا ، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين • بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفي ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين في بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن • كما أنه لم يكن ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين في أراغون وفي مرسية ، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الاقليمين ، وكذلك لم يكن الموريسكيون في قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه • وعلى أى حال ، فأنه متى ذكرنا، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين واخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالاسبان والنصارى ، لم نوفق الى تأليفهم في العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الامة المغلوبة في الكتلة الكبرى للامة الغالبة ، ولم نوفق الى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لجأنا بلا ضرورة الى وسيلة افناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك ، فأنا لا نستطيع أن ننظر بعطف الى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ، ولا الى حزمهم أو سياستهم »[٤٥] •

(٤٥) Modesto Lavente : Historia General de Espana (Madrid 1862) T. VIII. P. 211-214

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذو حذو لافونتي في تقديـره وتعليله ، وينقل بعض أقواله : « ومع ذلك ، فانه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الاعضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريسكيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الامة الاسبانية كلها ، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصنّاع الموريسكيين، يحملون معهم بذور الحضارة والحرث • وقد قال كامبومانس الشهير : « ان بدء تدهور صناعاتنا يرجع الى سنة (١٦٠٩م) حينما بدىء بنفى الموريسكيين• فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الامة المتواليـة ، وعبثا يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر ، الى أسباب أخـرى ، فهى وان كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطع الامة حتى اليوم أن تنهض من عثارها » ••• « ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية في الاسبان أثرين سيئين : الاول : أنهم اعتبروا هذه المهن من الامور الشائنة • والثانى : أنهم لم يتعاموا شيئا منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها • وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريسكيين فيها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش في الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعا مناسبا ، كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة •

« ثم تابعوا بنسج الاصواف والحرائر ، وصنع الورق والجـلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الآلية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها، ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص في الايدى وفي المهارة كان من المستحيل ملؤها في الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤها مبهظا بطيئا صعبا • وقد بلغ النقص في الانفس ، وفقا للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الاقل نحو مليون • ثم يأتى بعد ذلك نقص

العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، واخيرا يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن ، وهو الذى ملئ به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة .

« ومن ثم ففى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق : ان بلاد العرب السعيدة ، قد استحالت الى بلد العرب الفقراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، ان حديقة اسبانيا الغناء قد استحالت الى صحراء جافة مشوهة . وقد حل شبح الجوع بالاختصار في كل مكان ، وحل محل المرح الصاخب للقرى العامرة ، الصمت الموحش في الامكنة المهجورة ، وبدلا من ان ترى أمامك العمال والصناع ، فانك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملؤونها ويجثمون في أطلال القرى المهجورة . ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من مخلفات المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم الى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لاطعامهم ، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوق دي ليرما واسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال.

« واذاً فقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية ، يعتبر بالنسبة الى اسبانيا ، أفدح اجراء مخرب يمكن تصوره . وانه ليمكن أن نتسامح في المبالغة التي يصفه بها سياسي أجنبي هو الكاردينال ريشليو . حيث يصفه بأنه «أعرق اجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق» . والحق ان الصدع الذي منيت به ثروة اسبانيا العامة من جرائه كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول : انه لم يبرأ حتى يومنا »(٤٦).

بيد ان خانير مع ذلك يقول : ان النفى كان ضرورة دينية وسياسية ، وان الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطع جوهرة للامة الاسبانية .

---

(٤٦) Dr. Florecio Janer : Condicion Social de Los Moriscos de Espana (Madrid 1857). P. 100-101

ويعلق المؤرخ الاجتماعى بكاتوستى ، في الفصل الذى عقده عن « بؤس اسبانيا العام » في كتابه : « عظمة اسبانيا وانحلالها على نفى الموريسكيين ، فيقول : « كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت بأسبانيا • أجل ، لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له • ولكنهم وجدوا عقبة كأداء في معارضة الملكة ايزابيلا • وفي سنة (١٥٢٩م) ، بذل أسقف اشبيلية ، جهودا مضنية مضاعفة في هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثانى ، كان هذا الموضوع يثار من وقت الى آخر ، ولكن أمكن فقط في عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح •

« والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق الملك ، وعلى نصحائه وأسلافه ، تتلخص في انهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة سبل الحياة المستقرة الهادئة ، ولم يكن لهم من القوة او الكياسة او الحزم ما يمكنهم من اخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التي عاشت اسبانيا في أوقات ، كانت فيها الاحقاد في أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين •

« وقد أثار الاسراف في فرض الضرائب وبخس الاعمال ، والاضطهاد الدينى ، ومساوىء ديوان التحقيق ، هذه الارواح التى قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الاجراء الشاذ المتطرف •

« ان المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نفى الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكى يشيد بالعمل الرائع ، انما يدافعون عن امور سيئة ، أو يرغبون في أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الامة ، وهم في تسويغ مثل هذا الاجراء ، لم يراعوا الا ضرورة الساعة • واذا فرضنا جدلا ضرورته للسياسة باسم السلام والسكينة العامة،

وهي التي اتخذت لتسويغ كثير من الاخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فأنا لا نستطيع ان ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقته أخطاء السلطة التي واجهت تلك المشكلة التاسية ، ورأت أن تقصي الموريسكيين عن اسبانيا ، لانها شعرت بانها عاجزة عن اخماد ثوراتهم المستمرة .

« ان فقد هذه السواعد في الاعمال الزراعية ، وفي كثير من الفنون والأعمال ، والازدراء الذي كان الاسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التي وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التي لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التي اضحى عبؤها يقع فقط على عاتق الشعب الاسباني ، لكي يعوض ذلك ما خسرته الدولة مما كان يؤديه الموريسكيون : هذه ربما كانت الاسباب السريعة للبؤس العام .

« ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم في ذلك ، اذ يبدوا لنا العدد أمرا لا أهمية له . وسواء كان المنفيون كثرة أو قلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطرابا خطيرا .

« بمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلي في المملكة الى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق في الحفلات الشائقة ، وينسب الى فيليب الرابع ما كان يمكن صدوره من فيليب الثاني أو كارلوس الخامس »(٤٧) .

ويرى العلامة منندیث اي بلايو ، وهو من اعظم المفكرين ، والنقدة الاسبان المحدثين ، أن نفي الموريسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ،

---

(٤٧) Picatosti : Estudios Gobae Ia Grandetey de Cadencia de Espana (Madrid 1887). P. 101 - 102
D. Felipe

ويشرح في كتابه عن : « الخوارج الاسبان » على النحو الآتى : « ولنقل الآن رأينا في مسألة النفى ، بكل وضوح واخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة ، بروية وبلا تحيز • ولن أتردد بالجهر به ، وان كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر ابداءه • فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الاسلامى بيننا في القرن السادس عشر ؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن في أى جزء من أوروبا • فكيف يستسيغ وجوده في تركيا أولئك الانسانيون الاجانب الذين يصفوننا بالبربرية لاننا قمنا باجراء النفى ؟ وانهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخلص ، مهما كان دينهم عائقا لكل تمدن ، أولئك النصارى المنافقون ، والمرتدون المارقون ، الذين لم يحسن اخضاعهم ، واولئك الاسبان الاوغاد ، الاعداء الداخليون ، خميرة كل غزو أجنبي ، الجنس الذي لايقبل الاندماج ، كما اثبتت ذلك التجاربه المحزنة مدى قرن ونصف • فهل يعتبر ذلك تسويغا للذين مزقوا عهود غرناطة ، أو لاولئك الثوار الذين أحزموا الهياج في بلنسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الاطلاق بيد انه وقد سادت الامور منذ البداية على هذا النحو ، فانه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الاحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الامل في تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق (كذا !!) والغيرة الطيبة التي أبداها رجال مثل تلاڤيرا ، وڤيلانيڤا ، وربيرا ، واذاً فلم يك ثمة محيص من النفي • وأكرر أن فيليب الثاني قد أخطأ في كونه لم ينفذه في الوقت المناسب ، وانه لمن الحمق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء ، والمعارك ، والمذابح ، بين الاجناس ، تنتهي بصورة أخرى غير النفى أو الفناء • ذلك ان الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الاقوى •

« وأما أن النفي كان حدثا مقوضا ، فهذا ما لا ننكره ، فأنه من المقرر أنه في العالم يمتزج الخير والشر دائما • وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هي السبب الاساس في اقفار بلادنا من السكان ، وان كان لها أثر في ذلك • وبعد ، فان ذلك يجب ألا يعد الا كأحدى قطرات الماء في جانب نفي يهود ، واستعمار أمريكا ، والحروب الخارجية في مائة مكان معا ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهي أسباب نوه بها كلها بأيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرنادث ناڤاريتي في نقد نفي الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة ، وما كانت ، بل وليست الاجزاء المقفرة من السكان في اسبانيا ، هي التي تركها العرب ، كما انها ليست أسوأ زراعة ، وهو ما يدل على أن الخسارة التي لحقت بالزراعة من جراء نفي كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الاثر ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لو اننا وقفنا فقط عند عويل ، أولئك الذين تأملوا الحقول المجدية غداة تنفيذ أوامر النفي • ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعي نوعا جسبار دي أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفي سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين ، وأن الكثرة من الناس قد غنمت وغدا :

الاغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء
والصغار كبارا ، والكبار صغارا

« ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاها الاخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست الا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسي • ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاما أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكوا اديا كيث : « يكفون وحدهم لاحداث الخصب والرخاء في سائر الارض ، لبراعتهم في الزراعة ، وقناعتهم في

« وأما أن النفي كان حدثا مقوضا ، فهذا ما لا ننكره ، فأنه من المقرر أنه في العالم يمتزج الخير والشر دائما • وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هي السبب الاساس في اقفار بلادنا من السكان ، وان كان لها أثر في ذلك • وبعد ، فان ذلك يجب ألا يعد الا كأحدى قطرات الماء في جانب نفي يهود ، واستعمار أمريكا ، والحروب الخارجية في مائة مكان معا ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهي أسباب نوه بها كلها بأيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرنادث ناڤاريتي في نقد نفي الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة ، وما كانت ، بل وليست الاجزاء المقفرة من السكان في اسبانيا ، هي التي تركها العرب ، كما انها ليست أسوأ زراعة ، وهو ما يدل على أن الخسارة التي لحقت بالزراعة من جراء نفي كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الاثر ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لو اننا وقفنا فقط عند عويل، أولئك الذين تأملوا الحقول المجدبة غداة تنفيذ أوامر النفي • ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعي نوعا جسبار دي أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفي سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين، وأن الكثرة من الناس قد غنمت وغدا :

الاغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء
والصغار كبارا ، والكبار صغارا

« ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاها الاخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست الا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسي • ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاما أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكوا اديا كيث : « يكفون وحدهم لاحداث الخصب والرخاء في سائر الارض ، لبراعتهم في الزراعة ، وقناعتهم في

الطعام » • هذا بينما يصف هذا السكرتير النصارى القدماء بقوله : « انهم قليلوا الخبرة في الزراعة » • على أنه من المحقق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الرى البديعة ، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب الى العرب وحدهم ، قد أحييت في هذه المناطق حتى يومنا • واذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فان تأثر الصناعة كان أقل • ذلك لان للصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن ، قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لان الصناعات الرئيسة ، اذا استثنينا الورق والحرير ، لم تكن في أيدى الموريسكيين ، وقد كانوا دائما عمالا أكثر منهم صناعا • فاذا قيل مثلا : ان المناسج التى بلغ عددها من قبل في اشبيلية ستة عشر الفا ، لم يبق منهـا في عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله الى واقعة النفى ، فان اصحاب هذا القول ينسون انه لم يكن في اشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفى بخمسين عاما ، كأنما آثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب في ايطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية•ان اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التي كانت تتدفق من هناك ، فثير الجشع ، وتذكى أطماعا يسهل تحقيقها • ذلـك هو السبب الحقيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعبا من الاشراف المتسولين ، وانه لمن المضحك أن ننسب الى سبب واحد ، ربما كان أقل الاسباب ، ماكان نتيجة لاخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الديني •

« والخلاصة ، أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فأننا ننظر الى اجراء النفي العظيـم ، بنفس الحماسة التي امتدحه بها لوبي دي ڤيجـا وثرڤانتس ، وكل اسبانيا في القرن السابع عشر ، باعتباره ظفرا لوحدة الجنس ووحدة

الدين واللغة والتقاليد . أما الاضرار المادية ، فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قاتمة ، الى مهاد خصبة وحدائق غناء . وأما الذى لا يشفى ، وأما الذى يترك دائما الاحقاد الدموية الابدية ، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال . ولما هدأت آثار النفى ، أضحى النفى ليس فقط اجراء محمودا ، بل كذلك اجراء ضروريا . ولم يكن ميسورا أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ، مثل هــذه النتــائج تقتــرن دائمــا بالانقــلابات المفروضة »(٤٨) .

ومن الواضح أن هذا الدفاع عن النفى ، يصدر عن تعصب أعمى ، ومع ذلك لم يستطع أن يحجب أضــرار النفــي على اسبانيا فيما كتب ، ولــو أنه اعترف بذلك في ثنايا ردة المتهافت بصورة غير مباشرة .

ويعلق الدكتور لي ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، على آراء المفكرين والمؤرخين الاسبان بقوله : « اذا كان نفى الموريسكيين ، كما يقول منندیث ای بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخى ، واذا كان قد غدا ضرورة في عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، واذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليــون وقشتالة وأراغون في الاراضى الاسبانية ، من الامور المأمونة ، وذلك في الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحــروب أهليــة مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، واذا كان في وسع الملوك النصارى في هذه العصور المضطربة أن يركنــوا الى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فــان الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال

(٤٨) M. Menedezy Pelago . Historia de Los Heterdoxes Espanoles, P. 339-343

المفرق الذى يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا الى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الاسبانى الى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكاردينال خمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين في عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الطريق الخطوة المحتومة في طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة .... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء في الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله في الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل في ظل المؤثرات الدينية ، التي غلبت على السياسة الأسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط كان يمكن العمل على ارضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية في قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءا حتى غدوا اغراء لاتصال كل عدو من الخارج ، مثارا دائما لجزع السياسة الاسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والابعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكاردينال حمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان من الميسور تداركها بسرعة ، لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمما أخرى من ان تنهض من كوارث أشد . ان انحلال اسبانيا لا يرجع فقط الى خسارتها لجزء من السكان ، بنفي اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ، ولكن الخطب يرجع الى أن اليهود والعرب المتنصرين ، كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معينا لحياة الاخرين ، وبينما كانت أمم اوربا الاخرى تنهض وتسير الى الامام في مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل

شيء في سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعا الى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للاحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد فيها كل نزعة الى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل في سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد الى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر ، والى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم في طليعة الامم الاوروبية ازدهارا . ومهما كانت قيمة الخدمات التي أدتها ايزابيلا الكاثوليكية والكاردينال خمنيس ، فان السيىء في عملهما يفوق الحسن ، لانهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت في سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى »(٤٩) .

وأخيرا يجمل الدكتور لي خلاصة بحثه المستفيض في مأساة الموريسكيين في هذه العبارة الموجزة القوية : « ان تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصة لجميع الاخطاء والاهواء التى اتحدت لتنحدر بأسبانيا في زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس الى ذلتها في عصر كارلوس الثانى »(٥٠) .

ويقول سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط الى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث الى كثير من الأسر النبيلة ، التي أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الاخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع

(٤٩) Dr Lea : The Moriscos; P. 395-397 and 399-401

(٥٠) Dr Lea : The Moriscos; P. V

والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالامة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الاخير »[٥١] .

ويمكن تلخيص رأى النقد الاسبانى المعاصر ، بما سمعه الاستاذ محمد عبدالله عنان من الاستاذ مننديث بيدال الذى نقلنا رأيه فيما سلف ، وهو من أعظم المؤرخين والنقدة الاسبان في هذا العصر ، فقد حدثه الاستاذ عنان في مدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فقال : ان لا ريب أن اسبانيا قد مُنيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية ، لانها خسرت بأخراجهم شعبا مجدا عاملا بارعا في الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الانقلاب البروتستانتى حملت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت في معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مفرقة .

« ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة ، وكانت أيضا من آثار الرجعية الكاثوليكية . وما كان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكا ضعيفا يعوزه الذكاء والحصافة . وقد غلبت السياسة الدينية والكنيسة في هذه المسألة . ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فأن العلامة ريبرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الاقل من الاسبان الخلص الذين اتخذوا الاسلام في عهود مختلفة ، ثم أرغموا على التنصر بعد سقوط غرناطة ، وصاروا موريسكيين » .

ويسلم الاستاذ بيدال بأن نفي الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال : انه السبب الرئيس لهذا الانحلال، ثم يقول : « والواقع ان هذه مسألة معقدة ، واعتقد أن من أهم أسباب

(٥١) Scott : The Moorish Empire in Europe; V.III. P. 328

(٥٢) نهاية الاندلس (٤١٢) .

انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنيسة المناعضة لحركة الاصلاح الديني ـ البروتستانتية ـ وهو عنف لم يقع مثله في أي بلد اوربي آخر ، بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الاسبانية »(٥٢) .

ويبدي دي ماريليس الذي اتخذ مؤلف كوندي أساسا لكتابه عن « تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا والبرتغال » حماسة في تقدير تراث الامة الاندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها ، ويعلق في خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين في تلك العبارات الشعرية المؤثرة : « وهكذا اختفى من الارض الاسبانية الى الابد ، ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكي المستنير ، الذي أحيا بهمته وجده تلك الاراضي ، التي أسلمتها كبرياء القوط الخاملة الى الجدب ، فبد عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها العديد من القنوات ، ذلك الشعب الذي أحاطت شجاعته الفياضة في السعود والشدائد معا ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذي أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، في مدنه صرحا خالدا من الانوار ، الذي كان ضوؤها المنبعث ينير أوروبا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذي كان روحه الشهم يطبع كل اعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه في نظر الخلف ، لونا غامضا من العظمة الخارقة ، ودهانا سحريا من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فهم أنصاف الالهة اليونان .

هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي

ا. د. خليل ابراهيم الكبيسي
كلية الاداب/جامعة بغداد

المقدمة :

حظيت الدراسات الاندلسية باهتمام كبير ومتزايد من لدن الباحثين بحيث غطت هذه الدراسات الكثير من جوانب الحياة لتاريخ العرب والمسلمين في الاندلس ، لاسيما الجانبين السياسي والحضاري ، ومع ذلك لازالت بعض الجوانب بحاجة الى توضيح او اعادة نظر ، ومن بين هذه الجوانب هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي ، هذه الهجرة التي تعددت اسبابها والتي بدأت متقطعة مع بدايات القرن الثالث الهجري واصبحت ظاهرة اجتماعية ملموسة منذ ان انفرط عقد الاندلس في عصر الطوائف واشتدت الهجمة الاسبانية عليها حيث بدأ مسلسل سقوط المدن الاندلسية • ومع استمرار حالة الانحسار استمرت الهجرة حيث كان معظم الاندلسيين يهاجرون من الاماكن والمدن الساقطة الى الاماكن الباقية في حين كان البعض يهاجرون خارج الاندلس ولاسيما الى بلدان المغرب العربي •

لقد تحكم العامل السياسي بشكل عام والديني بشكل خاص في هجرة الاندلسيين التي كانت تشتد مع ضعف الاندلس وتتوقف او تتقلص مع صموده وقوته ، فعلى سبيل المثال تقلصت الهجرة عندما هب الاخوة في المغرب العربي لنصرة الاندلسيين واشتدت مع ضعفهم ، وكذلك الحال عند قيام سلطنة غرناطة حيث تقلصت الهجرة في اوقات قوة هذه السلطنة واشتدت عندما تهاوت هذه السلطنة وسقطت غرناطة آخر معقل من معاقل العرب والمسلمين

في الاندلس ، حيث اصبحت الهجرة الى المغرب العربي شاملة وجماعية واصبحت اعداد المهاجرين بالالاف وحتى من بقي من المسلمين في اسبانيا والبرتغال بعد سقوط غرناطة وجدوا انفسهم مجبرين على الهجرة فراراً بعروبتهم ودينهم او مكرهين عليها بقرارات رسمية مدروسة ومخطط لها .

لقد كان الهدف من هذا البحث دراسة هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي فقط لاعتقادي ان هذا الموضوع لازال بحاجة الى دراسة مستقلة تبرز اسباب الهجرة وتبين مداها ، الا ان بحثاً بمثل هذا البعد لا يمكن ان يكتمل الا اذا تحدثنا عن التهجير القسري للاندلسيين رغم ان هذا البعد قد تناولته اقلام بعض الباحثين ولهذا فقد كان الحديث عنه بالخطوط العامة دون التفاصيل مع التأكيد على روايات التهجير وما ارتبط بها ، وذلك بقصد ان يكون الموضوع متكاملا ، ولهذا صار عنوان البحث : هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي .

المبحث الاول : هجرة الاندلسيين قبل سقوط غرناطة

لابد من الاشارة الى ان الهجرة ، هي حالة نزوح السكان من مدينة الى اخرى ومن بلد الى آخر، تعددت اسبابها وتباينت نتائجها وهذا ماسنلمسه اثناء الحديث عن هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي .

ولابد من الاشارة ايضاً الى ان الاندلس كانت دار هجرة يقصدها المهاجرون للاستقرار فيها والتنعم بخيراتها ، فمنذ ان بدأت عمليات الفتح سنة ٩٢ هـ بدأت عمليات النزوح الى الاندلس والاستقرار فيها[١] ، بقصد الجهاد في بداية الامر ثم اصبحت الهجرة لغرض الاقامة فيما بعد . لقد كانت الهجرة الى الاندلس على نوعين : جماعية وفردية ، فقد ذكرت المصادر هجرة اربعمائة رجل من وجوه افريقيا مع الحر بن عبدالرحمن الثقفي الذي حكم

(١) ينظر بهذا الخصوص : عبدالواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (بغداد ١٩٨٢) ص ٢٠١-٢٢٨ .

الاندلس من ٩٧ - ١٠٠هـ[٢] ، كما دخلت الاندلس مجموعات من قبائل العرب برفقة السمح بن مالك الخولاني الذي تولى حكم الاندلس سنة ١٠٠هـ[٣]، الا ان المثل البارز على الدخول الجماعي الى الاندلس تمثل في الطالعة الشامية التي دخلت الاندلس سنة ١٢٤هـ مع الوالي بلج بن بشر القشيري وقدر عددها بعشرة الاف رجل[٤] .

اما الهجرة الفردية الى الاندلس فقد كانت متواصلة مع الايام ومع استقرار الاوضاع والنهوض الحضاري الذي شهدته الاندلس ولاسيما في القرون الاربعة الاولى من تاريخها ، حيث قصدها الكثير من العلماء والادباء والشعراء والمغنين والتجار وغيرهم ويكفي ان نشير في هذا المجال الى ان المقري افرد في موسوعته عن التاريخ الاندلسي الموسومة «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» باباً بدأه بذكر بعض الوافدين على الاندلس من اهل المشرق حيث قال : « اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم فضلا عن غيرهم »[٥] .

والمتتبع لتاريخ الاندلس يلمس مصداقية هذا القول ولاسيما في القرون الاربعة الاولى حيث اصبحت الاندلس تستقطب المهاجرين وذلك لما كان فيها من استقرار سياسي وازدهار حضاري ولاسيما في عهد الخلافة حيث اصبحت الاندلس عامة ، وقرطبة واشبيلية وطليطلة وبلنسية وغيرها من حواضر الاندلس خاصة ، مراكز علمية تعج بالحركة والنشاط في كل ميدان من ميادين الحياة .

---

(٢) ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال ، ج٢ (بيروت ١٩٦٧) ص٥ ، المقري ، احمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، ج٣ (بيروت ١٩٦٨) ص١٤ .

(٣) طه ، عبدالواحد ذنون ، الفتح ، ٢١١ .

(٤) ابن القوطية ، ابو بكر محمد ، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق : عبدالله انيس الطباع ، (بيروت ١٩٥٧) ص ٤١ ، وينظر مثل اخر ، ص ٤٤ .

(٥) نفح الطيب ، ٥/٣ .

ان حالة الاستقرار التي شهدتها الاندلس في القرون الاربعة الاولى من تاريخها لا يعني انها لم تتعرض الى بعض الفتن والاضطرابات كان من نتائجها هجرة بعض الاندلسيين من مدينة الى اخرى او هجرتهم الى خارج الاندلس ولاسيما الى اقطار المغرب العربي وهذا ما سيتضح فيما يأتي من البحث .

الا ان الهجرة من الاندلس اصبحت ظاهرة اجتماعية ملموسة بعد سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف ، اي مع ضياع هيبة الاندلس وفقدان وحدتها، فصار الخط البياني للهجرة يتصاعد مع تصاعد الاحداث والانقسامات ومع اشتداد هجمات الاعداء وبداية سقوط المدن الاندلسية .

وفي العموم يمكن ان نميّز نوعين من الهجرة الاندلسية : الطوعية والقسرية . فالهجرة الطوعية تكون في الغالب من دار الاسلام الى دار الاسلام من مدينة الى اخرى او من بلد الى آخر ، ومن بين اسبابها الرحلة في طلب العلم او الرحلة لغرض اداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم او بقصد العمل والتجارة وما الى ذلك ، وبما ان قسماً من هؤلاء الراحلين يقيمون في الاماكن التي رحلوا اليها فقد اصبحوا في عداد المهاجرين . وقد اورد المقري اكثر من نموذج لمثل هؤلاء الراحلين وذلك في الباب الخامس من كتابه الذي عقده للتعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى المشرق العربي[٦] .

اما الهجرة من اجل الرباط او الجهاد في سبيل الله فهي معروفة ومنتشرة في العالم العربي الاسلامي ، ومن امثلتها بالاندلس انه في سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م رست سفينة تحمل بعض البحارة الاندلسيين في جنوب شرق فرنسا في منطقة البروفانس واستقروا في شمال مرسيليا في احدى المواقع الجبلية المنيعة وبدأوا بفتح بعض المناطق المحيطة بهم ونظراً لنجاحهم فقد توارد اليهم المؤيدون من الاندلس والمغرب العربي وقد عرفت قاعدتهم في المصادر اللاتينية

---

(٦) نفح الطيب ، ٥/٢ وما بعدها .

باسـم « فراكينسـتوم Fraxinstum » في حين تعرف في الروايـة الاسلامية بجبل القلال واستمرت دويلتهم حتى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م[٧] .

اما الهجرة القسرية فانها حدثت لاسباب كثيرة ابرزها :

١ ـ الفتن والاضطرابات : تعرضت الاندلس في حقب تاريخية مختلفة الى فتن واضطرابات انعكست اثارها السلبية على عامة الناس ، حيث كـانت تدفعهم في بعض الاحيان الى الهجرة وترك اماكن سكناهم للبحث عن امـاكن اخرى اكثر امناً واستقراراً ، سواء اكانت تلك الامـاكن داخل الاندلـس ام خارجه ، ومن الامثلة الواضحة على ذلك هيجة الربض التي وقعت في قرطبـة سـنة ٢٠٢هـ في عهـد الامير الحكـم بن هشـام بن عبدالرحمـن الداخل [١٨٠ـ٢٠٦هـ] الذي قضى على الهيجة بعنف وقسوة وتتبع الخارجين عليـه بالقتل والتشريد ودورهم بالهدم والاحراق ، ثم امر بإخلاء الربض من اهـله وامر بهدمه[٨] . ان القسوة التي عامل بها الامير الحكم اهل الربض جعلـت اسمه يقترن بها حتى صار يعرف بالحكم الربضي ، كما سببت هذه القسـوة هجرة اعداد كبيرة من القرطبيين المشاركين بالهيجة او ممن تعاطف معهم ، لـم يقف الامر عند هذا الحد بل ان الامير امر باخراج من بقي مـن المشاركين في هذه الهيجة من الحاضرة قرطبة فساروا كل حسب ما امكنه متفرقين في قصـي الكور واطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة اهلها الحكم انذاك[٩]

(٧) عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (بيروت ١٩٧٦) ص ٣١٣ ؛ رينو ، جوزيف ، الفتوحات الاسلاميـة في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي تعريب وتعليق : اسماعيل العربي (الجزائر ١٩٨٤ ص ١٥١ ومـا بعدها .

(٨) عن تفاصيل هيجة الربض ينظر : الكبيسي ، خليل ابراهيم ، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالاندلس في عصري الامارة والخلافة ، رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص١٣٨ـ١٤٩.

(٩) ابن الابار ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، ج١ (القاهرة ١٩٦٣) ص٤٥ .

وهاجر آخرون الى المغرب العربي حيث استقروا في سواحله ، ثم انتقل غالبيتهم الى مدينة فاس ورحب بهم ادريس الثاني وطلب منهم الاقامة بها والمساهمة في تعميرها ، فاستجابوا لطلبه وصار منذ ذلك الحين يطلق على الجزء الذي سكنوه من مدينة فاس اسم « عدوة الاندلسيين » وهذا يمثل اول احتضان مغربي لمهاجرين أندلسيين ، ليس ذلك حسب بل ان قسماً من المهاجرين قدر عددهم بخمسة عشر الفاً اتجهوا الى مدينة الاسكندرية وتمكنوا من السيطرة عليها والبقاء فيها الى ان اخرجهم منها صلحاً القائد العباسي عبدالله بن طاهر ، حيث توجهوا بعد ذلك الى جزيرة اقريطش (كريت) فافتتحوها واقاموا فيها دولة عربية اسلامية استمرت ردحاً من الزمن[١٠] .

ان هجرة الاندلسيين هذه تمثل اول هجرة جماعية قسرية داخل الاندلس وخارجها .

٢ ـ سقوط المدن الاندلسية :

في نهاية القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين تعرضت الاندلس وعاصمتها قرطبة الى حالة مريرة من الفوضى والاضطراب اسفرت عن سقوط الخلافة الاموية بالاندلس وقيام ما يسمى بدويلات الطوائف حيث اصبحت الاندلس مقسمة الى ما يزيد على العشرين دويلة او امارة . ان ضياع وحدة الاندلس وانفراط عقدها افقدها قوتها وجعلها تسير من ضعف الى ضعف ، وقد استغل اعداء الاندلس المتربصين بها هذه الفرصة فسيطروا على اجزاء مهمة من الاراضي الاندلسية ونجحوا في سنة ٤٧٨هـ من الاستيلاء على مدينة طليطلة[١١] قاعدة الثغر الاوسط ، ان سقوط طليطلة نكبة كبيرة حلت بالامة في الاندلس وحدث دق ناقوس الخطر في الاندلس مما دفع حكاء وامراء

(١٠) الكبيسي ، دور الفقهاء ، ١٤٧ وما احال اليه من مصادر .

(١١) عن سقوط طليطلة ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ٣٥٢/٤ـ٣٥٤ ، محمد عبدالله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠٧ـ١١٦ ، الحجي ، التاريخ ، ٣٣٠ـ٣٣٢ .

الطوائف الى الاستجابة لمطالب الاندلسيين ومساعيهم الجادة للاستعانة بالاخوة في المغرب العربي ، حيث كان المرابطون في المغرب الاقصى فياوج عظمتهم وعلى اهبة الاستعداد لتلبية المطالبالاندلسية وبالفعل تعاون المرابطون معالاندلسيين وتمكنوا من الحاق هزيمة منكرة بالاسبان في معركة الزلافة الخالدة سنة ٤٧٩هـ[١٢] . الا ان حالة الضعف والتناحر استمرت بين امراء الطوائف مما دفع بالاندلسيين الى الاستعانة بالمرابطين مرة اخرى ولكن هذه المرة من اجل القضاء على دويلات الطوائف ، فلبى المرابطون النداء وعبروا الى الاندلس واسقطوا امراء الطوائف واصبحت الاندلس تخضع لسلطانهم ، لقد استمدت الاندلس من قوة المرابطين قوة جديدة واستعادوا اجزاء من الاراضي التي فقدوها وحافظوا على ما كان بايديهم باستثناء مدينة سرقسطة التي سقطت بيد الاعداء سنة ٥١٢هـ . واضطر غالبية اهلها الى الهجرة الى المدن والاراضي الاندلسية الباقية .

لم تستمر دولة المرابطين على ما كانت عليه من قوة واخذ الضعف يدب في كيانها بسبب اقتصادها المتواضع والضغط العسكري المتواصل والمتزايد عليها من قبل الاعداء الذين تمكنوا من الاخذ بزمام المبادرة وبدأوا بالتوسع على حساب الاراضي الاندلسية واقتطاع اجزاء مهمة منها ، الا ان الله سبحانه وتعالى هيأ للاندلس دولة فتية حلت محل المرابطين في المغرب والاندلس هي دولة الموحدين والتي نجحت في وضع حد لزحف الاعداء والحقت بهم هزيمة منكرة في معركة الارك الشهيرة سنة ٥٩١هـ[١٣] ، الا انه لم يمض زمن طويل حتى نجحت دول اسبانيا الشمالية من توحيد كلمتها والحاق هزيمة قاسية

(١٢) عن معركة الزلاقة ينظر : الحميري ، محمد بن عبدالمنعم ، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: احسانعباس ،(بيروت ١٩٨٤)ص٢٨٧–٢٩٢ الحجي ، التاريخ ، ٤٠٣–٤٠٩ .

(١٣) عن معركة الارك ينظر : الحميري ، الروض ، ٢٧ ، المقري ، النفح ، ٣٨١/٤–٣٨٢ ، الحجي ، التاريخ ، ٤٨٤–٤٩٠ .

بالمسلمين في معركة العقاب[14] سنة ٦٠٩هـ وعلى اثرها اخذ سلطان الموحدين في المغرب والاندلس يتداعى واخذ مصير الاندلس يهتز بيد القدر ، وبدأنا نسمع عن سقوط القواعد الاندلسية الكبرى تباعاً ففي سنة ٦٢٧هـ سقطت جزيرة ميورقة وفي سنة ٦٣٣هـ سقطت قرطبة عروس الاندلس وحاضرة الخلافة وفي سنة ٦٣٦هـ سقطت بلنسية كبرى مدن شرق الاندلس وفي سنة ٦٤١هـ سقطت دانية وفي سنة ٦٤٣هـ سقطت جيان وفي سنة ٦٤٤هـ سقطت شاطية وفي سنة ٦٤٦هـ سقطت اشبيلية كبرى مدن غرب الاندلس وقاعدة الموحدين فيها ، وهكذا وفي بحر سنوات معدودة سقطت ابرز قواعد الاندلس ومدنه الكبرى وحلت بالاندلس محنة قاسية جدا[15] .

وبعد فمن الطبيعي ان يهاجر القسم الاكبر من سكان المدن الساقطة الى المدن التي لاتزال في قبضة المسلمين ، ويلاحظ ان قلة من سكان هذه المدن هجرتها قبل السقوط عندما شعروا ان الخطر احدق بها وهم ضعاف النفوس ممن تغلب عندهم المصلحة الخاصة على مصلحة الدين والوطن وهم ممن ينطبق عليهم قول ابن الابار : « وغاية اهلها الى هذه الغاية ان يتساقطوا على العدوة وكل منهم مفلت بجريعة الذقن ومسلّم لعدوه الكافر محبوب الوطن »[16] في حين بقي القسم الاكبر من الاندلسيين في مدنهم يدافعون عنها حتى سقطت بيد الاعداء ، بعد ان تحملوا ماتحملوا من العذاب والحصار الذي يستمر عدة شهور وفي بعض الاحيان عدة سنوات ، قدم المدافعون خلالها الاف الشهداء وبذلوا ما يمكن بذله من جهود وطلبوا العون والمساعدة من الاخوة في الاندلس والمغرب .

---

(١٤) ينظر : الحميري ، الروض ، ٤١٦ ، الناصري ، ابو العباس احمد بن خالد ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، ج٢ (الدار البيضاء ١٩٥٥) ص٢٢٠ — ٢٢٤ .

(١٥) ينظر : ابن الابار ، الحلة ، ٢/١٢٧ ، ٣١٨ ، ٣٠٣ ، الحجي ، التاريخ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨–٤٨٠ .

(١٦) الحلة السيراء ، ٢/٢٩٢ .

وغالبا ما كانت تعقد معاهدات تسلم بموجبها المدن الى الاعداء بعد ان يعطى اهلها الامان والعهود بسلامتهم وسلامة ممتلكاتهم وممارسة عباداتهم وعاداتهم بحرية تامة ، وهذا ما حدث عند سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ وبلنسية سنة ٦٣٦هـ ومرسية سنة ٦٦٤هـ ، ومع ذلك فقد هاجرت اعداد كبيرة من الاندلسيين من المدن الساقطة وقصدت الاماكن التي لازالت في قبضة المسلمين ولاسيما الذين تتوفر لديهم الامكانات المادية او الجسدية او العلمية او المهنية او غيرها . اما من بقي من المسلمين في المدن الساقطة فقد اطلق عليهم مصطلح «المدجنون»[(١٧)] ووقع عليهم اللوم ولاسيما من قبل الفقهاء وذلك بسبب عدم هجرتهم الى دار الاسلام لان « الهجرة من ارض الكفر الى ارض الاسلام فريضة الى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من ارض الحرام والباطل بظلم او فتنة »[(١٨)] بل ان الفقيه والقاضي ابو الوليد بن رشد قال في هذا المجال : ان « فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة الى يوم القيامة ، واجب باجماع المسلمين على من اسلم بدار الحرب ان لا يقيم بها حيث تجري عليه احكام المشركين وان يهجرها يلحق بدار المسلمين حين تجري عليه احكامهم»[(١٩)] لقد وردت هذه الفتاوى ضمن رسالة كتبها الفقيه احمد بن يحيى الونشريسي (المتوفى عام ٩١٢هـ) اسماها « اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر» . ومن عنوان الرسالة يتضح عدم جواز البقاء في دار الحرب وفتوى الفقهاء بانزال العقوبات والزواجر على من بقي منهم ، الا ان هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء جماعات من المسلمين في الاراضي والمدن الساقطة وذلك لاعتبارات دنيوية

(١٧) عن المدجنين ينظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، (القاهرة ١٩٦٦) ٥٦ـ٧٠ ، الحجي ، التاريخ ، ٥٣١ـ٥٣٤ .

(١٨) الونشريسي ، احمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف الدكتور محمد حجي ، ج٢ (بيروت ١٩٨١) ١٢١ ، ١٤٠ .

(١٩) ايضا ، ٢/١٢٤ .

او أسرية او حياتية خاصة • يضاف الى ذلك التزام الاسبان النسبي في بداية الامر بعهودهم التي قطعوها للمسلمين مما ساعد على بقاء البعض منهم في مدنهم بعد سقوطها •

كان عدد المدجنين يزداد بازدياد عدد المدن الساقطة ، الا انه لم يمض وقت طويل حتى نقضت اسبانيا عهودها ومارست الضغط على المدجنين من اجل طمس شخصيتهم العربية الاسلامية وذلك من خلال حملات التنصير القسري ومنع المدجنين من الكلام باللغة العربية او ارتداء الزي العربي وترك كل ماله علاقة بالعادات والتقاليد العربية الاسلامية ، مما دفع بعدد اخر من المدجنين على الهجرة والفرار بدينهم وكرامتهم الى الاراضي الاسلامية الباقية في الاندلس او الى خارج الاندلس ولاسيما بلدان المغرب العربي • وقد اورد ابن الايار نصاً يؤكد سياسة الضغط والتهجير للمسلمين ، فعندما تحدث عن ابي بكر يحيى بن احمد بن عيسى الخزرجي والي مدينة شاطبة ، ذكر سقوطها بيد الاعداء سنة ٦٤٤هـ ثم قال : « وفي وقتنا هذا وصل بعض الشاطبين يخبر انه اجلاهم عنها مع اهل جهاتها ــ وهم ألوف من المسلمين ــ فتفرقوا في البلاد ، واوى ابو بكر هذا في خاصته الى حصن بمقربة منها وذلك في رمضان من سنة خمس واربعين [وستمائة](٢٠) •

وفي العموم فقد صورت لنا المصادر العربية الاسلامية الحالة السيئة للاندلسيين وهم يهجرون مدنهم بعد سقوطها ، فقد رثا شاعر مجهول مدينة طليطلة بقصيدة طويلة زادت ابياتها على السبعين بيتاً جاء فيها :

واخرج اهلها منها جميعاً … فصاروا حيث شاء بهم مصير
كفى حزناً بان الناس قالوا … الى اين التحول والمسير(٢١)

(٢٠) الحلة السيراء ، ٣٠٣/٢ .

(٢١) المقري ، نفح الطيب ، ٤٨٣/٤ وما بعدها .

وعندما سقطت مدينة قرطبة خرج اهلها منها « ولم يبق من اهلها الا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها »(٢٢) ، وعندما سقطت بلنسية وما يليها من القواعد القريبة نزح الكثير من اهلها الى قواعد الاندلس الباقية ، وفي نفس الوقت عبر الكثير منهم البحر الى العدوة المغربية واستقروا في مختلف انحائها ولاسيما في رباط الفتح ، حيث التمس اهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من اهل مدن شرق الاندلس ، الخليفة الموحدي الرشيد من اجل الهجرة الى المغرب ، فاصدر الرشيد ظهيراً سنة ٦٣٧هـ يرحب بهم ويأذن لهم فيه بالهجرة الى المغرب والنزول في رباط الفتح وقد شدد في الظهير على الولاة والعمال بحمايتهم والرفق بهم وعدم الحاق الاذى بهم او منعهم من تحقيق مآربهم(٢٣) . ان التماس الاندلسيين بالهجرة الى المغرب يمثل حالة نادرة اذ لم يسبق ان استأذن اهل الاندلس حاكماً من حكام المغرب في ذلك ، لان الحدود في العالم الاسلامي مفتوحة وحرية الانتقال من بلد الى آخر تضمنها الشريعة ، الا ان هذا الالتماس ربما كان بسبب كثرة المهاجرين او بسبب الاضطرابات والقلاقل التي كانت تعم المغرب العربي آنذاك لذا اراد الاندلسيون ان يضمنوا سلامتهم في المكان الذي قرروا الهجرة اليه .

وبعد سقوط بلنسية وخروج اهلها منها ارسل الكاتب ابن عميرة الى المؤرخ ابن الابار رسالة جاء فيها :«فيا لله لاتراب درجوا، واصحاب عن الاوطان خرجوا ، قصت الاجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل او الاسر او تسيروا ، فتفرقوا ايدي سبا وانتشروا ملء الوهاد والربا »(٢٤) ومن هذه الرسالة يتضح

(٢٢) الحميري ، الروض ، ٥٨ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٤٧٢ .

(٢٣) محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ق٢ (القاهرة ١٩٦٤) ٤٥٥ وعن نص الظهير ينظر : ٧٣٧ — ٧٣٨ ، وقد ذكر عنان انه اطلع على نص الظهير في مخطوط محفوظ بمكتبة الاسكوريال برقم ٥١٨ عنوانه « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن علي المكنى بابن المرابط .

(٢٤) الحميري ، الروض ، ٩٨ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤/٤٩٢ .

ان معظم الاندلسيين في مدنهم الساقطة صاروا بين قتيل او اسير او مهاجر ، وقد شبه ابن عميرة حالة اهل الاندلس بعد سقوط مدنهم ، بالاهل وقد اصيب احدهم بالحصبة ففروا منه على مضض خشية العاوى حين قال :

كفى حزناً انا كاهل مُحصب بكل طريق قد نفرنا وتنفر(٢٥)

ان تهجير الاندلسين من مدنهم كان في بعض الاحيان شرطاً من شروط معاهدة التسليم ، فعندما اضطرت مدينة اشبيلية على الاستسلام سنة ٦٤٦هـ بعد حصار دام قرابة السنة والنصف ، كان من الشروط ان يخرج اهلها منها ، لذا قام ملك قشتالة بوضع التسهيلات للمهجرين في البر والبحر ، من ذلك انه خصص اسطولا من خمس سفن كبيرة وثمان صغيرة لهذا الغرض، وقد قدر عدد المهاجرين باربعمائة الف منهم مائة الف هاجروا بطريق البحر الى مدينة سبتة وثلاثمائة الف ساروا برا بطريق شريش وتفرقوا في مختلف الانحاء بالمغرب والاندلس(٢٦) .

وعن تهجير اهل مدينة اشبيلية يقول ابن عذاري : « وخرج منها الخاص من اهلها والعام »(٢٧) حتى ان المدينة ظلت خالية بعد ذلك ثلاثة ايام(٢٨) .

وفي العموم فان الغالبية الساحقة من سكان المدن الاندلسية الساقطة كانت تؤثر الهجرة الى ارض الاسلام ولاسيما الى المدن الاندلسية الباقية ، وعندما كانت سلطنة غرناطة قد نشأت في هذه الحقبة فقد اصبحت ملاذا وملجأ للمهاجرين الاندلسيين(٢٩) واصبح هؤلاء المهاجرين قوة عسكرية وحضارية

(٢٥) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٤٩٤ .

(٢٦) عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ٤٨٦ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٤٨٢ .

(٢٧) ابن عذاري ، البيان الموحدي ، تحقيق : اميروسي هويسي ميراندة ومشاركة : محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن ابراهيم الكتاني ، (تطوان ١٩٦٠) ٣٨٥ .

(٢٨) الحميري ، الروض المعطار ، ٦٠ .

(٢٩) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٥١٠ .

مضافة لهذه الدولة الفتية بما يملكون من مهارات وامكانات متعددة ، فكان ذلك احد الاسباب الرئيسة التي مكنت هذه السلطنة من الثبات في وجه الاعداء ما ينيف على القرنين والنصف من الزمن(٣٠) .

المبحث الثاني : هجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة

في صفر سنة ٦٠٩هـ/١٦ تموز ١٢١٢م وقعت معركة العقاب ، التي خسر فيها المسلمون خسارة كبيرة ولهذا فقد مثلت هذه المعركة بداية النهاية بالنسبة لدولة الموحدين بل انها كما يقول ابن عبدالملك : « السبب الاقوى في تحيف الروم بلاد الاندلس حتى استولوا على معظمها وافضى الى خلائها من اهل الملة الحنيفية »(٣١)

وقد اعقب هذه المعركة حالة من الضعف الشديد نتج عنه سقوط جملة من القواعد الاندلسية المهمة مثل قرطبة وبلنسية واشبيلية وغيرهما مما اسلفناه. وفي هذه الظروف الصعبة استطاع ابو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر ، تأسيس سلطنة غرناطة والاحتفاظ بالبقية الباقية من الاراضي الاندلسية . الا ان الصراع استمر مع الاعداء وكان الاندلسيون يستميتون في الدفاع عن ارضهم ويستعينون في اوقات كثيرة بالاخوة في المغرب العربي وعلى الاخص بدولة بني مرين . وبمرور الزمن ضعفت سلطنة غرناطة بسبب الخلافات والانقسامات، في حين كانت دول اسبانيا الشمالية تتوحد وتزداد قوة وتصلها الامدادات السخية من دول اوربا فتمكنت من التوسع شيئا فشيئا على حساب سلطنة غرناطة ، وكما هي العادة فقد كان اغلبية الاندلسيين في الاماكن الساقطة يهجرون مدنهم واراضيهم او يهجرون

(٣٠) ينظر : عنان، نهاية الاندلس، ٧١ ـ ٧٢ ؛ العجي ، التاريخ، ٥٢١ ـ ٥٢٢

(٣١) ابن عبدالملك الانصاري ، ابوعبدالله محمد بن محمد ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق : محمد بن شريفة، السفر الاول ، ق١-٢ (بيروت د. ت) ٥٦٢ (رقم الترجمة ٨٥٨) .

منها ويلجأون الى مدينة غرناطة وغيرها من المدن والاراضي الباقية بحوزة المسلمين ، في حين كانت مجموعات كبيرة منهم تعبر الى العدوة المغربية لتستقر هنالك .

لقد استمرت حالة الانحسار حتى وقعت المأساة الكبرى بسقوط مدينة غرناطة ، آخر معقل من معاقل العرب المسلمين بالاندلس بيد الملكين الكاثولكيين فرناندو وازبيلا سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وبذلك ينتهي الحكم العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال) بعد ان استمر ما ينيف على ثمانية قرون من الزمن .

اما الامة الاندلسية التي قدر عددها بالملايين[٣٢] ، فقد اصبحت بعد سقوط غرناطة في اراضي غير اسلامية ، لذا نجد مجموعات كبيرة منهم تهاجر الى المغرب العربي ، في حين بقيت اعداد ليست قليلة منهم في مدنهم وارتضوا العيش في ظل الحكم الاجنبي لنفس الاسباب التي ذكرناها سابقا عند الحديث عن المدن الاندلسية الساقطة قبل سقوط غرناطة .

لقد عملت السلطات الاسبانية على دفع الاندلسيين الى الهجرة ويتجلى ذلك بوضوح في معاهدة تسليم غرناطة التي جاء فيها : « انه يحق لسائر غرناطة والبيازين وغيرهما الذين يريدون العبور الى المغرب ان يبيعوا اموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وانه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص ، وانه يحق للسكان المذكورين ان يعبروا الى المغرب ، او يذهبوا احرارا الى أية ناحية اخرى حاملين معهم أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها ، ويلتزم الملكان بان يجهزا في بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب الى المغرب ، وان يقدما خلال الاعوام الثلاثة التالية السفن لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طاب الراغبين فيه،

---

(٣٢) قدر عدد المسلمين في الاندلس لدى سقوط غرناطة بما لايقل عن ستة ملايين والى ثمانية ملايين اذا اضيف اليهم المدجنون في المدن التي سقطت قبل غرناطة . ينظر ، عبدالرحمن علي الحجي ، محاكم التفتيش الاسبانية وسراديب الموت فيها ، المناهل ، العدد ٣١ لسنة ١٩٨٤ (المقرب ٢٠٢ .

ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة اي اجر او مغرم ، وانه يحق العبور لمن شاء بعد ذلك نظير دفع مبلغ دوبل واحد عن كل شخص »[٣٣] ومما تقدم يلاحظ ان السلطات الاسبانية كانت تشجع الاندلسيين على الهجرة وان هذه السياسة كانت متبعة قبل سقوط غرناطة ، فقد كتب ملك قشتالة الى سلطان غرناطة سنة ٧٩٥هـ يقول له : « قل لمن اراد الاقامة في الاندلس من المسلمين فعليه الصبر ومن اراد الجواز الى العدوة يبيع املاكه الى النصارى بالثمن الوافي فعليه الامان والعهد »[٣٤] .

اضافة الى سياسة الترغيب التي اتبعتها السلطات الاسبانية لدفع الاندلسيين على الهجرة فانها كانت لاتتوانى في اتخاذ اي قرار يخدم مصالحها من ذلك قرارها بابعاد ابي عبدالله سلطان الاندلس الى العدوة المغربية خلافاً لشروط معاهدة التسليم ، وقد اجتمع مع السلطان خلق كثير ممن اراد الجواز، فركب ابو عبدالله ومن معه المراكب وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ثم ارتحل الى مدينة فاس[٣٥] . وكان ذلك اواخر شهر ذي الحجة عام ٨٩٨هـ اوائل شهر تشرين اول سنة ١٤٩٣م وقد عبر البحر مع السلطان عدد كبير من الوزراء والقادة والاكابر من صحبه ممن آثروا الرحيل وبلغ جميع الذين عبروا معه الفا ومائة وثلاثين شخصا[٣٦] .

---

(٣٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٤٦ .

(٣٤) مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر او تسليم غرناطة ونزوح الاندلسيين الى المغرب ، تحقيق : الفريد البستاني (العرائش ١٩٤٠) ٤٧ .

(٣٥) مجهول ، نبذة ، ٤٣ ، ٤٧ ؛ المقري ، احمد بن محمد ، ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا واخرين ، ج١ (القاهرة ١٩٣٩) ٦٧ الناصري ، الاستقصا ، ١٣٥/٤ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧

(٣٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٨٧ ، وقد اعتمد في ذلك على ما اورده المستشرق الاسباني لافونتي الكنترا ؛ ثم ينظر : محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة (عمان ١٩٧٧) ص٦٩ هامش رقم (٢) حين عقد مقارنة بين ماذكره لافونتي وماذكره صاحب كتاب نبذة العصر بخصوص الراحلين مع سلطان الاندلس .

اما فيما يتعلق بعامة الاندلسيين فان هجرتهم كانت على نوعين : الاولى ذاتية او بدافع الترغيب والترهيب ، والثانية : قسرية اعقبت قوانين التهجير التي اصدرتها السلطات الرسمية لمن بقي من الاندلسيين كما سنرى في المبحث اللاحق .

هاجر الى المغرب العربي بعد سقوط غرناطة مجموعات كبيرة من الاندلسيين ، وذلك بعد ان اصبحوا في ديار يحكمها غير المسلمين وتمشيا مع قواعد الشريعة الاسلامية ومواقف الفقهاء المتشددة والداعية الى الهجرة الى دار الاسلام ، وعلى هذا الاساس نجد العلماء والفقهاء سباقون الى الهجرة ، يقول المقري : ان « جماعة من علماء الاندلس خرجوا الى تلمسان ، منهم القاضي الشهير ابو عبدالله بن الازرق صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل وكتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون وفيه زيادات بديعات وكتاب روضة الاعلام بمنزلة العربية من علوم الاسلام ، وغير ذلك ، وارتحل من تلمسان الى المشرق ... ومنهم بنو داود المذكورين في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهؤلاء خرجوا من الاندلس قبل اخذ غرناطة ، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وانه آخذها لا محالة ، قوضوا رحالهم عنها ، فنزلوا بتلمسان المحروسة ، واخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب رحمهم الله ، ومنهم الفقيه الاديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة ابو عبدالله محمد بن الحداد الشهير بالوادي أشي ... وممن خرج بفاس من العلماء الفقيه ابو العباس البتيني ... »[٣٧] ولحسن الحظ فقد وصلت الينا وثيقة مهمة تبين لنا على وجه الخصوص الذين هاجروا من مسلمي الاندلس الى المغرب العربي بعد سقوط غرناطة ، جاء فيها : « ثم بادر المسلمون بالجواز الى العدوة من المراسي ، فخرج من بقي من اهل مالقة في ثلاثة ايام الى بادس [تكتب اليوم بالياء باديس] وخرج اهل المرية في نصف اليوم الى تلمسان ، وخرج اهل الجزيرة الخضراء في نصف اليوم الى طنجة ، وخرج اهل رندة وبسطة وحصن موجر

(٣٧) ازهار الرياض ، ١/٧١ — ٧٢ .

وقرية قردوش وحصن مرتيل الى تطوان واحوازها ، واهل ترقة خرجوا الى المهدية ، وخرج اهل منسين الى بلاد الريف وخرج اهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة واهل مرشانة واهل البشرة الى قبيلة غمارة بزاوية سيدي احمد الغزال ، وخرج اهل بريرة وبرجة وبولة واندراش الى ما بين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم الى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة ، وخرج اهل مرينية في يوم الى مدينة ازيلة [تكتب اليوم : اصيلة] وما قرب منها ، ثم خرج اهل مدينة بليش وشيطة وقرية شريش الى مدينة سلا ، وخرج ما بقي من اهل غرناطة في خمسة عشر يوما الى بجاية ووهران وبرشد زوالة ومازونة ونقطة وقابس وسفاقس وسوسة ، وخرج اهل طريفة في يوم الى اسفي وزمور وانفة ، وخرج اهل القلعة الى اجدير »[٣٨] .

ومن هذه الوثيقة يتضح ما يأتي :

١ ـ ان الهجرة غطت معظم المدن والقرى والحصون الاندلسية المهمة ، وهذا يعني ان الهجرة كانت شاملة ، لانه من الصعب احصاء جميع المهاجرين والاماكن التي هاجروا منها والاماكن التي استقروا فيها ، لسعة الارض وكثرة السكان وعدم توفر الامكانات الفنية اللازمة في ذلك الزمان .

٢ ـ ان المهاجرين الذين ذكروا في هذه الوثيقة كانوا على ما يبدو وجبة لاحقة ، لان المؤلف يستخدم عبارة « من بقي من اهل مالقة او غرناطة ... » وهذا دليل على ان العدد الاكبر من الاندلسيين كانوا قد غادروا مدنهم قبل تاريخ تسجيل الوثيقة وربما كان اثناء محاصرة مدينة غرناطة وتيقن الاندلسيين من وقوع المأساة لا محالة . وهو ما يتضح من النص الذي اورده المقري اعلاه والذي جاء فيه : « وهؤلاء خرجوا من الاندلس قبل اخذ غرناطة ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وانه آخذها لا محالة قوضّوا رحالهم عنها »[٣٩] .

---

(٣٨) مجهول ، نبذة ، ٤٨ .

(٣٩) ازهار الرياض ، ١/٧٢ .

٣ ـ من هذه الوثيقة لا نتعرف على المهاجرين الاندلسيين فقط وانما على الاماكن التي هاجروا اليها ويلاحظ انهم قصدوا سواحل المغرب العربي [المغرب، والجزائر ، وتونس] وهو امر طبيعي بحكم العوامل الدينية والقومية اضافة الى العوامل التاريخية والجغرافية التي تربط ابناء المغرب العربي بابناء الاندلس .

٤ ـ يبدو لي ان كاتب هذه الوثيقة كان من المطلعين على اوضاع الاندلسيين او دونها عن شخص مطلع عن كثب على احوالهم ، ولا استبعد ان يكون كاتبها احد بحارة السفن التي نقلت المهاجرين الى سواحل المغرب العربي ، وهذا ما يتضح من دقة المعلومات التي اوردها من حيث تحديد اماكن المهاجرين واتجاهات هجرتهم ، ويتضح ايضا من خلال تحديده للمدد التي استغرقتها عملية الابحار ، فهو يذكر على سبيل المثال : ان اهل مالقة استغرق ابحارهم ثلاثة ايام ، واستغرق ابحار اهل الجزيرة الخضراء الى طنجة نصف يوم ، وهو امر طبيعي اذا ما علمنا ان مايفصل بين طنجة والجزيرة الخضراء هو مضيق جبل طارق وان هذه المنطقة بالذات هي من اضيق مناطقه ، تدرك اطلاع كاتب الوثيقة ودقة معلوماته .

٥ ـ وصلت الينا هذه الوثيقة ملحقة بكتاب نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول ، الذي صرح انه وجد هذه الوثيقة مفيدة فالحقها بكتابه . وقد وضع لها محقق الكتاب الاستاذ الفريد البستاني العنوان الاتي « نزوح مسلمي الاندلس الى المغرب »(٤٠)

ليس ذلك وحسب بل وصلت الينا الكثير من النصوص تؤكد هجرة اعداد كبيرة من الاندلسيين الى المغرب العربي ، من ذلك هجرة بنو سراج وغيرهم من انجاد غرناطة القدماء حتى اقفرت مناطق باسرها من اعيان المسلمين ولاسيما منطقة البشرات ، وكان تدفق المهاجرين دليلا على ان الشعب المغلوب لم يكن واثقا من عدل الحكام الجدد ، وانه كان ينظر الى المستقبل بعين

(٤٠) ينظر : مجهول ، نبذة ، ٤٦ ؛ حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس ، ٧٥ .

التوجس والريب[41] . وممن هاجر من غرناطة بعد سقوطها بقليل وبالتحديد في سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م جماعة كبيرة من اهلها على رأسهم ابو الحسن علي المنظري الذي وصفه الناصري بانه كان « رجلا شجاعا من كبار جند ابن الاحمر وكان قد ابلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن »[42] فنزل مع جماعته في موقع قرية مرتيل (او مرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ مهجورة ، فاستأذن الاندلسيون سلطان فاس ، محمد الشيخ الوطاسي في تعميرها وسكناها ، فأذن لهم فاقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة[43] . وبعد ان استقر الاندلسيون في تطوان رجع البعض بانفسهم او بعثوا الى من تخلف من اقاربهم او اصدقائهم فجاءوا بمن بقي من اهلهم[44] ، ويقول الحسن الوزان وهو شاهد عيان معاصر لهذه الاحداث وهو يتحدث عن ابي الحسن المنظري : « كانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين ... وكان معه دائما ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة اهل غرناطة ، فجعل يجوب انحاء البلاد بهذا الجيش ... »[45] وبرغم الاعداد الكبيرة التي هاجرت الى المغرب العربي او غيره من الاقطار[46] ، الا ان الباقين في غرناطة او غيرها من مدن الاندلس الذاهبة قدر بالملايين[47] .

لقد حالت الظروف الطبيعية والسياسية بين العديد من الاندلسيين والهجرة الى المغرب العربي فقد ذكر مؤلف مجهول عندما تحدث عن هجرة سلطان غرناطة ومن معه من الاندلسيين ، ان الناس في المغرب العربي اصابهم

(٤١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١١ .   (٤٢) الاستقصا ، ٤/١٢٤ .
(٤٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١١ .
(٤٤) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج١ (تطوان ١٩٥٩م) ٨٧ .
(٤٥) الوزان ، الحسن بن محمد ، وصف افريقيا ، ترجمة : محمد حجي ومحمد الاخضر ، ج١ (الرباط ١٩٨٠) ٢٤٧ .
(٤٦) ينظر : بوجندار ، ابو عبدالله محمد ، مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٤٥هـ) ٢٠١ ، وما بعدها ، حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس ٧٦ .
(٤٧) ينظر : الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٢ .

آنذاك «شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون ، واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض الناس من الذين جاءوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز ، عند ذلك عزموا على الاقامة والدجن »[٤٨] ، في حين انخدع العدد الاكبر من الاندلسيين بالشروط التي وردت في معاهدة تسليم غرناطة[٤٩] ، والتي اكدت على حرية العبادة والسكن والتملك للمسلمين ، فآثروا البقاء على الهجرة ، الا انه لم يمض وقت طويل حتى نقضت السلطات الاسبانية شروط المعاهدة واخذت تمارس شتى انواع الاضطهاد وفي هذا يقول المقري : « ولما رأى الطاغية ان الناس تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، اخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون اول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا الى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وادركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وقطع عنهم الاذان في الصوامع »[٥٠] ، لم يقف الامر عند هذا الحد بل « امرهم بالخروج من غرناطة الى الارياض والقرى فخرجوا صاغرين »[٥١] ، ثم اعقب ذلك باجراء ثالث وهو أن « دعاهم الى التنصير واكرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة [١٤٩٩م] فدخلوا فيه كرها »[٥٢] ، وقد اعقب قرار التنصير القسري سلسلة طويلة من الاجراءات والقوانين التعسفية الجائرة شملت غرناطة وجميع المدن التي سقطت قبلها حتى « صارت الاندلس كلها نصرانية [في الظاهر] ولم يبق من يقول فيها لا اله الا الله محمد رسول الله جهرا الا من يقولها في نفسه »[٥٣] ، وقد اطلق الاسبان على الاندلسيين الذين اجبروهم على التنصر مصطلح الموريسكيين Moriscos اي المسلمين الصغار واطلق عليهم في بعض الاحيان مصطلح العرب المتنصرين .

---

(٤٨) نبذة العصر ، ٤٤ .

(٤٩) ينظر ما ذكره المقري عن هذه الشروط ، نفح الطيب ، ٤/ ٥٢٥ ــ ٢٥٦ ؛ ثم ينظر بعض هذه الشروط ، مجهول ، نبذة العصر ، ٤١ ؛ وينظر الترجمة العربية للنص القشتالي للمعاهدة ، عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٥٤ ــ ٢٥٠ .

(٥٠) ازهار الرياض ، ١/ ٦٨ .

(٥١) أيضا (٥٢) ايضا (٥٣) مجهول ، نبذة العصر ، ٤٤ .

ان هذين المصطلحين لا ينطبقان على وضع الاندلسيين بعد سقوط غرناطة ولا يعبران عن واقعهم الديني والتاريخي ، لان مصطلح الموريسكيين فيه اذلال واصغار للمسلمين عامة وللاندلسيين خاصة ، فضلا عما فيه من مسايرة للنظرة المتعالية للاسبان والمبنية على الحقد والكراهية لكل ما هو عربي ومسلم. اما مصطلح العرب المتنصرين، فهو الاخر لايجوز استخدامه لأن الاندلسيين لم يستبدلوا بالاسلام النصرانية وانما اكرهوا عليها وان الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ المؤمنين بالاكراه فضلا عن كونهم منصرين لا متنصرين .

كما اننا نرفض استخدام مصطلح مسلمي اسبانيا لانه يطمس مصطلحنا « الاندلس » بكل ما فيه من وقع في النفوس ، كما ان مصطلح مسلمي اسبانيا لا يفرق بين المسلمين في الاندلس قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها ، فضلا عن كون مثل هذا المصطلح يوحي ببقاء الاندلسيين على الاسلام في ظل الحكم الاسباني دونما اكراه على اظهار النصرانية وهو أمر يخالف الواقع التاريخي للاندلسيين .

وعلى هذا الاساس فاننا ندعو الى رفض هذه المصطلحات وعدم استخدامها والاستعاضة عنها بمصطلح الاندلسيين الكاتمين ، اي الكاتمون لايمانهم تيمنا بقوله تعالى : «مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه»(٥٤) لان الاندلسيين في حقيقة انفسهم ظلوا على ايمانهم واسلامهم وان اظهرواالنصرانية، خوفاً على انفسهم من بطش الاسبان واضطهادهم مثلهم في ذلك مثل مؤمن آل فرعون الذي كان يسر ايمانه عن فرعون وقومه خوفاً على نفسه(٥٥). ان

---

(٥٤) سورة غافر : ٢٨ .

(٥٥) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القران ، ج٢٤ (القاهرة ١٩٥٤) ٥٧ .

هذا المصطلح ينطبق على الغالبية الساحقة من الاندلسيين وان كان هنالك قلة منهم ارتدوا عن الاسلام فهذا لايمثل الاحالة الاستثناء،الذي لايمكن ان يكون في اي حال من الاحوال معياراً للعموم .

لم يستسلم الاندلسيون للقرارات الجائرة بحقهم ولاسيما قرار التنصر القسري ودافعوا عن ايمانهم وكرامتهم وفي هذا يقول مؤرخ مجهول : « كان بعض اهل الاندلس قد امتنعوا من التنصر وارادوا ان يدافعوا عن انفسهم كاهل قرى ونجر والبشرة واندراش وبلفيق ، فجمع ملك الروم عليهم مجموعة واحاط بهم من كل مكان حتى اخذهم عنوة بعد قتال شديد ، فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم واموالهم ونصرهم واستعبدهم الا اناس في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل منيع وعر فاجتمعوا فيه بعيالهم واموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعة وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم ، فلما دنا منهم واراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه بعد اكثر من ثلاث وعشرين معركة فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان واقناد ، فلما راى انه لايقدر عليهم طلب منهم ان يعطيهم الامان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين فانعموا له بذلك الا انه لم يسرح لهم شيئاً من متاعهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه»(٥٦) كما نجح الاندلسيون ايضا في التصدي للسلطات الاسبانية واعتصموا بالمنطقة الجبلية المجاورة لمدينة رندة واعلنوا الثورة ، وقد حقق الثوار نجاحاً ملموساً مما اضطر الاسبان الى ارسال حملة كبيرة تحت امرة القائد الشهير آلونسودي آجيلار دوق قرطبة ، فوقعت بين المسلمين والاسبان معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون وقتل فيها القائد الاسباني وتشتت قواته ، مما اضطر ملك اسبانيا الى اتباع سياسة اللين والمسالمة مع الثوار فاعلن العفو عنهم بشرط ان يعتنقوا النصرانية في ظرف ثلاثة اشهر او يغادروا اسبانيا

---

(٥٦) نبذة العصر ، ٤٥ .

تاركين املاكهم للدولة فأثر معظمهم الهجرة والجواز الى المغرب العربي ، فهاجرت منهم جموع كبيرة الى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها وقدمت الحكومة الاسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم(٥٧)، لانه ينسجم مع سياسة السلطات الاسبانية في القضاء على الانسان العربي المسلم ديناً ولغة وتراثاً .

لم يقف الاضطهاد الاسباني عند قرار التنصير القسري للانسان المسلم بل تعداه الى تراثه الفكري والعلمي ، وقد تزعم هذا الاتجاه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذي لم يكتف بتحريض السلطات الاسبانية على نقض عهودها للمسلمين واكراههم على التنصر ، بل ارتكب عملاً همجياً شائناً وذلك عندما امر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من اهالي غرناطة وارباضها ، وجمعت اكدس هائلة في ميدان باب الرملة في مدينة غرناطة ومنها الكثير من المصاحف البديعة الزخرف والاف من كتب الاداب والعلوم واضرمت النيران فيها جميعا ، وذهب ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات الالوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الاسلامي في الاندلس(٥٨) .

ثم توالى صدور القوانين والمراسيم التي كانت في مجموعها بقصد القضاء على العرب والمسلمين وكل ما يمت اليهم بصلة ، وقد تولت محاكم التحقيق السيئة الصيت ومحققها العام الكردينال خمنيس ومن جاء بعده ، مهمة تنفيذ السياسة الاسبانية الجائرة بحق الاندلسيين الكاتمين ، واتبعت في سبيل ذلك شتى اساليب الاضطهاد والتعذيب والقتل الجماعي ، وقد تم في الاونة الاخيرة اكتشاف مقبرة جماعية للاندلسيين قدرت هياكلها بما يزيد

---

(٥٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٥ .

(٥٨) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١٦ .

على ثلاثة الاف جثة زاد التقدير بعدها الى نحو الضعف من الرجال والنساء والاطفال ، وهم ضحايا هذه المحاكم الاسبانية[٥٩] .

وفيما يأتي ملخص لابرز القوانين والمراسيم التي صدرت في اسبانيا بحق مسلمي الاندلس :

١ ــ بعد قرار التنصير الشامل الذي صدر في سنة ١٤٩٩م ، اصدر فرناندو مرسوما بالزام الاندلسيين الكاتمين في المدن ان يسكنوا في احياء خاصة بهم سميت « موريريا Moreria »[٦٠] .

٢ ــ في سنة ١٥٠١م صدر قانون يحرم على المسلمين احراز السلاح علنا او سرا وينص على معاقبة المخالفين لاول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم الموت بعد ذلك ، وفي هذا يقول المقري : « ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد »[٦١] .

٣ ــ وفي شهر شباط من سنة ١٥٠٢م اصدرت ايزابيلا مرسوما يخير الاندلسيين جميعا بين التنصير او الرحيل[٦٢] .

٤ ــ وفي سنة ١٥١٥م صدر مرسوم يحرم على الاندلسيين الكاتمين بيع ممتلكاتهم دون ترخيص ومن فعل ، عوقب بالموت لانهم يبيعون ممتلكاتهم ويحصلون على اثمانها ثم يعبرون الى المغرب وهنالك يفصحون عن اسلامهم[٦٣] . بينما تريدهم السلطات الاسبانية ان يهجروا بلادهم ويتركوا ممتلكاتهم ومن ثم مصادرتها .

(٥٩) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٣٠ ، ثم ينظر امثلة اخرى ، ٤٠٥ .
(٦٠) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٦ .
(٦١) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .
(٦٢) عادل سعيد بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة (دمشق ١٩٨٥) ١٠٠ .
(٦٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٧ .

٥ ــ وفي سنة ١٥٢٤م صدر مرسوم جديد يجبر كل مسلم على ان يختار بين التنصير او الرحيل ومن لم ينفذ ذلك فمصيره الاسترقاق مدى الحياة ، وتم بموجب هذا المرسوم تحويل جميع المساجد الى كنائس[٦٤] . ويدلل هذا المرسوم على عدم تنفيذ الاندلسيين لمرسوم التنصير الاول او لشعور الاسبان ان من أعلن نصرانيته من الاندلسيين كان في حقيقة الامر يكتم اسلامه .

٦ ــ صدر في سنة ١٥٢٦م في عهد الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) قانون جاء فيه :

أ ــ يمنع استخدام اللغة العربية كلاما او كتابة ، سرا او علانية .

ب ــ يرغم الاندلسيون الكاتمون على تعلم اللغة الاسبانية ، وتسليم كل ما بايديهم من نصوص او وثائق بالعربية .

جـ ــ يؤكد القانون وجوب اجتناب الاندلسيين نهائيا لعقائدهم وعباداتهم وثيابهم التقليدية واسمائهم العربية .

د ــ هدم كل الحمامات العامة .

هـ ــ ابقاء بيوت الاندلسيين الكاتمين مفتوحة الابواب .

و ــ يلزم الاندلسيات الكاتمات بالسفور دون خمر في اثناء سيرهن بالطرقات[٦٥] .

٧ ــ وعندما تولى فيليب الثاني عرش اسبانيا (١٥٢٧ ــ ١٥٩٨م) صدرت في عهده قرارات ومراسيم تؤكد وتجدد القوانين السابقة ، ففي سنة ١٥٦٣م صدر قانون يؤكد من جديد تحريم حمل السلاح على الاندلسيين الكاتمين ، كما صدر في سنة ١٥٦٧م قانون يؤكد

(٦٤) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٦ /٤٠٧ .

(٦٥) ينظر : محمد عبدة حتاملة ، التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧ ــ ١٥٩٨ (عمان ١٩٨٢) ٣٠ .

القانون القديم الصادر في سنة ١٥٢٦م . والقاضي بمنح الاندلسيين الكاتمين ثلاثة اعوام لتعلم اللغة القشتالية ، وكل معاملة او عقد باللغة العربية يعد باطلا ، وان تسلم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوما ، وحرم القانون على الاندلسيين الكاتمين انشاد الاغاني القومية وحرم عليهم الخضاب بالحناء ، وحرم عليهم استعمال الاسماء والالقاب العربية ، وغيرها من اوامر التحريم الجائرة والتي اريد منها جميعا تسديد الضربة القاتلة لبقايا الامة الاندلسية وذلك بتجريدها من مقوماتها القومية(٦٦) . ان هذه القوانين والمراسيم أُريد منها اضافة الى ما تقدم التمهيد لاتخاذ قرار التهجير القسري للاندلسيين الكاتمين ، وقد مثلت هذه القوانين غاية الاضطهاد والاستبداد للامة الاندلسية وفي هذا يقول المؤرخ برسكوت Prescott : « من العسير ان يعثر المرء في صفحات التاريخ على مثال اوضح للاضطهاد تعرض له شعب مقهور من ذلك المتمثل في القوانين التي صدرت في تلك الحقبة بحق الاندلسيين »(٦٧).

ان هذه القوانين والمراسيم الجائرة جعلت الاندلسيين الكاتمين يلجأون الى الثورة بعد ان فقدوا الامل بالرجوع عن اجراءاتها الظالمة بحقهم ، فلم يمض عام واحد على قانون ١٥٦٧م وبالتحديد في سنة ١٥٦٨م ، حتى اندلع لهيب الثورة في مختلف ارجاء الاندلس ، وكانت اشدها لهيبا في منطقة البشرات الجبلية المنيعة حيث التف الاندلسيون الكاتمون حول فتى يرجع نسبه الى بني امية امراء وخلفاء الاندلس واسمه الاسباني فرناندو دي كردوبا وڤالور ، ولكنه سرعان ما افصح عن ايمانه واسلامه واتخذ اسما عربيا هو محمد بن امية صاحب الاندلس وغرناطة . كان عدد الثوار يزداد وامكاناتهم تقوى ، ودارت بينهم وبين السلطات الاسبانية سلسلة من المعارك حققوا فيها بعض الانتصارات ، حاولت السلطات الاسبانية استرضائهم باللين واصدرت امرا بالعفو عن جميع الاندلسيين الكاتمين ، الا ان الثوار لم يستجيبوا لانهم

---

(٦٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٥٨ ، ٣٦٠.

(٦٧) بشتاوي ، الاندلسيون الموارכة ، ١٤٩ .

ايقنوا ان الاسبان لا عهد لهم ولا ذمام ، وفي ٢٨ اكتوبر/تشرين اول سنة ١٥٧٠م اصدر فيليب الثاني قرارا بنفي الاندلسيين الكاتمين من سلطنة غرناطة الى داخل البلاد ومصادرة املاكهم العقارية ، ووقعت اثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجال الحكومة في بعض الانحاء ولاسيما في رندة الى نهب المنفيين والفتك بالنساء والاطفال ، كان مصير المنفيين مؤلما اذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض . ان الاساليب التي اتخذتها السلطات الاسبانية والمتمثلة بتجريد الحملات العسكرية المتتالية على الثوار من ناحية ، واتباع اسلوب الخديعة والغدر من ناحية ثانية ، وعدم وصول اية امدادات خارجية اليهم رغم نداءاتهم المتتالية من ناحية ثالثة ، كل ذلك وغيره من الاسباب انتهت ثورة الاندلسيين الكاتمين[٦٨] . وعادوا الى ما كانوا عليه من قهر واضطهاد ينظرون بعيون وجلة مصيرهم المؤلم ونهايتهم الحزنة ، الامر الذي يتضح بجلاء في المبحث اللاحق .

المبحث الثالث :

التهجير القسري للاندلسيين الكاتمين

بعد فشل ثورة الاندلسيين الاولى التي اندلعت في تشرين الثاني سنة ١٤٩٩م ، وصلت اعداد كبيرة من الاندلسيين الى العدوة المغربية ، وفي شهر شباط سنة ١٥٠٢م اصدرت ايزابيلا مرسومها الشهير الذي نص على ان من واجب اهل قشتالة طرد اعداء الدين المسيحي [كذا] من مملكتي قشتالة وليون وانه يتحتم على جميع الاندلسيين في المملكتين ممن لم يتعمدوا بعد ، الرحيل ، فلا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولا انثى عمرها يزيد على الثانية عشرة في قشتالة وليون بعد شهر نيسان من نفس السنة الا اذا تنصروا . لقد اعطى المرسوم مهلة ثلاثة اشهر لكي يختار الاندلسيون بين التنصير او الرحيل ، وفي خلال هذه المدة قررت اعداد كبيرة من الاندلسيين الرحيل ،

(٦٨) للتفاصيل ينظر : عنان : نهاية الاندلس ٣٦٥ ـ ٣٧٦ ؛ حتاملة ، التهجير القسري ، ٢٧ ـ ٨٤ ؛ عبدالواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية الاسلامية في الاندلس بعد سقوط غرناطة ، (بغداد ١٩٨٨) ٤٧ وما بعدها .

فهاجر حوالي ٣٠٠ الف مسلم الى العدوة المغربية وغيرها من الاراضي الاسلامية . اما المسلمون الذين ظلوا في قشتالة وليون فقد وجدوا انفسهم منصّرين لا متنصّرين بصورة آلية بموجب هذا المرسوم[٦٩] . غير ان مسلمي الاندلس وان اجبروا على النصرانية وعلى عدم التكلم باللغة العربية او ارتداء ملابسهم التقليدية او ممارسة اي عادة من عاداتهم العربية الاسلامية ، الا انهم كانوا في الحقيقة يكتمون ايمانهم متمسكون باسلامهم وعروبتهم عدة عقود من الزمن، وهو مايتضح من التقارير التي كان يقدمها المطران ربيرا الى الملك فيليب الثالث والتي جاء فيها : ان الاندلسيين لا يتقبلون البركة ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ ولا يعملون شيئا من الامور التي يعملها النصارى ولا يعرفون العقيدة لانهم لا يريدون معرفتها[٧٠] . لقد طارد الجنود الاسبان احد الاندلسيين في الجبال وقبضوا عليه وعذبوه لانه فضل الماء على الخمر ورفض اكل لحم الخنزير[٧١] ، ويروي لنا المؤلف الاندلسي محمد بن عبدالرفيع المتوفي سنة ١٠٥٢هـ/١٦٥٢م في كتابه الموسوم « الأنوار النبوية في آباء خير البرية » حكايته الشخصية التي تقوم دليلا على كتمان الاندلسيين لأيمانهم وتمسكهم بعروبتهم ، وملخص الحكاية : ان ابن عبد الرفيع كان في السادسة من عمره او اقل من ذلك عندما كان والده يطلعه على مبادىء الاسلام ويعلمه اللغة العربية سراً ، بالرغم من ذهابه الاجباري الى مكاتب النصارى في غرناطة ، ويطلب منه ان يكتم ما تعلمه حتى عن والدته واخيه وعمه وسائر اقاربه في حين كان يختبره سراً وعندما تأكد من اصراره وكتمانه طلب منه ان يفشي الامر لوالدته وعمه وبعض اصدقائه ممن يثق بهم ، كما تحدث ابن عبد الرفيع عن المجالس السرية للمسلمين التي كانت

(٦٩) للتفاصيل ينظر : بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٠١ وما بعدها .
(٧٠) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٥ .
(٧١) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١١٧ .

تعقد في منزلهم وهم يتذاكرون الاسلام وايام المسلمين(٧٢). والمتتبع يلمس تمسك الاندلسيين بأيمانهم في سلسلة القرارات التي اصدرتها السلطات الاسبانية ومظاهر الاضطهاد ولوائح الممنوعات مثل حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال وحظر طلي الايدي بالحناء وحظر ذبح الماشية على الطريقة الاسلامية وحظر التكلم بالعربية وحظر ارتداء الملابس العربية ، وعدم التواني عن اكل الميتة من الحيوانات وغيرها من غرائب المحظورات(٧٣) ، ومن يخالف هذه المحظورات يحال الى محاكم التحقيق وتنسب اليه تهمة اعتناق الاسلام في السر ، فيعرض امواله للمصادرة ويتعرض هو للسجن والتعذيب وفي كثير من الاوقات الى الموت ، ففي سنة ١٥٢٩م شهدت مدينة غرناطة حدثا مروعا حين احرقت اول مجموعة اندلسية من ضحايا هذه المحاكم(٧٤) ، وفي مدينة طليطلة وفي جلسة واحدة من جلسات محاكم التحقيق سيئة الصيت ، صدر الحكم بالاعدام حرقا على ١٢٠٠ مسلم(٧٥) . وعلى الرغم من كل مظاهر الاضطهاد ووسائل القهر المتمثلة بالنفي والمصادرة للاموال وحتى القتل ، فان الاندلسيين ظلوا مؤمنين بعقيدتهم متمسكين بدينهم، الامر الذي كان يرعب الاسبان ويبعث فيهم الخوف والقلق .

ومما زاد في قلق الاسبان وخوفهم تشجيع الاندلسيين للغارات البحرية وتقديمهم العون والمساعدة للمجاهدين المسلمين الذين كانوا يغيرون على السواحل الاسبانية منذ السنوات الاولى التي اعقبت سقوط غرناطة ، لقد كانت هذه الغارات تلحق خسائر فادحة بالاسبان وتبعث الخوف والاضطراب في سكان السواحل والمناطق القريبة ، الامر الذي اجبر الملك فرناندو الخامس

(٧٢) يوجندار ، مقدمة الفتح ، ٢٠٠ وما بعدها ؛ عنان ، نهاية الاندلس ٣٤، ٤٠ وما بعدها .

(٧٣) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ٢١٧ .

(٧٤) ايضا ، ١١٧ .

(٧٥) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٥ .

على ان يصدر في سنة ١٥٠٧م قرارا يقضي باخلاء الشاطىء الجنوبي من جبل طارق الى المرية لمدى فرسخين الى الداخل(٧٦) ، ومع استمرار سياسة التعسف والاضطهاد الاسبانية تواصلت هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي، وصار هؤلاء المهاجرين يشكلون عنصرا مهما في الغارات البحرية ليس فقط بطاقاتهم العددية وانما بالمعلومات العسكرية والارشادية التي كانوا يقدمونها للمجاهدين عموما ، وذلك لان المجاهدين الاندلسيين كانوا يجدون في هذه الغارات ، الفرصة لضرب عدوهم الذي اسقط دولتهم وقتل اهلهم وصادر ممتلكاتهم وشرد من بقي منهم وحرمهم من ابسط حقوقهم ، كما كانوا يجدون في هذه الغارات البحرية فرصة لمساعدة اخوانهم الاندلسيين الباقين في اسبانيا ولاسيما في الهجرة الى دار الاسلام ، فقد نجحت احدى هذه الغارات على السواحل الاسبانية في ان تحمل معها الفين وخمسمائة اندلسي ، وفي سنة ١٥٧٠م استطاعت السفن المغيرة ان تحمل معها جميع الاندلسيين في بالميرا ، وفي سنة ١٥٨٤م سار اسطول من الجزائر الى ثغر بلنسية وحمل معه الفين وثلاثمائة ، وفي العام التالي استطاعت هذه السفن ان تحمل جميع سكان مدينة كالوسا ، وقد بلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية بين سنتي ١٥٢٨م و١٥٨٤م ثلاثا وثلاثين غارة ، عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الاندلسيين المهاجرين(٧٧) .

وقد اخذ نشاط المجاهدين الاندلسيين البحري بالتصاعد مع تصاعد الضغط على الاندلسيين في اسبانيا وصار المجاهدون يسعون لاكتساب الاموال التي تساعدهم على تقوية مركزهم العسكري وتنظيم امور الجهاد في البحر بقصد مهاجمة السواحل الاسبانية ، لهذا بنى الاندلسيون في مدينة الرباط دارا لصناعة السفن وانشأوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن واصلاحها ومعرفة الطرق البحرية ليلا بواسطة حركة النجوم ، وقد

---

(٧٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٨٥ .

(٧٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٨٨ .

كان منهم اساتذة نبهاء مارسوا المهنة وابدوا كفاءة ومقدرة ، ونتيجة لذلك سيطر المهاجرون الاندلسيون على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ونسقوا عملهم مع مراكز الجزائر وليبيا[٧٨] ، ومع حلول عام ١٦٠٠م تعددت الغارات مما اثار القلق الدائم لدى الاسبان ، كما اثار الدهشة لدى اوربا ، حيث عجزت اسبانيا وكانت يومئذ سيدة البحار عن قمع هذه الغارات البحرية شبه الدائمة التي تقوم بها جماعات مجاهدة من المغاربة في سفنهم الصغيرة سريعة الحركة وكان اللوم يلقيه دائما في ذلك على [الاندلسيين] سكان الثغور الاسبانية فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات وبالمؤن والعون ويعينون لها مواعيد وموضع الرسو والاقلاع[٧٩] .

وبعد النفي النهائي للاندلسيين من اسبانيا عام ١٦٠٩م ، تواصلت الغارات البحرية واشتد تأثيرها مع تواصل المشاركة الاندلسية الجادة فيها ، وقد استخدم حكام المغرب الاقصى المهاجرين الاندلسيين في جيوشهم التي كانت تتصدى للمعتدين على السواحل المغربية من الاسبان والبرتغاليين وكذلك في الاغارة على السواحل الاسبانية ، وفي هذا يقول المقري : « ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الان وحصنوا قلعة سلا وبنوا فيها القصور والحمامات والدور »[٨٠] ليس ذلك فحسب بل ان الاندلسيين نجحوا في اقامة دولة لهم في مدينة سلا وبالرغم من صغر مساحتها وقلة عدد سكانها الا انها سجلت انتصارات عسكرية بحرية رائعة على الاسبان وسواحلهم وعلى السفن البحرية التابعة لهم ولغيرهم من الدول الاوربية[٨١] .

---

(٧٨) حسن السائح ، قصة الجالية الاندلسية في المغرب ،ق٢ ، مجلة دعوة الحق العدد (٤) السنة ١٩٨٠ ، ص٥٨ .

(٧٩) جريدة الثورة العراقية ، (نقلا عن اورنيت برس) ، دولة بورقراق ،اعلنت حربها في الاطلسي انتقاما لضياع الاندلس العدد ، ٧٢٥٧ ، في ١٣/٤/١٩٩٠ .

(٨٠) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .

(٨١) للتفاصيل ينظر : جريدة الثورة العراقية، العدد ٧٢٥٧ في ١٣/٤/١٩٩٠ .

وقد تصدى المهاجرون الاندلسيون للمعتدين البرتغاليين الذين هاجموا السواحل المغربية ، وذلك بقيادة البطل الغرناطي ابي الحسن المنظري ، الذي الحق بالبرتغاليين خسائر كبيرة في مدينة سبتة وبلاط الهبط واسر منهم ثلاثة الاف[٨٢] ، وقد تواصلت الحروب بعد ذلك بينه وبين البرتغاليين في المغرب وكان معه دائما ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة اهل غرناطة[٨٣] . ومن الجدير بالذكر ان البرتغاليين لم يكونوا اقل تعسفا واضطهادا للاندلسيين الكاتمين في البرتغال ، ففي سنة ١٤٩٥م اصدر امنويل مالك البرتغال قرارا بالتنصير القسري للمسلمين واليهود في مملكته ، كما باشر البرتغاليون العمل بمحاكم التفتيش [التحقيق] منذ سنة ١٥٣٦م ويبدو ان معظم مسلمي البرتغال رفضوا التنصر ، ومن خلال اشارة اوردها الاخباري البرتغالي دوكوش DeGois ذكر فيها ان ملك البرتغال امنويل سمح لمسلمي البرتغال الذين رفضوا التنصر بمغادرة البلاد خوفا من ان تتخذ الممالك الاسلامية موقفا مماثلا مع النصارى المقيمين بها ولكن هذا الاخباري لم يطلعنا على عدد المهاجرين ولا على البلاد التي التجأوا اليها الا انه ذكر ان الهجرة لم تشمل الجميع[٨٤] . والراجح ان معظم المهاجرين من البرتغال التجأوا الى المغرب العربي لاتصال السواحل البرتغالية بالسواحل المغربية من جهة وللعلاقات الدينية والتاريخية ووشائج الاخوة التي تربط بينهم من جهة ثانية.

وفي العموم فان ثورات الاندلسيين وما رافقها من انتصارات في بداية الامر ، وفشل سياسة التنصير الاجباري ، والغارات البحرية الناجحة على الشواطىء الاسبانية واتصال الاندلسيين بمسلمي المغرب ومصر والدولة

---

(٨٢) الناصري ، الاستقصا ، ٤/١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ وينظر : محمد داود ، تاريخ تطوان ، ١/٩٩ .

(٨٣) الوزان ، وصف افريقيا ، ١/٢٤٧ .

(٨٤) احمد بوشرب ، الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحيتين ، مجلة المناهل ، العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٢ ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

العثمانية لانقاذهم من مأساتهم ، فقد ذكر ان اندلسيي مدينة بلنسية ارسلوا رسلهم في سنة ١٦٠٨م الى مولاي زيدان في المغرب العربي يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها وانهم على استعداد لان يقدموا له مائتي الف مقاتل[٨٥] ، اذا ما تمكن من ارسال عشرين الف مقاتل فقط بغية احتلال بلنسية[٨٦] ، ان تعهد اندلسيي بلنسية بتقديم هذا العدد من المقاتلين مبالغ فيه لان الاندلسيين نساءً ورجالا صغارا وكبارا في مملكة بلنسية يبلغ ١٣٥ الفا في احسن التقديرات[٨٧] ، الا اذا كان القصد من هذا التعهد ترغيب الاخوة في المغرب العربي على اعلان الحرب او ان اندلسيي بلنسية يعنون بذلك تقديم هذا العدد من عموم التجمعات الاندلسية في اسبانيا .

وعلى كل حال ومما تقدم يتضح اسباب قلق السلطات الاسبانية من الاندلسيين ومخاوفها من بقائهم بين ظهرانيهم ، لذا وجدت في حادثة الاستنجاد بالاخوة في المغرب العربي المناسبة لتنفيذ قرارها بتهجيرهم لتشبع بذلك رغبات دفينة تمثلت في الحقد والكراهية لكل ماهو مسلم وعربي ولاسيما من قبل الكنيسة[٨٨] ورجالها الذين كانت كلمتهم مسموعة لدى ملوك اسبانيا ، لذا فقد اقترح اكابر الاحبار على السلطة ان تقضي على الاندلسيين بالرق وان يؤخذ منهم كل عام بضعة الاف للعمل في السفن ومناجم الهند حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الاخر الى وجوب قتلهم دفعة واحدة او قتل البالغين واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، كما اقترح بعض وزراء فيليب الثاني ان يجمع الاندلسيون ويحملوا على السفن ثم يغرقوا في عرض

---

(٨٥) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩١ .

(٨٦) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ .

(٨٧) ينظر ، عبدالواحد ذنون ، حركة المقاومة ، ٧١ .

(٨٨) بهذا الخصوص ينظر : التواتي ، عبدالكريم ، مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس (الدار البيضاء ١٩٧٧) ٥٨٩ — ٦١٣ .

البحر[٨٩] . ان مثل هذه الافكار العدائية لايمكن ان تصدر الا من اناس اعمت بصيرتهم وبصائرهم الكراهية وعدموا الروح الانسانية .

وبعد اجتماعات ومناقشات دامت عدة سنوات للنظر في مصير الاندلسيين استقر الرأي على تهجيرهم . وفي التاسع من نيسان سنة ١٦٠٩م اتخذت حكومة فيليب الثالث قرارها المروع بطرد الاندلسيين[٩٠] ، ومن ابرز نصوص هذا القرار الذي بدأ بما اسماه خيانة الاندلسيين واتصالهم باعداء اسبانيا واخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم وضمان ولائهم ، وذكر القرار ان الرأي استقر على نفيهم جميعا الى المغرب العربي ، واعطى القرار مهلة ثلاثة ايام للرحيل من المدن والقرى الى الثغور يعينها لهم مأمورو الحكومة وجعل الموت عقوبة المخالفين ، وان لهم ان يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم وان السفن قد اعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، ومن نصوص القرار استبقاء ستة في المائة فقط من الاندلسيين للانتفاع بهم،وهؤلاء يختارهم السادة من الاسر الاكثر خبرة واشد ولاء للنصرانية ، وسمح القرار لجميع الاطفال ممن لم يتجاوز اعمارهم الرابعة بالبقاء ، كما سمح لجميع الاطفال ممن هم دون السادسة من العمر بالبقاء اذا كان ابوهم نصرانيا مع السماح لامهم اذا كانت من الاندلسيات الكاتمات بالبقاء معهم ، كما سمح القرار بالبقاء لمن بقي بين النصارى مدة عامين ولم يختلطوا بالجماعة اذا زكاهم القسس ، واخيرا نص القرار على السماح لعشرة من الاندلسيين بالعودة عقب كل نقلة لكي يشرحوا لاخوانهم كيف يتم النقل الى المغرب على احسن حال[٩١] .

لم يبق امام الحكومة الاسبانية الا ان تضع هذا القرار موضع التنفيذ ، وبعد مشاورات تقرر ان يبدأ العمل به في مملكة بلنسية لانها كما قلنا ، تمثل

(٨٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٤ .

(٩٠) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ .

(٩١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٦ – ٣٩٧ ؛ ثم ينظر : شكيب ارسلان ، الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية ج٢ (القاهرة ١٩٩٢) ١٩٧ .

اكبر تجمع للاندلسيين في اسبانيا ولان السلطة كانت تخشى تعبئة قواهم ضدها اذا ما حدث واختارت الحكومة مجموعات اندلسية اخرى لتكون اول المنفين ، ولان السلطة كانت تعتمد في بلنسية على شخصية متنفذة حملت لواء الدعوة لنفي الاندلسيين قبل فترة طويلة من صدور مرسوم النفي ، وهي شخصية خوان دي ريبرة رئيس اساقفة مدينة بلنسية[٩٢] ، يضاف الى ذلك رفض اندلسيي بلنسية للاضطهاد واتصالهم بالاخوة في المغرب العربي وطلب المساعدة منهم في انقاذهم من مأساتهم ، وهو ماعده الاسبان خيانة لهم وذكروه في ديباجة قرار النفي العام للاندلسيين .

وفي شهر ايلول سنة ١٦٠٩م وصلت الى ميناء بلنسية السفن الاسبانية وهي تحمل حوالي ثمانية الاف جندي لتنفيذ القرار ونودي على جميع الاندلسيين في المدينة البقاء في بيوتهم لمدة ثلاثة ايام حتى تصدر اليهم اوامر اخرى[٩٣] ، وعلى الاثر اجتمع زعماء الاندلسيين وفقهاؤهم في بلنسية وقرروا انه لا امل في المقاومة وانه لا مناص من الخضوع واستقر الرأي على ان يرحلوا جميعا والا يبقى منهم احد حتى ولا نسبة الستة في المائة التي سمح ببقائها وان من بقي منهم اعتبر مرتدا مارقا[٩٤] ، ومع ذلك فقد قاوم بعض الاندلسيين القرار وتشبث بالبقاء لاعتبارات سبق ان اشرنا اليها ، الا ان الجميع في نهاية المطاف رضوا بالامر الواقع وآمنوا بأن الهجرة هي افضل من العيش في مكان لا يمكن التكهن بما سينالهم فيه وعندما حاول بعض المسؤولين اقناع اندلسيي بلنسية بالبقاء استغل الاندلسيون هذا الامر وعرضوا الموافقة على البقاء والاستمرار بالعمل في الحقول والمزارع اذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم العربية ودينهم الاسلامي دون اية مضايقات ، وعندما عرض الامر على فيليب الثالث رفضه ، فلم يبق امام الاندلسيين بعد ذلك الا الرحيل[٩٥]

(٩٢) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ / ١٦٦ .
(٩٣) ايضا ، ١٦٧ .
(٩٤) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٧ / ٣٩٨ .
(٩٥) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٧ .

ومما تقدم يتضح اهمية الاندلسيين في الحياة الاقتصادية لاسبانيا ، كمـــا يتضح كتمان الاندلسيين لايمانهم وتمسكهم بعقيدتهم الاسلامية وكيانهـــم العــربي ٠

اخذ الاندلسيون في بلنسية والمناطق الشرقية في بيع ما تيسر بيعه ، فبيعت المواد بابخس الاثمان ، ثم سيق الاندلسيون الى الموانيء فخرجت اول شحنة منهم على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة وقدرت بثمانية وعشرين الفا حملوا الى ثغر وهران وقد كانت يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا الى تلمسان ٠ لقد آثر الكثير من المهاجرين السفر بأجر واضطرت الحكومة تلقـاء ذلك ان تستدعي عددا كبيرا من السفن الحرة الى ميناء بلنسية ورحل بهـذه الطريقة زهاء خمسة عشر الفا وقد رحـل المنفيون من ثغر لقنت على عــزف الموسيقى ونشيد الاغاني وهم يشكرون الله على العــودة الى ارض الابـــاء والاجداد ، ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، اجاب بانهم كثيرا ما سعوا الى شراء قارب او سرقته للفرار به الى المغرب مستهدفين لكثير مـن المخاطر فكيف اذا عرضت لنا فرصة السفر الامين مجانا الم ننتهزها للعود الـى ارض الاجداد[٩٦] ، ان اجابة هذا الفقيه تتماشى مع موقف الشريعة التي تلزم المسلمين بالهجرة الى دار الاسلام عندما يجد المسلم صعوبة في اداء شعائـره الدينية ، وتؤكد الحقيقة التي بيناها وهي ان الاندلسيين وان اجبروا علـى التنصر الا" انهم كانوا يكتمون ايمانهم بالاسلام ٠ وان ما حدث في مينـــاء لقنت من اغتباط ليس حالة خاصة وانما هو تعبير عن الحالة العامة للاندلسيين كافة في اسبانيا لانهم وجدوا في قرار النفي الخلاص مـن معاناتهم وعـــودة صريحة الى دينهم وعروبتهم ٠

وبينما كانت السفن تنقل المنفيين الى الساحل المغربي وتعود لتنقل دفعة اخرى ، كانت السلطات تعـد الترتيبات لنفي باقـي الاندلسيين في اراغـون

---

(٩٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٨ ٠

وقطالونيا ومرسية وقشتالة وغرناطة وغيرها من الاماكن . وبعد نفي الاندلسيين من اماكن تجمعهم الرئيسة انتقلت لجمع الاندلسيين من التجمعات الاقل ، تمهيدا لنفيهم ولكن العملية لم تكن سهلة اذ استمرت عدة سنوات ، في بادىء الامر تم تجميع الاندلسيين في ثمانية مراكز هي : بلنسية وارغون وقشتالة واندلوثيا ومرسية وبرغش وقطالونيا وغرناطة . من هذه المراكز شرعت السلطات المكلفة بعملية الترحيل في توزيع الاندلسيين على ثلاث عشرة نقطة تسفير في مختلف السواحل الاسبانية وهي : دانية ولقنت وقرطاجنة وجفية وساقونية ومنقوفة وابن العروس والافاق ومالقة واشبيلية وسوميرت ورنشفالة وأيرون . وقد نُقل الاندلسيون الى عدة جهات الا ان الغالبية الساحقة منهم نقلت الى بلدان المغرب العربي ، الى سبتة وتطوان وتونس وطنجة واغادير ووهران واروز وغيرها . في حين نقل بعضهم الى جزر الكناري (الجزر الخضراء) والبعض الاخر الى ايطاليا ، اما اندلسيو الشمال فقد رحلوا الى باب الشتري ومدينة برغش ومنهما الى ايرون ومن ايرون انتقل الاندلسيون على محورين : الاول الى المغرب العربي والثاني الى مدينة اورتيز الفرنسية[٩٧] . حيث سمح ملك فرنسا للاندلسيين بالاقامة في بلاده شريطة ان ينضموا الى الديانة الكاثوليكية البابوية الرومانية ، الا ان الاندلسيين رفضوا هذا الشرط فقررت السلطة الفرنسية طردهم من بلادها[٩٨] ، وقد تعرض الاندلسيون اثناء وجودهم في فرنسا الى الاضطهاد والاعتداء على ارواحهم وممتلكاتهم مما دفع بالسلطان العثماني [السلطان احمد] الى ارسال احتجاج الى الحكومة الفرنسية يطالب فيه حماية الاندلسيين من الاذى[٩٩] .

---

(٩٧) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٨ ـ ١٧٠ ؛ ثم ينظر ، خليل ابراهيم السامرائي واخرين ، تاريخ المغرب العربي ، (الموصل ١٩٨٨) ٣٥٦ـ٣٥٨

(٩٨) كاردياك ، لوي ، الموريسكيون والبروتستانت ، تعريب : د. عبدالجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٧ ـ ٢٨ لسنة ١٩٨٢ تونس ، ص ٢٩٧ .

(٩٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠١ .

وقد وصلت جماعات من الاندلسيين المنفيين الى اماكن اخرى مثل القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام[١٠٠] .

والمتتبع يلاحظ عدة امور ارتبطت بعملية نفي الاندلسيين وهي :

١ — خلال عملية النفي وما رافقها من قساوة شعر الاندلسيون بالمرارة لانهم تركوا اراضيهم واراضي اجدادهم التي عاشوا فيها ما يزيد على تسعة قرون من الزمن وارتبطت بها ذكرياتهم وبنوا فيها حضارتهم ومجدهم الغابر .

٢ — رافق الشعور بالمرارة الشعور بالخلاص ، لان الاندلسيين اصبحوا احرارا في المغرب العربي وعادوا الى الاسلام واخذوا يمارسون عباداتهم وعاداتهم دونما رقيب او عقوبات .

٣ — تمت عملية النفي بقساوة ووحشية وتعرض الاندلسيون المنفيون الى مهاجمة العصابات الاسبانية التي نهبتهم مرة وقتلتهم مرات اخرى ، في حين مات الكثير من المنفيين بسبب المرض او الجوع او البرد ، كما قام الجنود الاسبان ايضاً بسبي النساء والاطفال وباعوهم رقيقا[١٠١] . وقد وصفت عملية النفي عامة بانها من اكثر القصص المؤلمة في التاريخ ، بل من العسير العثور على نظيرها في احداث العصور الوسطى او الحديثة ، وانها من اشنع الافعال واكثرها بربرية في تاريخ البشرية[١٠٢] .

٤ — ان الغالبية الساحقة من الاندلسيين المنفيين ابعدوا الى المغرب العربي وفي هذا يقول المقري : « فخرجت الوف بفاس والوف أُخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس»[١٠٣] ، هذا فضلا عن ان قسما غير قليل ممن هُجروا الى اماكن اخرى التمسوا شتى السبل للالتحاق بالاخوة في

(١٠٠) المقري ، نفح الطيب ، ٤/ ٥٢٨ .

(١٠١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٠ ؛ محمد عبدالله عثمان ، تستور بلد الموريسكيين ، مجلة العربي ، العدد ١٥٦ ، ص ١٣٩ .

(١٠٢) طه ، حركة المقاومة ، ٧٥ .

(١٠٣) نفح الطيب ، ٤/٥٢٨ .

المغرب العربي ، في حين وجد قسم من المنفيين ضالتهم في اماكن اخرى من دار الاسلام مثل مصر والشام والقسطنطينية .

٥ ـ ان تنفيذ قرار التهجير لم يجر دائما في يسر وسهولة ، حيث رفض بعض الاندلسيين من سكان المناطق الجبلية الانصياع لاوامر الحكومة لانعدام الثقة بها ، وفضلوا المقاومة فتصدت لهم قوات الحكومة وقتلت منهم بضعة الاف واستسلم الباقون وحملوا قسرا الى ميناء السفر ورحلوا الى شواطئ المغرب[١٠٤] .

٦ ـ استغرقت عمليات التهجير حوالى سبع سنوات فهي لم تنته حتى سنة ١٦١٥[١٠٥] ، مما يؤكد شمولية القرار لعموم الاراضي الاسبانية من جهة ، وجسامة عدد الاندلسيين المهجرين من جهة اخرى .

٧ ـ لم يمض وقت طويل على تهجير الاندلسيين حتى احس الاسبان بالخسارة بسبب الفراغ الذي تركوه في الميدان الاقتصادي عموما والزراعي منه على وجه الخصوص ، حيث انخفض الانتاج الزراعي وخربت الاراضي ، كما ادى تهجير الاندلسيين الى انخفاض عدد السكان وتضاءلت موارد الخزينة لانها خسرت الضرائب الباهظة المفروضة على الاندلسيين ، وفي العموم فان تهجيرهم حرم اسبانيا ثروات عقلية وفنية في مختلف ميادين الحياة[١٠٦] .

٨ ـ وجد الاندلسيون المهجرون في المغرب العربي العطف والترحاب ، ومد اليهم يد العون والمساعدة لاسيما في تونس حيث استقر جمهورهم وقد « اوسع لهم عثمان داي [حاكم تونس] في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا عدة اماكن ، ومن بلدانهم المشهورة سليمان

---

(١٠٤) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٠ .
(١٠٥) بشتاوي ، الاندلسيون المراركة ، ١٧٠ .
(١٠٦) بهذا الخصوص ينظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ٤١١ ـ ٤٣٢ ؛ بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٧٥ ـ ١٨٠ .

وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزاغون وطبرية وقريش ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من اعظم بلدانهم واحضرها والعالية والقلعة وغير ذلك ، بحيث تكون عدتها ازيد من عشرين بلدا ، فصارت لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من اهل البلاد»(١٠٧) وعن الترحيب يقول ابن ابي الضياف : « وفي سنة ستة عشر والف(١٠٨) قدمت وفود من الاندلس فارين بدينهم ، لما أخذت بلادهم فاحسن عثمان داي قِراهم واكرم مثواهم وأنّس غربتهم وعظم مقدمهم وحث اهل الحاضرة على اكرامهم وآخى بينهم وبين اهل مملكته واقطعهم ما اختاروا من الارض وكان ذلك اثر الطاعون — فبنوا بالحاضرة حومة الاندلس وجامعها واوقفوا عليه اوقافا نافعة ، وبنوا المدرسة الاندلسية قرب سيدي يونس شيخ سيدي محرز وتمت سنة اربع وثلاثين والف ، واول مدرس بها الشيخ شعبان الاندلسي من اعيان علمائهم واوقفوا عليها الاوقاف » وبعد ان يذكر مدنهم وما غرسوا من الغروس وما مهدوا من الطرق يقول ابن ابي الضياف : « واعانهم عثمان داي على صناعة الشاشية التي كان لها سوق نافع في كثير من البلدان ، وقد كانت ضعيفة زمن الحفصيين ، وحصل للحاضرة من هذه الصناعة ثروة واسعة لان صناعتها تدير صناعات كثيرة ، ونظم شيخ الاندلس في سالك اعيان المملكة»(١٠٩) وقد اكدت الوثائق والدراسات

(١٠٧) ابن ابي دينار ، ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام (تونس ١٩٦٧)٢٠٤

(١٠٨) يختلف المؤرخون المسلمون في تحديد السنة التي خرج فيها الاندلسيون بين سنة ١٠١٦هـ وسنة ١٠١٧هـ وسنة ١٠١٩هـ ، ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ ؛ ابن ابي دينار ، المؤنس ، ٢٠٤ ، الباجي المسعودي ، ابو عبدالله الشيخ محمد ، الخلاصة النقية في امراء افريقية (تونس ١٣٢٣هـ) ٩١ .

(١٠٩) ابن ابي الضياف ، احمد ، اتحاف الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق : لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار ، ج٢ (تونس ١٩٦٣) ٣٠ — ٣١ .

الحديثة صحة هذه المعلومات ، وبينت المكانة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للاندلسيين في تونس(١١٠) .

لم يقتصر الترحيب بالاندلسيين في تونس فقط بل نجده في كل ارجاء المغرب العربي ولاسيما المناطق الساحلية حيث استقروا ومارسوا حياتهم الاعتيادية واغنوا الحياة المغربية بروافد وخبرات جديدة وتركوا بصماتهم في الميادين العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعمرانية وغيرها(١١١) .

٩ ــ لايوجد اتفاق بين المؤرخين حول عدد الاندلسيين المهجرين او الذين هاجروا من اسبانيا منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ هـ وحتى سنة ١٦١٥ هـ ، وقد تراوحت التقديرات التي اوردها المؤرخون الاسبان والرحالة الاجانب الذين زاروا اسبانيا بعد استكمال عمليات النفي والتهجير بين مئات الالاف وبضعة ملايين(١١٢) . ان هذا الاختلاف الكبير في التقديرات دليل على عدم دقة الارقام وعدم توفر الاحصاءات الاكيدة والصحيحة للمهاجرين او المهجرين .

اما الرواية العربية الاسلامية ، وان كانت مقلة ، الا انها ذكرت بعض الارقام عن عدد المهجرين الاندلسيين ، فقد ذكر المقري الذي عاصر الاحداث ، ان الوفاً منهم خرجت بفاس والوف اخرى بتلمسان وجمهورهم خرج

(١١٠) للتفاصيل ينظر : الحلاوي ، محيي الدين بن علي ونور الدين ، وثيقة عن النزاع القائم بين احباس الاندلسيين بمجاز الباب ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٠ ــ ١١ ، السنة ١٩٧٨ ، تونس ، ص٧٩ ــ ٨٢ ؛ د. ميكال دي ايبلترا ، وثائق جديدة حول الاندلسيين بتونس في اوائل القرن الثامن عشر ، تلخيص وتعريب : نور الدين الحلاوي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٧ ــ ١٨ السنة ١٩٨٠ ، تونس ، ص١٣٧ ــ ١٤٠ .

(١١١) عن اثر الهاجرين في المغرب العربي ينظر : السامرائي ، خليل ابراهيم واخرين ، تاريخ المغرب العربي ، ٣٦١ ــ ٣٧٨ .

(١١٢) للتفاصيل ينظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٢ ؛ بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٧١ .

بتونس[113] ، في حين قدر محمد بن عبدالرفيع مؤلف كتاب (الانوار النبوية في آباء خير البرية) وهو من الاندلسيين الذين هاجروا الى تونس قبل عملية التهجير القسري بقليل ، عدد الاندلسيين المهجرين بما ينيف على ستمائة الف نسمة كبيرا وصغيرا[114] . وعلى هذا فان الرواية العربية الاسلامية تقدر الاندلسيين المهجرين بالالاف وليس بالملايين ، كما تقدرهم بعض الروايات الاجنبية ، وان ارقام الرواية العربية الاسلامية هي الاقرب الى الصحة بسبب معايشتها للاحداث وقياسا بالاماكن التي استوطنها الاندلسيون في المغرب العربي والمدن والقرى التي بنوها هنالك . واذا ما اضفنا الى هذه الارقام التي ذكرتها الرواية العربية عن اعداد المهجرين ، الارقام التي ذكرتها تقس الرواية عن الذين هاجروا طوعا منذ سقوط غرناطة وحتى انتهاء عمليات النفي ايام الملك فيليب الثالث فانها ولاشك سوف تتضاعف مما يؤكد ضخامة الاعداد التي هاجرت الى المغرب العربي ، وحجم المأساة التي تعرض لها الاندلسيون .

١٠ ــ واخيرا فان هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي ، ادى الى حدوث ظاهرتين اساسيتين ، الاولى : مساهمة الاندلسيين الجادة في النهوض الحضاري الذي اصاب بلدان المغرب العربي في مختلف ميادين الحياة، لان الاندلسيين نقلوا معهم خبراتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقاموا بتوظيفها في موطنهم الجديد . والثانية : هي تنشيطهم لحركة الجهاد البحري ضد الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا يغيرون على السواحل المغربية ويلحقون باهلها الاذى ، وقد كان لجهاد الاندلسيين وحماسهم في هذا المجال دوره الفاعل في الحد من هذه الهجمات وفي احباط الكثير منها ، فضلا عن مساهمتهم في الهجوم على السواحل الاسبانية كما بينا .

ان هاتين الظاهرتين لازالتا بحاجة الى دراسات جادة آمل ان يجد فيها الباحثون مجالا خصباً للبحث والتمحيص والله الموفق .

(١١٣) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .

(١١٤) ينظر : بوجندار ، مقدمة الفتح ، ٢١٤ ؛ عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٧ .

قائمـــة المصـادر والمراجـع

- القــرآن الكــريم
- ابن الايار ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله
  الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) .
- ارسـلان ، شـكيب
  الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية (القاهرة ١٩٦٤) .
- الباجي المسعودي ، ابو عبدالله الشيخ محمد
  الخلاصة النقية في امراء افريقية (تونس ١٣٢٣هـ)
- بوجندار ، ابو عبدالله محمد
  مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٩٨٠)
- بوشرب ، احمـد
  الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتفال وموقفها من الثقافة والعقيـدة المسيحيتين ، مجلة المناهل ، العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٢ (المغرب)
- بشـتاوي ، عادل سعيد
  الاندلسيون المواركة ، دراسـة في تاريخ الاندلسـيين بعد سقوط غرناطة (دمشق ١٩٨٥) .
- التوانـي ، عبدالكريم
  مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس (الدار البيضاء ١٩٧٧) .
- جريدة الثورة العراقية (نقلا عن اورينت برس)
  دولة بورقراق ، أعلنت حربها في الاطلسي انتقاماً لضياع الاندلس العدد ٧٢٥٧ ، في ١٣ / ٤ / ١٩٩٠ .
- حتاملة ، محمد عبدة
  التهجـير القسـري لمسلمـي الاندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧ ـ ١٥٩٨م (عمان ١٩٨٢)
- حتاملة ، محمد عبده
  محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة (عمان ١٩٧٧)

- **الحجي ، عبدالرحمن علي**
التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (بيروت ، دمشق ١٩٧٦)

- **الحجي ، عبدالرحمن علي**
محاكم التفتيش الاسبانية وسراديب الموت فيها ، المناهل ، العدد ٣١ لسنة ١٩٨٤ (المغرب)

- **الحميري ، محمد بن عبدالمنعم**
الروض المطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس (بيروت ١٩٨٤)

- **الحلاوي ، محيي الدين بن علي ونور الدين**
وثيقة عن النزاع القائم بين احباس الاندلسيين بمجاز الباب ، المجلة التاريخية المغربية العدد ١٠-١١ لسنة ١٩٧٨ (تونس)

- **داود ، محمد**
تاريخ تطوان (تطوان ١٩٥٩)

- **دي ايبلزا ، ميكال**
وثائق جديدة حول الاندلسيين بتونس في اوائل القرن الثامن عشر ، تلخيص وتعريب : نور الدين الحلاوي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٧-١٨ لسنة ١٩٨٠ (تونس)

- **ابن ابي دينار ، ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني**
المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق : محمد شمام (تونس ١٩٦٧)

- **رينو ، جوزيف**
الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، تعريب وتعليق : اسماعيل العربي (الجزائر ١٩٨٤)

- **السامرائي خليل ابراهيم (واخرين)**
تاريخ المغرب العربي (الموصل ١٩٨٨)

- **ابن ابي الضياف ، احمد**
اتحاف الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق : لجنة من كتابه الدولة للشؤون الثقافية والاخبار (تونس ١٩٦٣) .

- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير
جامع البيان عن تأويل اي القرآن (القاهرة ١٩٥٤)

- طـه ، عبدالواحد ذنون
حركة المقاومة العربية الاسلامية بالاندلس بعد سقوط غرناطة (بغداد ١٩٨٨)

- طـه ، عبدالواحد ذنون
الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (بغداد ١٩٨٢)

- ابن عبدالملك الانصاري ، أبو عبدالله محمد بن محمد
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق : محمد بن شريفة السفر الاول (بيروت ، د.ت)

- ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي
البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال (بيروت ١٩٦٧)

- ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي
البيان الموحدي ، تحقيق : اميروسي هويس ميراندة ومشاركة : محمد بن تاديت الطنجي ومحمد بن ابراهيم الكتاني (تطوان ١٩٦٠)

- عنان ، محمد عبدالله
تستور بلد الموريسكيين ، مجلة العربي ، العدد ١٥٦ (الكويت)
دول الطوائف ، منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (القاهرة ١٩٦٠)
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس (القاهرة ١٩٦٤)
نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة ١٩٦٦)

- ابن القوطية ، ابو بكر محمد
تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق : عبدالله انيس الطباع (بيروت ١٩٥٧)

- كارديال ، لوي
الموريسكيون والبروتستانت ، تعريب : عبدالجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية العدد ٢٧-٢٨ لسنة ١٩٨٢ (تونس)

- **الكبيسي ، خليل ابراهيم**

دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالاندلس في عصري الامارة والخلافة ، رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة بغداد ، ١٩٨٠.

- **مجهـــول**

نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، أو تسليم غرناطة ونـــزوح الاندلسيين الى المغرب ، تحقيق : الفريد البستاني (العرائش ١٩٤٠)

- **المقري ، احمد بن محمد**

ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا واخـرين (القاهرة ١٩٣٩)

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الديـــن بن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، (بيروت ١٩٦٨)

- **الناصري ، ابو العباس احمد بن خالد**

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق : جعفر الناصـــري ومحمد الناصري (الدار البيضاء ١٩٥٥)

- **الوزان ، الحسن بن محمد**

وصف افريقيا ،ترجمة : محمد حجي ومحمد الاخضر (الرباط ١٩٨٠)

- **الونشريسي ، احمد بن يحيى**

المعيار المعـرب والجامع المغرب عـن فتاوي علماء افريقيا والاندلس والمغـرب ، خرجـه جماعـة مـن الفقهـاء باشراف : محمد حجـي (بيروت ١٩٨١)

بعض من مجادلات الفكر الاستراتيجي حول مركز الاستقطاب الصيني

الدكتور عبدالقادر محمد فهمي
كلية العلوم السياسية/جامعة بغداد

المقدمة :

يدور جدل بين المعنيين بالفكر الاستراتيجي وشؤون السياسة الدولية حول امكانية تحول الصين الى مركز للاستقطاب الدولي ، الامر الذي يقود الى ان تصبح القوة المنافسة للولايات المتحدة الامريكية مما يفقدها ميزة الانفراد كقوة عظمى في الوضع الدولي ، وبالتالي فأن الصين ومن وجهة نظر هذا الفريق يمكن ان ترقى الى المكانة التي تؤهلها لان تكون القوة الدولية المنافسة للولايات المتحدة الامريكية .

وهناك فريق آخر يجادل في القيود التي ترد على قدرات الصين لان تكون مركزا للاستقطاب الدولي ، ذلك ان دولة الاستقطاب على الصعيد الدولي يفترض ان يتوفر فيها من الشروط مما يجعلها مؤهلة لان تشغل هذه المكانة ، والصين ، وبفعل عوامل عدة لا تملك مثل هذه المقومات .

وفي الواقع ، فان ترجيح كفة اي من الفريقين في جدلهم الدائر يفرض علينا التثبت من جملة اشتراطات ، فدولة الاستقطاب يفترض فيها توفر مقاييس التفوق التكنولوجي والقوة الاقتصادية والعسكرية والامتداد الجغرافي والايديولوجي والكثافة البشرية ، واذا كان بحوزة الصين بعض من هذه المقومات فأنها تواجه عقبات في تأمين مستلزمات القطب الدولي الفاعل والمؤثر عالميا سواء أكان ذلك على مستوى بناءها العقائدي ام على مستوى اهتماماتها

الامنية او على مستوى الدور الـذي يمكن ان تلعبه قوتها العسكرية على الصعيد العالمي ، وهذا الاتجاه في الرأي هو الذي تتبناه وسنحاول التثبت من صحته والبرهنة عليه من خلال مناقشة اربعة جدليات اساسية ، الاولى تتعلق بالمتغير الايديولوجي ، والثانية تناقش حدود الاهتمامات الامنية ، والجدلية الثالثة ستركز على طبيعة القوة العسكرية والدور المناط بها على الصعيدين الاقليمي والدولي ، اما الجدلية الرابعة فانها ستكون بمثابة الخيار الاكثر ترجيحا للقيادات الصينية في عالم اخذت تتراجع فيه الطبيعة المؤثرة لقوة الايديولوجية وينحسر فيه دور القوة العسكرية لتتشكل ملامحه وفق معطيات جديدة قوامها القوة الاقتصادية وتنافس التكتلات الاقتصادية العالمية .

الجدلية الاولى : تراجع دور المتغير الايديولوجي

شهدت المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية بداية عملية الاستقطاب الدولي في اعنف صورها ، وترتب على هذا الاستقطاب ان اصبح المجتمع الدولي مقسما تقريبا في نطاق كتلتين توفرت لكل منهما امكانات هائلة من القوة ، وتعتنق الدول المنضمة اليها ايديولوجية واحدة تمثل الاساس الذي يرتفع فوقه تصورها لطبيعة دورها ازاء التحديات التي تتعرض لها من الكتلة التي تتصارع معها كما قامت كل من الكتلتين على انتهاج استراتيجية دولية تحدد مضمونها وهدفها من واقع المصالح المشتركة للدول التي تشارك في مسؤولية تنفيذها .

وقد قام تركيب هاتين الكتلتين على وجود قوة متفوقة في مركز التحكم والسيطرة (دولة استقطاب) تتبعها مجموعة من القوى او الدول الاقل قوة ، وتتمتع هذه القوة المسيطرة بسلطة شبه مطلقة في تقرير كافة الاوضاع المتعلقة بهذه الاستراتيجية في ضوء الايديولوجية التي تؤمن بها ، حتى وصف هذا العصر بانه عصر الايديولوجيات المتصارعة ، فقد كان من بين اقوى الاسباب التي غذت صراع القوتين العظميين ووضعت كل منهما في حالة من التأهب

والمواجهة ، ووصلت بسباق التسلح بينهما الى درجة عالية من الخطورة ، هـو تعاظم دور الايدلوجية في تعميق مجريات هذا الصراع حتى ذهب العديد الـى تصوير الحرب الباردة على انها كانت صراعا عقائديا بحتا ، وان كل ما يحدث في الساحة الدولية لم يكـن اكثر من رد فعل او نتـاج تلقائي لهـذا الصراع العقائدي ، بل ان هناك من كان ينظر الى صراع الايديولوجيات في هذه الفترة على انه كان حربا متعصبة ومن نوع جديد[1] .

لقد اتخذت الايديولوجيات الماركسية والرأسمالية من مخاطبة الـرأي العام العالمي هدفا لها ، وامتدت جاذبيتها الى الكثير من الشعوب والمجتمعات ، وهذا يبين كيف ان صراعات المعتقدات والافكار اصبحت في عالم ما بعد الحرب بمثابة احدى القوى الرئيسية الحاكمة في سلوك الدول ، ومن ناحية ثانية فان جانبا كبيرا من تصرفات هذه الدول بات يبرر في اطار عقائدي محض لكـي يكتسب شيئا من الشرعية والقبول الدولي لها .

وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه الايديولوجيات اصبحت اداة الاستراتيجية غير المباشرة التي تنتهجها بعض القوى العظمى في المجتمع الدولي ، وتحولـت الى وسيلة فعالة من وسائل حرب الدعايات الموجهة وعمليات التشهير السياسي والتحريض ضد الانظمة الحاكمة .

ورغم ما طرأ على العلاقات الامريكية ـ السوفيتية من مظاهر تكييـف ومرونة واضحة[2] بقي المتغير الايديولوجي حاضرا في العديد من السياسـات والمواقف الدولية ، كما كان له تأثيرا على السياسات الخارجية ، هذا فضلا عن بقائه معيارا للتميز بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي .

الا ان انهيار الاتحاد السوفيتي احدث تداعيات مماثلة على مستوى البناء الايديولوجي للعقيدة الماركسية ، فقد وصفت المرحلة التاريخية التي اعقبـت انهياره بانها مرحلة انهيار للايديولوجية الماركسية ذاتها ، ولم يلوح في الافـق

ما يمكن التعويل عليه باعتباره يمثل القوة القادرة على ان تملي فراغه الايديولوجي ، حتى الصين التي اعتقد البعض ان بامكانها ان تكون القوة المرشحة لان تلعب دور البديل ، فان فرص اختبارها اثبتت عدم فاعليتها في هذا الميدان ، ومرد ذلك جملة عوامل منها ، ان الصين لا تمثل دولة استقطاب ايديولوجي ، وبالتالي فهي لا تملك مقومات الانتشار العقائدي او القدرة على ادامة صراع ايديولوجي تشكل دول العالم الثالث ساحاته الرئيسية .

ان دولة الاستقطاب الايديولوجي يفترض ان يتوفر لديها بناء فكري وفلسفي متماسك سواء اكان ذلك على مستوى مكانتها كدولة قائدة ، ام على مستوى القوى والاطراف المساندة لها والمؤمنة بايديولوجيتها ، ولا يبدو ان الصين تمثل الدولة الايديولوجية القائدة والمرشحة لان تلعب الدور نفسه وان تندفع بنفس الدرجة من القوة العقائدية والزخم الثوري لنشر ايديولوجيتها كما كان عليه حال الاتحاد السوفيتي .

وبسبب من عدم توفر هذه الخاصية ، فان الصين تفتقر الى الولاءات العقائدية والانتشار الايديولوجي في مناطق عديدة من العالم ، ومما اضعف من قدرة الصين على الانتشار العقائدي ، ضعف اساليبها الثقافية ومحدودية ادواتها الدعائية المؤثرة والتي كان السوفيت يتميزون باستخدامها وتوظيفها ، يضاف الى ذلك ضعف قدرة الصين على تأمين الدعم العسكري وتوظيف الادوات الاقتصادية والمالية في مجال الترغيب والترهيب ، كما كان يفعله السوفيت في مناطق عديدة من اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية(٣) .

فضلا عن ما تقدم فان البيئة الدولية والجمهور الدولي المخاطب لم يعد كل منهما مهيئا لتقبل الافكار الدعائية والعودة لاجواء الحرب الباردة ، فالقضية المثارة الان لا تكمن في الكيفية التي يمكن لاحد النظامين او الفلسفتين ان ينتصر احدهما على الاخر بعد ان زال الاتحاد السوفيتي وبعد ان اخذ الشك يطعن بمصداقية القدرة على بناء مجتمعات شيوعية وصولا الى عالم

المثالية وفق قياسات النظرية الماركسية التي عجزت عن تأمين متطلبات الانتقال الى الحالة التي حاولت ان تبرهن فيها على صحة الافتراضات التي انطلقت منها .. ان ما هو مثار اليوم هو فاعلية القوة الاقتصادية وشروط التنافس والنمو الاقتصادي وسيادة فلسفة اقتصاد السوق بهدف تأمين بيئة دولية خالية من الضغوط والتحديات التي تفرضها المعطيات الايديولوجية بكل ما تفرضه من شروط الصراع وعوامل الاستقرار .

الجدلية الثانية : حدود الاهتمامات الامنية

السمة التي تميزت بها سياسات الصين الامنية ، انها كانت وما تزال تميل الى ان تكون اقليمية الابعاد اكثر من ان يحكمها اطار عالمي ، اذ لا يبدو ان الصين قد طورت عقيدة امنية بمواصفات عالمية ، كما كانت عليه العقيدة الامنية السوفيتية ، التي كانت ترى ان اي تحرك امريكي وفي اي منطقة من العالم يمكن ان يشكل تهديدا امنيا لاستراتيجيتها الكونية ، ولعل سبب ذلك يعود الى جملة عوامل ، يأتي في مقدمتها طبيعة المبدأ الذي حكم العلاقات السوفيتية ـ الامريكية ، والذي يذهب الى ان الخلل الذي يصيب العلاقة القائمة بينهما يطرح امكانية اختلال التوازن بمعناه الشامل ، لذا لم يدع السوفيت ان يحقق الامريكان انتصارات استراتيجية في مناطق مختلفة من العالم باعتبار ان ذلك يعد مكسبا لغير صالحهم(٤) ، والعكس صحيح بالنسبة للنظرة الامريكية في تفسيرها للتحركات السوفيتية .

وبحكم هذا المبدأ بقيت علاقات القوى متوازنة ومستقرة نسبيا في اطار توجهات السياسة الامنية لكل من القوتين العظميين .

من ناحية اخرى ، اعتمد منطق التفكير الصيني على نوع من الفصل بين المناطق الاكثر اقترابا من حدود الصين الوطنية وتلك التي تتميز ببعدها الجغرافي من حيث دلالاتها المرتبطة بمفاهيم الامن الوطني ومدركاته .. فواقع الصين الاقليمي يضم مجموعة قوى حتمت على الصين ان توجه الانتباه اليها نظرا

لاقترابها الشديد من حدودها الوطنية ، فقبل زوال الاتحاد السوفيتي ، تــوزع الجهد السياسي والاستراتيجي الامني للصين على ســاحة متعددة الجبهــات ، فمن ناحية ، كان على الصين ان تؤمن متطلبات سياسة دفاعية تكون قادرة على مواجهة الضغوط السياسية والعسكرية السوفيتية ، وان تطور سياسات ردع نووية تعادل بها الرادع النووي السوفيتي ، وكانت هناك ايضا جبهة الهند المدعمة سياسيا وعسكريا من قبل الاتحاد السوفيتي بهدف مشــاغلة الصــين وتشتيت جهدها العسكري .

هذه الاوضاع فرضت على الصين ان تحصر اهتماماتها بالمناطق القريبــة من حدودهــا الوطنية وان تطور سياســات وبرامــج عمــل تؤمن القــدرة على مجابهتها .

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي بقيت اهتمامات الصين الامنية محكومــة في اطار بيئتها الاقليمية ،فالمشاكل التي تثيرها لاوس وكمبوديا وروسيا وتايوان وهونغ كونغ والكوريتين والهند تبدو من وجهة نظر القادة الصينيين اكثر الحاحا من تلك التي تثيرها الاوضاع والسياسات في مناطق اخرى من العالم . فالقادة الصينيون لا يجدون في القارة الاوربية مثــلا ، ما يمكن ان يثــير هاجســهم الامني ، وبالدرجة نفسها التي كانت تثيرها لدى السوفيت ، حيث كانت القارة الاوربية بجناحيها الشرقي والغربي موضع اهتمام امني لكل من الســـوفيت والامريكان على حد سواء . وما يقال عن اوربا يمكن ان ينسحب على مناطــق اخرى في اسيا وافريقيا وامريكــا اللاتينيــة حيث لا يوجد للصين ما يمكن ان يثير اهتماماتها الامنية فيها نظرا لابتعادها عن حدودها الوطنية . بعبارة اخرى، لا يوجد للصين حضور واضح واسهامات مباشرة ، مثلما كان للسوفيت في مجال الدعم العسكري والمساعدات المالية والمساندة المعنوية لاطراف اقليمية يمكن ان تعتبرها امتدادات استراتيجية ــ امنية لنفوذها في مناطق ثالثة .

وخلافا لما كانت عليه الرؤية الامنية السوفيتية ، لا ترى الصين في القواعد العسكرية الامريكية في تركيا او في الوجود العسكري البحري الامريكي المكثف في منطقة الخليج العربي ما يمكن ان يثير قلقها الامني وبالدرجة نفسها التي كان ينظر بها القادة السوفيت سابقا ، حيث كانوا يعدون ذلك مصدرا لتهديد الخاصرة الجنوبية للاتحاد السوفيتي .

وعلى مستوى الصراع العربي ـ اسرائيلي يمكن ان نلاحظ ايضا ، انه في الوقت الذي كان فيه السوفيت يعتبرون انفسهم طرفا دوليا مباشرا في اية تسوية محتملة ، وان لهم تصورات ووجهات نظر لما ينبغي ان يكون عليه السلام في المنطقة ، فأن دور الصين لم يكن بالدرجة نفسها من الفاعلية والحضور وكان محددا وهامشيا في اطار الاعراب عن الاستياء اعلاميا ودبلوماسيا ، وهو بكل الاحوال لم يصل الى حد تورطها او اثارتها واستنفار طاقاتها وادواتها السياسية والعسكرية .

وعلى هذا تحددت اولويات استراتيجية الصين الامنية بجملة اعتبارات منها :

١ ـ التوحيد السلمي لاراضي الوطن الام ، وقد اعتبرت القيادة الصينية ان تحقيق هذا الهدف يمثل التزاما ثابتا لا يمكن الحياد عنه[٥] . وهذا يعني امران ، الاول ، التأكيد على الامن الوطني الصيني وبكل ما يرتبط به على الصعيد الاقليمي . والثاني ، تحقيق الامن الوطني الصيني ، بما في ذلك اتمام عملية توحيد اراضي الصين ، سيكون بالوسائل السلمية[٦] .

ومع ذلك فأن هذا التأكيد لا ينفي لجوء القيادة الصينية الى الوسائل العسكرية اذا ما شعرت ان اهدافها الاستراتيجية المرتبطة بوحدة وسلامة اراضيها معرضة للتهديد من قبل قوى خارجية . وهذا ما حصل عندما استنفرت الصين قواتها العسكرية وقامت باستعراض كبير للقوة عندما طورت الولايات المتحدة سياستها تجاه تايوان في اذار ١٩٩٦ ، الامر الذي ادى الى ان تشعر

القيادة الصينية ان التغيير في التوازن العسكري سوف لن يكون لصالحها وانه سيشجع الاتجاهات الاستقلالية في تايوان في حين بقيت الولايات المتحدة تعتبر نفسها بمثابة الدولة الضامنة لأمن تايوان في مواجهة التحركات الصينية، ومن ناحية اخرى تعتبر واشنطن ان علاقاتها مع تايوان ضرورة استراتيجية باعتبارها تمثل واحدة من اهم حلقات سلسلة تحالفاتها في شرق وجنوب شرق اسيا التي تبدأ من التحالف مع كوريا الجنوبية ثم التحالف مع اليابان في الشرق، ثم تمتد لتشمل تايوان ثم الفلبين في الجنوب الشرقي(٧) .

٢ ـ الحفاظ على وحدة اراضي الصين ، واعتبار ذلك واحدا من أهداف الصين لصيانة امنها الوطني . ومع اهمية هذا الهدف ، فأن القيادة الصينية تؤكد انها لن تكون الطرف البادىء باستخدام القوة العسكرية لحل النزاعات مع الدول المجاورة على مناطق الحدود ، والغاية التي تسعى اليها القيادة الصينية هي تجنب اية نزاعات حدودية مسلحة مع الدول المجاورة بغية التفرغ لمشاكل تعدها القيادةالصينية اكثر الحاحا كمشكلةتايوانوتوطيد اقدامالوجود الصيني في بحر الصين الشرقي والجنوبي ومعالجة جزر سبراتلي وحقوق التنقيب عن النفط في المناطق البحرية المتنازع عليها هناك .

٣ ـ وتعتمد الاستراتيجية الامنية للصين على اقامة علاقات صداقة وحسن جوار مع الدول المحيطة بها ، ففي ظل ظروف ما بعد الحرب الباردة ، اصبح الواقع يحتم على الصين ان تجعل من اولوياتها الاستراتيجية تطوير علاقات تعاون امني ثنائي وعلاقات حسن جوار مع الدول المجاورة . وانطلاقا من هذه الرؤية ، انصرفت الصين الى اعادة ترتيب علاقاتها مع الهند وعلى نحو ايجابي(٨) . وكان لهذا التطور مزايا ايجابية لكل من الطرفين . فالتقارب خفف وعلى نحو ملحوظ من حدة التوترات والخلافات الحدودية التي كانت الصين تعتقد ان الهند طرفا فيها وسببا في اثارتها ، وللهند من ناحيتها وجهة نظر حول المزايا التي يحققها التقارب مع الصين . فتطبيع العلاقات وتهدأتها بين البلدين من شأنه ان يقيد من الدعم الصيني لباكستان . وهناك قناعة متبادلة

من ان سياسات التقارب يمكن ان تحقق منافع اقتصادية مشتركة بفتح سوق اقتصادية تجارية يمكن ان تلعب دورا فاعلا في النشاط التجاري والاقتصادي الاقليمي .

وعلى صعيد علاقاتها مع روسيا ، فقد شهدت العلاقات الصينية ـ الروسية تحسنا واضحا اثر توقيع الطرفين عام ١٩٩٢ اتفاقية عدم الانضمام الى تحالفات عسكرية معادية تهدد امنهما على نحو متبادل(٩) . وفي ٢٥ نيسان ١٩٩٦ وقعت الصين وروسيا على اتفاق اخر لاقامة شراكة استراتيجية للقرن الحادي والعشرين قائمة على المساواة والثقة والتنسيق المشترك .. وقد نص الاتفاق على جملة قضايا امنية من بينها ، عدم التدخل بالشؤون الداخلية لكل من البلدين(١٠) . ويؤشر هذا المطلب اقرارا من جانب روسيا بسيادة الصين على اراضيها وان كل من تايوان والتبت هما جزء لا يتجزأ من اراضي الصين ، ومن جانب الصين فأن هذا البند يعني تعهد الصين بدعم كل الاجراءات الهادفة الى المحافظة على وحدة الاراضي الروسية ، واعتبار المسألة الشيشانية شأنا روسيا داخليا ، ان التزام الطرفين بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبعضهما يعني من جانب روسيا التزاما بعدم اتخاذ اية اجراءات من جانبها ضد جهود الصين الرامية الى اعادة تايوان والتبت وجزر سبراتلي ، وحتى في حال استخدام الصين للقوة العسكرية واحتمال تدخل الولايات المتحدة لجانب تايوان ، فان هذا الامر يحتمل ان يجر روسيا لتقف الى جانب الصين باعتبار ان التدخل الامريكي يعد تدخلا خارجيا في شؤون القارة الاسيوية . وبذلك تكون الصين قد امنت جانب روسيا حول المسائل الحدودية ، كما أمنت جانبها في حال تعرض الصين لعمليات عسكرية من جانب الولايات المتحدة(١١) .

كما شدد البلدان على ضرورة اجراءات الثقة العسكرية على الحدود بين الصين وكل من كازاخستان وطاجكستان وقرخازيا . وتنص الاتفاقية بشكل خاص على اقامة منطقة منزوعة السلاح على جانبي الحدود التي تمتد اربعة

الاف كيلومتر في اقصى شرق روسيا والمسافة نفسها تقريبا في اسيا الوسطى الى ما مجموعه ثمانية الاف كيلومتر .

في ضوء ما تقدم ، يتضح ان سياسات الصين الامنية ضمن حدود بيئتها الاقليمية تسعى الى ان تصبح بكين محورا للاقليم بغض النظر عن وجود اي قوى اخرى ذات مصالح في هذه المنطقة الحيوية من العالم . فضلا عن ذلك ، تعتبر الصين ان تنامي قدراتها القومية ، واضطلاعها بمهام حماية الامن الاقليمي من بين مهامها المستقبلية ، وهذه المهام لا يمكن تنفيذها مالم تصبح القوة العسكرية الصينية كافية وقادرة على حماية عمليات وآليات تحويل ذلك الى واقع عملي .

الجدلية الثالثة : القوة العسكرية

انعكست المتغيرات المرتبطة بتراجع دور الايديولوجية والطبيعة الاقليمية لسياسات الصين الامنية على الدور المناط بالقوة العسكرية وطبيعة المهام الموكلة اليها . فالتقارب مع الهند وروسيا ، والاعلان الدائم عن رغبة الصين بحل مشاكلها الاقليمية بالطرق السلمية ، والتأكيد على علاقات حسن الجوار ، كل ذلك ادى الى ان ينحصر الاهتمام بدور القوة العسكرية على تأدية وظيفة دفاعية اقليمية من دون ان تمتد لتأخذ ابعادا عالمية .

ورغم ان الصين تمثل قوة نووية الا ان الفكر الاستراتيجي الصيني لم يطور عقيدة عسكرية او مذهبا قتاليا تربط من خلاله قوة الصين النووية بمصالح امنها القومي على المستوى العالمي وبما يؤهلها من استخدام تلك القوة في التصدي لانماط من المجابهات ، نووية كانت ام تقليدية خارج حدودها الاقليمية وكما طورها الفكر الاستراتيجي الامريكي او الفكر الاستراتيجي السوفيتي سابقا ، ففي الوقت الذي جادل فيه الفكر الاستراتيجي الامريكي على ضروب من المجابهات (كالحرب النووية الشاملة ، القدرة على الرد بضربة انتقامية ، القدرة على خوض حرب محدودة تدار بأسلحة نووية تكتيكية ام بأسلحة تقليدية

... الخ) ، بقي الفكر الاستراتيجي الصيني غير مكتمل الشروط او غير واضح المعالم لمجادلات هذه الانماط من المجابهات مع الولايات المتحدة •

وربما يعود هذا الواقع الى جملة عوامل يأتي في مقدمتها ، ان احدى اشتراطات الارتقاء الى مستوى القوة العظمى على الصعيد العالمي ، يفترض تفوقا كميا ونوعيا على مستوى التساح النووي ، فالقطبية الدولية تركن الى معيار القدرة النووية العسكرية التي هي بلا شك انعكاس لقاعدة الدولة الصناعية والتقنية وقدراتها الاقتصادية والعلمية • وقدرات الصين النووية لم تكن قادرة على مجاراة القدرات النووية السوفيتية سابقا ولا على مجاراة القدرات النووية الامريكية حاليا •

وعلى هذا فأن التوازن الاستراتيجي بين القوى العظمى ، والمترتب عن مكانتها كمراكز استقطاب دولية ، يفترض اولا وقبل كل شيء ، تكافؤا نسبيا او تعادلا تقريبا لما بحوزة هذه القوى من اسلحة نووية ، ففي الوقت الذي تذهب فيه بعض التقديرات الى ان ما بحوزة الولايات المتحدة الامريكية ما مجموعه (٦٥٠) صاروخ عابر للقارات مزودا بعدة رؤوس نووية ، فان الصين لا تملك اكثر من (٤٠) صاروخ على احسن تقدير[١٢] •

فضلا عن الشكوك المثارة حول الخصائص التقنية لهذه الصواريخ كالقدرة على بلوغ الهدف والدقة في اصابته وحجم الدمار المترتب ومداها المؤثر ، وهي خصائص لاتقارن مع الخصائص التقنية لقوات الصواريخ الاستراتيجية الامريكية[١٣] •

اما سلاح القاذفات الاستراتيجية ، فان بحوزة الصين (٥٠) قاذفة استراتيجية ، (٣٠) طائرة منها من نوع ((TU - 4)) و (٢٠) طائرة منها من نوع ((L - 28)) : في حين تملك الولايات المتحدة (٣١٧) قاذفة استراتيجية تبلغ حمولتها (٤٩٥٦) رأس نووي[١٤] •

وفي الوقت الذي تملك فيه الصين (٤) غواصات نووية ، فان الولايات المتحدة تملك (٣٨٤) غواصة نووية من طراز بوسيدن وترايدنت[١٥] .

فضلا عن ذلك فان الولايات المتحـدة الامريكية تتفـوق على الصين في ميدان شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ وامكاناتها في تطوير برامج الحرب الفضائية ، كبرنامج حرب النجوم الذي اثبت عجـز السوفيت عن مجاراته في هذا الميدان .

من ناحية اخـرى ، فان احتمالات المواجهة الاستراتيجية الشاملة تطرح جدلا فكريا معقدا لتطوير انماط من الاسلحة النووية الهجومية كتلك الموجهة الى اسلحة الضربة الاولى للخصم واسلحة الضربة الثانية ، واهداف الخصم الأقتصادية ومراكزه الصناعية وتجمعاته السكانية ، الامر الذي يتطلب تحسين الخصائص التقنية لهذه الاسلحة وزيادة قدراتها التدميرية وتنوع وسائط نقلها وتعدد قواعد اطلاقها الثابتـة منها والمتحركـة ، كذلـك قدرتها على اختراق دفاعات الخصم الجوية .

وعلى هذا فان الجدل الذي يمكن ان يثار حول احتمالات مواجهة نووية يجعل من الخيارات المتاحة امام الولايات المتحددة الامريكية اوسـع من تلك المتاحة امام الصين في اطار المصداقية على الحاق الاذى والدمار الشامل والمؤكد .

وعليه فان الصين ولكـي تكـون قوة نووية عظمـى ولها ثقل مؤثر في سياسات الردع النووي (كما كان عليه الاتحاد السوفيتي سابقا) فان الامر يتطلب ان تزيد من قدراتها العسكرية النووية كما ونوعا والى مستوى يؤهلها لان تكون قوة معادلة او متكافئة نسبيـا مع الولايـات المتحدة الامريكية . كما عليها ان تطور سبل حمل اسلحتها التدميرية الى اراضي الخصم وان تخرق دفاعاته وان تلحق به ضـررا جسيما ، والا فأن ردعهـا ، وفي ضـوء قدراتها النووية الحالية ، سيكون ردعا محدودا[١٦] .

وهذا هو واقع الردع النووي الصيني ، انه من مستوى صغير ومحدود قياسا بالرادع النووي الامريكي ، اي انه لا يتوخى ردع الخصم عن جميع الاعمال التي لا يرغب فيها الصينيون ، وانما عن تلك الاعمال التي تهدد امن الصين ، وعلى الاخص شن هجوم مباغت عليها •

وفي ضوء ما تقدم ، يمكن القول ، ان محدودية قدرات الصين في ميدان التسلح النووي لا تؤهلها لان تتبوأ مكانة القوة العظمى المتفوقة عسكريا على الصعيد العالمي •• وبالتالي لم يكن بمقدورها ايضا ان تطرح نفسها كقوة عظمى بديلة عن الاتحاد السوفيتي ومناظرة للولايات المتحدة الامريكية •• صحيح ان الصين تتطلع الى الارتقاء بقدراتها العسكرية الى المستوى الذي يؤمن لها حماية ذاتية ضد احتمالات هجوم قد يشن ضدها من قبل قوى خارجية الا انها لا تسعى ، من ناحية اخرى ، الى توظيف التفوق العسكري كأداة للضغط والمساومة من اجل الحصول على مكاسب سياسية ذات ابعاد ومضامين عالمية[١٧]• وبقى التوظيف السياسي لقدراتها العسكرية محصورا باطار امنها الوطني ومصالحها الاقليمية[١٨] •

من جانب اخر ، وعلى صعيد السياسات العسكرية الصينية ، لا تتوقع القيادة الصينية ان يكون معدل نمو القوة العسكرية للصين خلال الخمسة عشر عاما القادمة اقل من معدل النمو الاقتصادي ، الذي يحظي باولوية في هذا المجال وفي عام ١٩٩٤ كان الانفاق الدفاعي للصين يمثل نسبة ٣ر١٪ من اجمالي الناتج المحلي •• واذا ما نجحت الصين في تحقيق معدل نمو سنوي نسبته ٨ ٪ خلال الخمسة عشر عاما القادمة ، وقامت بزيادة انفاقها الدفاعي الى ماقيمته ٢٪ من اجمال الناتج المحلي فان ذلك الانفاق سوف لن يتعدى (٤٠) بليون دولار في العالم (٢٠١٠) وفي ظل هذا القدر من الانفاق المنخفض نسبيا، لايتوقع المعنيون بشؤون الدفاع ان تصبح القوات المسلحة الصينية ذات قدرات هجومية ، وسوف تظل هذه القوات ذات طبيعة دفاعية[١٩] •

وفي الوقت الحالي يعد مستوى التقدم التكنولوجي للقوات المسلحة الصينية متخلفا عن مستوى القوات المسلحة الامريكية بما يعادل ٤٠ عاما

واذا استطاعت القوات المسلحة الصينية ان تنجز ثلاثين عاماً من التطور التكنولوجي خلال الفترة حتى العام ٢٠١٠ ، فان مستواها في ذلك الوقت سوف يصبح معادلاً لمستوى القوات المسلحة الامريكية في حقبة الثمانينات[٢٠]. ولكن اذا قارنا المستوى التكنولوجي للقوات المسلحة الصينية بالمستوى التكنولوجي للدول الاخرى المحيطة بالصين (كالهند ، باكستان ، كازاخستان وفيتنام .. الخ) فاننا سوف نلاحظ ان الصين تتساوى ، ان لم تكن تتفوق ، على الكثير من هذه الدول .

والى جانب الامكانات البشرية الهائلة لدى الصين وضخامة حجم الجيش الصيني (٢٠٠ر٢) مليون جندي ، فان الصين تستطيع ان تتقاتل في معركة طويلة الامد اعتمادا على القدرات الصينية الكامنة[٢١] .

ومن ابرز توجهات سياسات الصين العسكرية في مجال الاتفاق الدفاعي السعي لبناء جيش اصغر حجما ولكنه افضل في امكاناته وقدراته . ومثل هذا التوجه بوشر به منذ عام ١٩٩٠ حيث انخفض عدد القوات المسلحة بنسبة ٢٥٪ وبذلك انخفض عدد الجيش النظامي الى (٢٠٠ر٢) بعد ان كان (٢٥٠ر٣) مليون جندي . كذلك انخفض عدد الميليشيات الشعبية واصبح عدد المناطق العسكرية الكبرى سبع بعد ان كانت احدى عشر منطقة . وقد تم تنفيذ هذه الاصلاحات بهدف تحويل الجيش الصيني الى جيش محترف مهمته الاساسية الدفاع عن البلاد ضد اي اعتداء خارجي كما تغيرت الى حد كبير طبيعة انشطة الوحدات العسكرية التي كانت مكرسة فيما مضى لانجاز مهام سياسية وايديولوجية[٢٢] .

الجدلية الرابعة : تزايد الاهتمام بالعامل الاقتصادي

امام تراجع دور المتغير الايديولوجي والطبيعة الاقليمية لسياسات الأمن الصينية ومحدودية الدور المناط بالقوة العسكرية انصرف اهتمام القيادات الصينية الى مشكلات اخرى تؤمن سبل معالجتها فرصا للارتقاء بالصين الى مصاف القوة الفاعلة والمؤثرة في التفاعلات السياسية الدولية ، وفي عالم تعطى فيه

الاولوية لشروط التميز في ميدان النمو والتنافس الاقتصادي .. وفي الواقع فأن المعضلة الاقتصادية شكلت ، ومنذ عام ١٩٤٩ ، هاجسا مقلقا في تفكير القيادات الصينية[٢٣] ، وتظافرت جملة عوامل داخلية (كمحدودية القدرات والموارد الاقتصادية وتراجع الخطط التنموية) واخرى خارجية (الموقف الامريكي والسوفيتي في ان تبقى الصين ضعيفة داخليا وغير مؤثرة خارجيا)[٢٤] هذه العوامل شكلت كوابح حقيقية حالت دون ان تضطلع الصين بدور عالمي يؤمن لها مكانة متميزة .

الا ان محاولات الصين في ان تصبح قوة اقتصادية كبيرة وبارزة على الساحة الدولية تعود الى عام ١٩٧٨ بعد ان تم التخلي عن ايديولوجية الثورة الثقافية التي اعلنها الزعيم الصيني ماوتسي تونغ ، وسياسة الانفتاح والاصلاح التي اعلن عنها الزعيم دينج شياو بينج ، والذي اعطى الاولوية للنمو الاقتصادي واعتبره متقدما على الاعتبارات الايديولوجية والعسكرية ، حيث كان يرى انه من الضروري الانفتاح على اسواق العالم وتطوراته العلمية واساليبه التكنولوجية بهدف تحديث الاقتصاد والصناعات الصينية والارتقاء بها الى مكانة متقدمة[٢٥] .

لقد استندت عملية الاصلاح الاقتصادي في الصين الى آلية تنمية القطاع غير الحكومي بكل مؤسساته ، واتبعت في هذا الميدان سياسات اقتصادية داعمة منها تنمية معدلات الادخار كنسبة من الناتج القومي الاجمالي لتصل الى نحو ٣٣٪ في بداية التسعينات[٢٦] ، كما اتجهت تلك السياسة الى معالجة اثار المعدلات العالية لتزايد عرض النقد لضمان توافر السيولة النقدية الكافية للنمو الاقتصادي السريع ولاسيما ارتفاع معدلات الاستثمار الثابت ، واستهدفت السياسات الاقتصادية ايضا كبح جماح التضخم من اجل تفادي عدم الاستقرار الاقتصادي[٢٧] .

كما اتجهت سياسة اصلاح النظام الاقتصادي الى اصلاح اسواق السلع برفع الرقابة الحكومية عن انتاج العديد من السلع ، فضلا عن تسعيرها وتسويقها

والابقاء على القيود المفروضة على استيـــراد السلع الاستهلاكية والانتاجية غير المتطورة والتي تنافس المنتجات الصينية للمؤسسات غير الحكومية مما وفـــر الحماية للصناعات المحلية الناشئة .

وفي اطار سياسة الاصلاح الريفي، ارتبطت تنمية القطاع غير الحكومي ارتباطا وثيقا بالسياسات الاصلاحية للاقتصاد الريفي ، حيث استهدفت هذه السياسات تنمية المؤسسات الجماعية الريفية والمؤسسات الخاصة كوسيلة مهمة لتحفيز النمو في الانتاج والعمالة الريفيين .

وتتيجة لسياسة الاصلاح الريفي ، ولاسيما تنمية الانشطة غير الزراعية التي تقوم بها المؤسسات الجماعية الريفية غير الزراعية زاد الدخل الريفي بمعدل (١٢٫٥٪) خلال حقبـة الثمانينـات ، ممـا ادى الى نمو الطلب على السلـع الاستهلاكية والخدمات[٢٨] .

اما المؤسسات الريفية فقد اخذت تتطور في ارياف الصين منذ بدايـــة الثمانينات ، واصبحت الان عماد الاقتصاد الوطني وجزءا مهما منه ، ففي عـام ١٩٩٣ بلغت نسبة انتاجها ٥٩٪ من قيمة الانتاج الاجمالية في الارياف[٢٩] .. كما قامت الدولة في مجال الاصلاح الريفي بتأجير الاراضي المملوكـة للدولة وفق عقود عمل طويلة الاجـل الى المزارعين وتقـوم مؤسسات الدولة بشراء المحاصيل الزراعية وفق قوانين العرض والطلب ، الامر الذي ادى الى تحسـين اداء المزارع الصيني وزيادة دخله .

وتأتي السياسة التكنولوجية كواحدة من ابرز السياسات التي اتبعتهـا الصين لاصلاح اقتصادها .. ففـي عام ١٩٨٦ تم الشروع ببرنامج (سبارك) وهو برنامج وطني يرمي الى تقديم المساعدات التقنية الى المؤسسات الجماعية الريفية من اجل زيادة امكانياتهـا في الحصـول على التكنولوجيا وتحسين نوعية منتوجاتها وزيادة قدرتها التنافسية وتزويدها بالمعلومات المتعلقة بالاسواق والمهارات التقنية والتنظيمية ، فضلا عـن ذلك فان البرنامـج يتضمن الخطط واعداد الاستراتيجيات الانمائية الشاملة ، اما في ميدان الملكية الخاصـة فقد

تمثلت السياسات الحكومية بتعديل الدستور عام ١٩٨٧ بحيث تم تطويع النص الذي يحدد مستوى الانتــاج الخاص بالانتاج الاســري ليشمل المؤسسات الخاصة التي يعمل فيها عدد غير محدد من العمال ، واستنادا الــى ذلك اعلنت الحكومة في عام ١٩٩٢ موقفها الداعم لتنمية المؤسسات الخاصــة رامية بذلك الى اقامة اقتصاد اشتراكي سوقي ، وعلى هذا فقد اعلنت الدولة مجموعة من الاجراءات شملت تقليل القيود المفروضة على نطاق عملياته ودخوله في صناعات معينة وتشجيع تنمية انتاجه التصديري ومشاركتــه في مشاريع مشتركة برأس مال دولي ، كما سمح بأبرام اتفاقات القروض وعقود التجهيز •

وفي اطار السياسة التجارية الخارجية والاستثمارية فقد ارتكزت الصين على مبدأ تزايد اللامركزية الشاملة منذ عام ١٩٨٥ ، حيث استندت السياسات الاقتصادية في هذا الميدان على جملة مبادىء اساسية منها السماح للمؤسسات الريفية بالتصدير مباشرة بدلا من الشركات الاجنبية التجارية ، وتخفيض القيود المفروضة على المعاملات بالنقد الاجنبي وتحديد سعر صرف السوق ، وتنمية الانتاج التصديري الموجه للخـارج في المقاطعات الساحلية في اطار ما عرف بالاستراتيجية الانمائية الساحلية،ووضع خطة لربط المؤسسات الجماعية الريفية بالسوق الدولية ، مما ادى الى توسيع نطاق هذه المؤسسات ودخولها سوق التنافس الدولي ، وقـد ادى هــذا الوضــع الى توفـير الائتمانات الممنوحة للمؤسسات الريفية الموجهة نحو التصدير وكذلك تشجيع جذب الاستثمارات الاجنبية في مجال التكنولوجيا المتقدمة وفتح الطريق امام التكتلات الدولية التي يمكنها نقل التكنولوجيا المتقدمة ورؤوس الاموال •

ان سياسة الاصلاح الاقتصادي في الصين واستراتيجية تنمية القطاع غير الحكومي اسفرت عن نتائج مهمة كان من بين ابرز مؤشراتها :

١ ـــ تنامي معدلات الناتج المحلي الاجمالي : فقد حقق الناتج المحلي الاجمالي معدل نمو في المتوسط يبلغ ٩ر٩٪ خلال المدة ١٩٨١ ـــ ١٩٨٨ ، وارتفع هــذا المعدل من ٨٪ في عام ١٩٩١ الــى ٤ر١٣٪ عام ١٩٩٤ ، وسجل معدل نمو بلغ عام ١٩٩٥ (٧ر١١٪) كما هو موضح في الجدول رقم (١) :

معدل نمو الناتج المحلي الاجمالي في الصين للفترة من

١٩٨١ ــ ١٩٩٥

السنة	معدل النمو
١٩٨١ــ١٩٨٨	٩ر٩٪
١٩٨٩	٣ر٤٪
١٩٩٠	٩ر٣٪
١٩٩١	٨٪
١٩٩٢	٢ر١٣٪
١٩٩٤	٤ر١٣٪
١٩٩٥	٧ر١١٪

اما نسبة الناتج الاجمالي للصين كنسبة مئوية من الناتج المحلي العالمي فقد بلغ عام ١٩٩٥ (١ر٣٪) ٠

المصـــدر : U.N. World Economic Survey, 1995, P 51.

٢ ــ تنامي معدلات الناتج الصناعي : حيث حقق الناتج الصناعي معدلات عالية بالقياس مع معدلات نمو الناتج الزراعي ، ففي الوقت الذي حقق فيه الناتج الزراعي معدلات نمو بلغت ٧ر٣٪ عام ١٩٩١ و ٤٪ عام ١٩٩٥ حقق الناتج الصناعي معدلات نمو بلغت ٥ر١٤٪ عام ١٩٩١ و ١٩٪ عام ١٩٩٥ ، وكما هو موضح في الجدول رقم (٢) :

السنة	معدلات نمو الناتج الزراعي	معدلات نمو الناتج الصناعي
١٩٩١	٧ر٣٪	٥ر١٤٪
١٩٩٢	٣٪	٨ر٢٠٪
١٩٩٣	٤٪	١ر٢١٪
١٩٩٥	٤٪	١٩٪

المصـــدر : U.N. World Economic Survey, 1995, P 41

من ناحية اخرى فان الناتج الصناعي للقطاعين الحكومي وغير الحكومي، قد حقق هو الاخر معدلات مرتفعة ، ففي عام ١٩٩٥ بلغ معدل نمو الناتج الصناعي للمؤسسات الحكومية ٤ر٦٪ في حين حقق الناتج الصناعي للمؤسسات غير الحكومية معدلات مرتفعة بلغت ٧ر١٤٪ علما بان الناتج الصناعي لكلا القطاعين حقق نسبة نمو بلغت ١ر٢١٪ لنفس العام كما هو موضح في الجدول رقم (٣) :

جدول رقم (٣) معدلات نمو الناتج الصناعي للصين
حسب مصدر الانتاج الصناعي لعام ١٩٩٥

نوع الناتج الصناعي	معدل النمو
الناتج الصناعي للمؤسسات الحكومية	٤ر٦٪
الناتج الصناعي للمؤسسات غير الحكومية	٧ر١٤٪
معدل نمو الناتج الصناعي الكلي	١ر٢١٪

المصدر : Statistical Bureau of China, 1995.

٣ ـ زيادة متوسط نصيب الفرد من قيمة الناتج المحلي الاجمالي : كان من بين مؤشرات النمو الاقتصادي التي حققتها سياسات الاصلاح الاقتصادي ، ان زاد الناتج المحلي الاجمالي للصين من ٢٥٣ مليار دولار عام ١٩٨٣ الى ٦٥٨ مليار دولار عام ١٩٩٥ (بدولارات عام ١٩٨٨) ولقد زاد متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي من ٢٤٣دولار عام ١٩٨٣ الى ٥٤٦ دولار عام ١٩٩٥ ، وبذلك حقق متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي معدلا حقيقيا للنمو قدره ٤ر٨٪ خلال المدة ١٩٨٤ ـ ١٩٩٥ ، كما هو موضح بالجدول رقم (٤) .

جدول رقم (٤) يوضح قيمة الناتج المحلي الاجمالي
ومتوسط نصيب الفرد منه في الصين ١٩٨٣ ـ ١٩٩٥ .

سكــان الصــين

١٩٨٣	١٠٤٠ مليون نسمة
١٩٩٥	١٢٠٥ مليون نسمة

معدل نمو الصين للمدة (١٩٩١ ــ ١٩٩٨) ٤ر١٪

الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٨٣	٢٥٣ مليار دولار
الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٩٥	٦٥٨ مليار دولار

متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٨٣ ـــ ٢٤٣ دولار
متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٩٥ ـــ ٥٤٦ دولار
معدل النمو الحقيقي لمتوسط نصيب الفرد (٤ر٨٪) للفترة ١٩٨٤ ـــ ١٩٩٥

المصــدر : U.N. World Economic Survey, 1995, P. 15 and, P. 259.

ولقدرافق تطورات معدل نمو الناتج المحلي الاجمالي زيادة كبيرة في معدل رأس المال الثابت الاجمالي والذي ارتفع من ٨ر٢٣٪ عام ١٩٩١ الى ٦ر٥٠٪ عام ١٩٩٣ والــذي انخفض الى ٣١٪ عام ١٩٩٥ ، ليعكس عمــق التطــور الاقتصــادي المعاصر للصــين ، وقــد تم تمويل الجــزء الاكبر من رأس المال الثابت من المصادر المحلية(٣٠) .

٤ ـ زيادة تدفق رأس المال والاستثمار الاجنبي : نتيجة للسياسات التي اتبعتها الصين في حقل القطاع الخارجي وازاء الملكية الخاصة والملكية والاستثمار الاجنبي، زاد تدفق رأس المال الاجنبي الى الصين من (٨ر١٨) مليار دولار عام ١٩٩٢، الى ٨ر٣٦ مليار دولار عام ١٩٩٥ مشكلا نسبة ١٨٪ من رأس المال الثابت الكلي، وتنيجة لذلك زاد الاستثمار الاجنبي المباشر الى ٢٦ مليار دولار في عام ١٩٩٥، مقارنة بنحو ١٢٥٨ مليونا عام ١٩٨٤ كما هو مبين في الجدول رقم (٥) :

جدول رقم (٥) يوضح الاستثمار الاجنبي المباشر
في الصين خلال المدة ١٩٨٤ ــ ١٩٩٥

السنة	مقدار الاستثمار الاجنبي بمليون دولار
١٩٨٤	١٢٥٨
١٩٨٦	١٨٧٤
١٩٨٨	٣١٩٣
١٩٩٠	٣٤٨٧
١٩٩٣	١٧٠٠٠
١٩٩٥	٢٦٠٠٠

المصدر : الحالة الاقتصادية في العام ١٩٩٥ ، ص ٣٩٥

جدول رقم (٦) يوضح رأس المال الاجنبي المتدفق الى
الصين للفترة ١٩٩٢ ــ ١٩٩٥ بمليار دولار

السنة	مقدار رأس المال الاجنبي المتدفق الى الصين
١٩٩٢	١٨ر٨ مليار دولار
١٩٩٥	٣٦ر٨ ملياز دولار

المصـــدر : U.N. World Economic Survey, 1995, P. 51

وتشير التقارير الى ان حجم الاستثمارات المباشرة التي تقوم بها شركات امريكية في الصين يبلغ ٤ر٨ مليار دولار ، اما بالنسبة للاستثمارات التايوانيـة فتقدر بنحو (١٠ ــ ١٥٪) من اجمالي الاستثمارات الاجنبية ، ومثل هــذا الحجم من الاســتثمارات التايوانية يدفع البعـض للقول بامكانية التكامـل الاقتصادي بين الصين وتايوان •

لقد حققت الصين نتيجة السياسات الاقتصادية الكلية والقطاعية نسبا عالية من الادخار بلغت ما يعادل ٣٠٪ من الناتج القومي الاجمالي خلال الثمانينات والنصف الاول من التسعينات ، ولقد ادى الاصلاح الاقتصادي الريفي الى زيادة دخول المزارعين وزيادة مدخرات الفلاحين زيادة واسعة النطاق . كما ادى النجاح الواضح الذي حققته الصين في القطاع الزراعي الى وفرة الغلال الصناعية ، اذ حققت اكتفاءاً ذاتيا في الصناعات التي تعتمد على الغلال الزراعية ، كما تمكنت الصين ايضا من خلق طاقة تصديرية عالية يتم عن طريقها جذب رؤوس الاموال ومن ثم تعزيز الاقتصاد الوطني .

وفي مجال الانتاج الصناعي تمكنت الصين من المحافظة على ملكية الدولة للمصانع لكنها منحت الحرية التامة لادارة وتنظيم واستثمار مواردها الذاتية والمحافظة على هذه الملكية يعد بحد ذاته نجاحا كبيرا بالرغم من النجاح الذي حققه الانتاج الصناعي غير الحكومي مقارنة بالحكومي اما بالنسبة للقطاع الخارجي ، فنلاحظ زيادة قيمة الصادرات الصينية من (٢٠ر٤) مليار دولار في عام ١٩٨٠ الى ٦٥ر٨ مليار دولار عام ١٩٩٠ والى (٧٥) عام ١٩٩٣ .. اما قيمة الواردات فقد زادت من (٢٢ر٨) مليار دولار عام ١٩٨٠ الى ٦٢ر٤ مليار دولار عام ١٩٩٣ ، وحقق الميزان التجاري الصيني فائضا قدره ١٢ر٦ مليار دولار عام ١٩٩٣[٣١] .

ان هذه الانجازات التي حققتها الصين تؤكد ان مسألة النمو الاقتصادي حظيت بأولوية ضمن الخيارات المتاحة لها لان تكون في عالم الغد القوة القادرة على مجارات الكتل الاقتصادية المتنافسة ، وهي اذ تدرك هذه الحقيقة ، فان قناعات القيادة الصينية تذهب الى ان لا قوة عسكرية من دون قاعدة اقتصادية ـ تقنية متقدمة ومتطورة ، الامر الذي يؤهلها لان تكون قوة ذات تأثير في محيطها الاسيوي على اقل تقدير .

الخاتمة والاستنتاجات :

يكشف التحليل المرتبط بجدليات الاستراتيجية الصينية عن بعض انماط تفكير القيادة الصينية لاكثر الموضوعات اهمية حول الدور الذي يمكن ان تضطلع به الصين في المحيطين الاقليمي والدولي وطبيعة قدراتها في ان تشكل مركزا للاستقطاب الدولي •

ولا يبدو في ضوء النقاش الذي تقدمنا به وفرضياته الاساسية ان ما يشغل التفكير القيادي للصين هو ان تلعب دور الدولة القائد على الصعيد الايديولوجي ، اذ لم تعد الايديولوجية تتمتع بالجاذبية في عالم اخذت فيه الولاءات العقائدية للماركسية اللينينية بالتراجع على نحو واضح والى حد اخذت الصين تكيف فلسفتها الاجتماعية وتجري عمليات اعادة تقويم ومراجعة لسياستها الاقتصادية بما يتوافق والتحولات العالمية للاخذ بمفاهيم السوق الحر والمنافسة الاقتصادية •

من دون شك فان هذه التحولات النوعية على مستوى الفكر والعقيدة السياسية كان لها انعكاس على عقيدتها الامنية التي توصف بانها اقليمية اكثر من ان تكون عالمية• كما وان الدور الذي يمكن ان تضطلع به القوة العسكرية وعلى اختلاف صنوفها القتالية سيكون متماشيا مع هذه التوجهات• اذ لا يبدو ان الصين قادرة على مجارات المشكلات العالمية الا بالقدر الذي ترتبط فيه بمفهومها للامن الوطني الصيني •

اما قوتها العسكرية النووية فستكون مخصصة للقيام بوظائف الردع من النوع المحدود ، وهو الاخر سيرتبط من حيث فاعليته بمصالح الصين الحيوية وذات الطبيعة الاقليمية •

تبقى المسألة الاقتصادية ، وهي الشغل الشاغل للصين بسبب من اهميتها في عالم اخذ يتحول نحو التنافس الاقتصادي والتكتلات الاقتصادية العالمية ، ورغم ان الصين قد حققت انجازات اقتصادية مهمة في هذا الميدان ، فان هناك

اتجاه يذهب الى ان التحسن الاقتصادي المضطرد الذي حققته الصين يواجه مشاكل جدية ويثير لديها العديد من المخاوف منها المخاوف المتعلقة بالاقاليم التي بدأت باتنهاج سياسات لتطوير صناعاتها المحلية وحمايتها ايضا في اطار التنافس الداخلي ، وادى هذا الطرح المكشوف الذي اصبحت الحكومة غير قادرة على السيطرة عليه الى تعميق التفاوت الاجتماعي والى التضخم والى تفشي الفساد . وهذه الظواهر ادت بدورها الى تفتيت القشرة الايديولوجية للنظام الصيني واضعاف ساطته .

كما هناك مخاوف من ان يبتلع النمو السكاني ، الذي هو نتاج التقدم الاقتصادي وتدني نسبة الوفيات وتقليص حالات الفقر وانتعاش مستوى المعيشة ، الانجازات الاقتصادية ويقود الى خلق مشاكل اجتماعية قد يصعب السيطرة عليها .

وهناك مخاوف من نوع اخر ناجمة عن تدهور البيئة . ففي كل عام تخسر الصين نحو خمسة بلايين طن من سطح تربتها ويختفي نحو ١ر١ مليار هكتار سنويا من الارض الزراعية بسبب امتداد مساحة المدن الى الخارج ، وتتلوث الاف الاميال من الانهار بالمواد الصناعية الكيماوية اما الهواء في بكين فهو ملوث بثلاث عشرة ضعفا مقارنة بهواء نيويورك مثلا ، وملوث باكثر من خمس وثلاثين ضعفا من تلوث الهواء في لندن . وعلى هذا فان اثار التلوث البيئي ستزداد على نحو ملحوظ اذا لم يتم نقل التكنولوجيا الصناعية اليها وعلى نطاق واسع .

وكما سبقت الاشارة ، اذا كان التدفق الاستثماري الاجنبي وعملية التحرير الاقتصادي لاسيما في المناطق الساحلية قد ايقظت الحس التجاري لدى الصينين ، فان مثل هذا التوجه قد يؤدي الى اثارة نزعات الاستقلال التي تنتاب هذه المناطق حيث الازدهار الاقتصادي حيث الازدهار الاقتصادي في ذروته ، لذا فأن التخوف الماثل امام الصين هو حل التناقضات بين المضي في تخفيف منجزات التحرر الاقتصادي وظهور هذه النزعات وبعبارة اخرى

ان على الصين ان تحل التناقض الناشيء بين اقتصاد السوق الذي يسير حتما باتجاه الرأسمالية او كما تسميه الصين (اقتصاد السوق الاشتراكية) ورغبة السلطة في احكام مركزيتها السياسية ، بمعنى حل التناقض بين اقتصاد رأسمالي صيني والحكم المركزي الشمولي •

ومما زاد من التخوف الناجم عن الاقتصاد السياسي هو ان النظام الاقتصادي الصيني لم يحدد بعد الى اي مدى ستنسحب الدولة من القطاع العام الذي بات يستنزف المزيد من مواردها •

واخيرا ، هناك المخاوف الناجمة عن الضغوط الاقتصادية التي تمارسها الولايات المتحدة الامريكية • حيث ان تنامي قوة الصين الاقتصادية اخذ يثير الولايات المتحدة من ان يكون للصين شان كبير في عالم الكتل والقوى الاقتصادية المؤثرة ، ومن ان تصبح عملاقا اقتصاديا تشارك بفعالية في تحديد مسارات التجارة الدولية • وعلى هذا وضعت الولايات المتحدة (٧) شروط على بكين الالتزام بها مقابل استمرار حصولها على التسهيلات التجارية • والملاحظ ان معظم هذه الشروط ترتبط بقضية حقوق الانسان والمعتقلين السياسيين وقضايا التسلح النووي • ومن هنا باتت اهلية الصين للمحافظة على وضعها التجاري والاقتصادي مسألة سياسية اكثر من كونها مسألة اقتصادية في علاقاتها مع الولايات المتحدة الامريكية •

وهنا تجدر الاشارة الى ان الولايات المتحدة اذا ما وجدت ان الاقتصاد الصيني بات يحتل موقعا متقدما في الاقتصاد العالمي ، فمن غيرالمستبعد ان تقوم برسم سياسة عدائية ضدها • ومن غير المستبعد ان تكون قوة الاقتصاد الصيني عامل تهديد للسياسات الاقتصادية الامريكية او لمصالح الولايات المتحدة الامريكية من اجل ادخالها تحت عباءة الهيمنة الامريكية ومن ثم تتخلص من منافس خطير لها في الساحة الاقتصادية الدولية •

هوامش البحث :

١ ـ انظر للتفاصيل :

Charles Lerche and Abdul A. Said, Concepts of International Politics, Prentice Hall N.J 1970, PP. 212 - 215.

كـــذلك :

Andrew Scott, The Functioning of The International Political System, MacMillan, N.J, 1967, PP. 41 - 68

٢ ـ راجع للتفاصيل حول مظاهر التحول في العلاقات السوفيتية ـ الامريكيـة وما اصابها من انفراج :

J.W. Burton, International relations, A General Theory, Cambridge University Press, London, 1967, P. 97.

٣ ـ انظر للتفاصيل حول هذا الموضوع ، يروس بورتو ، انياب الكرملين ، دور السوفيت في حروب العالم الثالث ترجمة ، الفاتح النيجاني ، منشـورات هاي لايت ، ١٩٨٥ ص٢٢ وما بعدها .

كـــذلك :

Carstan Halbraad, Super Power and International Conflict, N.Y, St. Martins Press, 1979, P. 35.

٤ ـ راجع بذلك وللتفاصيل :

William G. Hyland, U.S-Soviet relations, The Long road, Block Foreign Affairs, Vol, 60, No. 3 1982, PP 525-526.

٥ ـ انظر بذلك :

Information office of the State Council,Reunification of the Main Land Nov. 1995.

٦ ـ ومع ذلك فأن المناورات العسكرية التي قامت بهـا القوات المسلحة الصينية وبمختلف صنوفها القتالية في بداية اذار ١٩٩٦ أثارت شكوك قوية حول مدى التزام الصين بذلك المضمون لفتـرة طويلة وكهـدف اسـتراتيجـي بعيد المـدى .

٧ ـ انظـــــر :

Time Mag, 18, March, 1996.

٨ ـ قامت الهند والصين اثر سياسات التقارب بتوقيع اتفاقيات للتعاون عــام ١٩٩١ وفي مجالات التجارة الخارجية والفضاء والعلـوم والتكنولوجيا . انظر للتفاصيل حول تطبيع العلاقات الصينية ـ الهندية مجلة افاق عربيـة العدد (١١) ، ١٩٩٣ ص٥٢ وما بعدها .

٩ ـ بموجب هذا الاتفاق حصلت الصين من روسيا الاتحادية على حاملة طائرات روسية من طراز (خارياج) لتعزيز قدراتها الدفاعية البحرية في بحر الصين والمحيط الهندي ، كما حصلت على (٢٤) طائرة مقاتلة روسية من طراز (S - 27) لتعزيز قدراتها الجوية الهجومية ، فضلا عن تزويدها بسربين من هذه الطائرات وسرب اخر متطور من طائرات (SU - 31) راجع للتفاصيل التقرير المنشور في :

Washington Post, 7/8/1992

١٠ـ نشرت وكالة الانباء العراقية نص الاتفاق ، راجع بذلك مضمون الاتفاق في تقرير الوكالة بتاريخ ١٩٩٦/٤/٢٧ .

١١ـ هذا الاتجاه اكده وزير الخارجية الروسي (بريماكوف) ووزير الخارجية الصيني (كيان كيشين) عندما اشارا الى ضرورة (التصدي المشترك لاية محاولة من قبل اية دولة كانت للتدخل في الشؤون الداخلية للاخرين) راجع :

Times, 15/5/1996

١٢ـ هذه الارقام استقيت من :

The Military Balance, International Institute for Strategic studies, IISS, London, 1993.

١٣ Ibid

١٤ـ Ibid

١٥ـ Ibid

١٦ـ انظر : د. كاظم هاشم نعمه ، الوجيز في الاستراتيجية ، شركة اياد للطباعة الفنية ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص٢٩٥ .

١٧ـ انظر : د. مازن اسماعيل الرمضاني ، السياسة الخارجية الصينية في عالم متغير ، شؤون سياسية ، العدد (٤) السنة الاولى ١٩٩٥ ص١٤٧ ومابعدها

١٨ـ وقد تأكد ذلك في أزمة تايوان في مطلع اذار ١٩٩٦ حيث جرى استعراض واسع للقوة العسكرية ، كما هددت الصين بالاحتكام الى سلاحها النووي اذا ما ترتب عليها عدوان امريكي . وهذا يؤشر ان الردع النووي الصيني مرتبط بالامن الوطني للصين ذاتها ، وانها غير مستعدة لان تجازف بمواجهة نووية في قضية تذهب الى ابعد من ذلك .

١٩ـ راجع :

Contemporary International Relations, CICIR. Vol. 6. No. 2, 1996

٢٠ـ Ibid

٢١ـ راجع بذلك وللتفاصيل :

China Today:Defence Science, National Defence Industry Press, Beijing 1993, P.2.

٢٢ ـ انظـــــر :

Contemporary Relations, OP. Cit.

٢٣ـ راجع للتفاصيل حول مشكلات النمو الاقتصادي والسياسات التي اتخذتها الصين في هذا الميدان : د. حميد الجميلي ، الصين والعهد الاقتصـــادي الجديد ، مجلة شؤون سياسية ، العدد (٤) السنة الاولـى ١٩٩٥ ص١٣٤ وما بعدهـا .

كذلك : د. مازن اسماعيل الرمضاني ، السياسة الخارجية الصينية فـي عام متغير ، مصدر سبق ذكره ص١٥٣ وما بعدها .

٢٤ـ د. مازن اسماعيل الرمضاني نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

كذلك : سوسن حسين ، الصين هل تصبح القوة العظمى الاولى في القرن الحادي والعشرين ، مجلة السياسة الدولية ، العـــدد (١١٥) ، ١٩٩٤ ، ص ٥٨١ ـ ٥٨٦ .

٢٥ـ انظر للتفاصيل : د. حميد الجميلي ، مصدر سبق ذكره .

٢٦ـ راجع للمزيد من التفاصيل :

S.K. Singh, Security Enviroment of South Asia, Strategic Analysis, May, 1994, Vol. XV 11. No.2 .

٢٧ـ انظر : د. مازن الرمضاني ، مصدر سبق ذكره .

٢٨ـ راجع بذلك : S.K. Singh. OP Cit.

٢٩ـ يوجد الان في الصين ١٩ مليون مؤسسة ريفية ، يعمل فيها ٩٦ مليــــون شخص تشمل مجالاتها على الصناعة والزراعة والنقل والبناء والمواصلات والتجارة والمطاعم ، راجع بذلك د. حميد الجميلي مصدر سبق ذكره .

٣٠ـ انظر للتفاصيل حول هذا الموضوع :

Statistical Bureau of China, 1995

٣١ـ راجع بذلك :

UN. World Economic Survey, 1994, P. 272.

بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة

من بين الموضوعات المهمة التي حرص المجمع العلمي على مناقشتها كان موضوع الدراسات العليا ، أذ ناقشته الهيئة العامة خلال ثلاث جلسات ، وتم وضع الافكار والآراء التي جرى طرحها في ورقة بعنوان : « الدراسات العليا في العراق ــ فلسفتها وواقعها وسبل الارتقاء بها » التي أعدتها لجنة شكلتها الهيئة العامة لهذا الغرض ، وناقشتها الهيئة العامة فيما بعد في جلسة رابعة لاغنائها •

تنشر في هذا الجزء من المجلة الورقة المذكورة •

الدراسات العليا في العراق
فلسفتها وواقعها وسبل الارتقاء بها

المقدمة

لقد أخذت دول كثيرة تتبارى ضمنا او صراحة في مدى قدرتها على تحقيق معدلات نمو عالية ، ادراكا منها لمحصلة العلاقة الطردية بين عملية نموها وارتقائها الحضاري ، وبضمنه ضمان امنها وتحقيق رفاهيتها وتأمين هيبتها الدولية •

على ان النمو ، الذي يعكس عملية اجتماعية ، ارادية ، تكاملية ، تراكمية ، شاملة ، دينامية وهادفة يقترن بتلك الآليات التي تؤمن انتقال المجتمع نوعيا من حال الى حال مصحوبا بزيادة انتاجية العمل ، كماً وكيفاً ، ومن بينها العلم ، الذي اصبح الفيصل بين التنمية والتخلف •

فكما قال السيد الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله ورعاه)

« لم يعد بالامكان لاية امة ان تعيش كأمة محترمة ، وان يكون لها دور في المجتمع الانساني العالمي لبناء الحضارة او الحضارات الانسانية من دون ان تحترم العلم ويكون لها باع محدد في تطوير اكتشافاته واستخداماته » .

بيد ان تمكن المجتمعات من العلم وتطبيقاته يتوقف على نوعية قناعاتها بجدواه وعلى ما يخصص له من موارد ، وتهيئة البيئة العلمية المناسبة . فبعضها صار يحرص على ان يتعلم الانسان اسلوبا للحياة صيغ على منوال اسلوب الحياة الذي عليه ان ينهجه في المستقبل . وتكمن الاداة في ان يتعلم الانسان كيف يتعلم الجديد .

ولم يكن هذا الحرص بمعزل عن جهد تاريخي لافراد ومؤسسات ادركوا جدوى تجديد الفكر والفعل سبيلا للارتقاء بالاستجابة الحضارية الى مستوى تحديات العصر .

ومن بين المؤسسات التي تضطلع بهذه المهمة ، وبالقدر الذي يتعلق بالدراسة الجامعية ما بعد الاولية ، مؤسسة الدراسات العليا بوصفها جزء لا ينفصل عن عموم مؤسسة التعليم العالي .

ان الحالة التي أفرزها الحصار الشامل الجائر استدعت على الرغم من معوقاتها ، المضي في اعداد الانسان العراقي لكي يكون قادرا على حمل الرسالة ومتابعة المسيرة بخطوات واثقة وايمان بالنصر . وقد عبرت ندوة النهوض بالتعليم العالي في العراق ، التي قادها السيد الرئيس القائد صدام حسين ، في عام ١٩٩٢ عن هذا التصميم .

وبعد مرور خمس سنوات على هذه الندوة التاريخية ، عمد المجمع العلمي ، انطلاقا من مسؤولياته وواجباته المحددة في قانونه ، الى التأمل في

سبل النهوض بالدراسات العليا في العراق تأمينا للاهداف المتوخاة جراء عقد تلك الندوة • وكمحصلة لجلسات عمل ، خرج المجمع العلمي بالانطباعات الاتية التي تعتمد على خبرة اعضائه وتجربتهم العملية •

وتتوزع هذه الدراسة على اربع فقرات : الاولى تتناول فلسفة التعليم العالي في العراق في ضوء الفلسفة الاجتماعية والتربوية للعراق • اما الثانية فتتعلق بفلسفة الدراسات العليا فيه على وفق مضمون الفقرة الاولى • اما الفقرة الثالثة فهي تعرض واقع الدراسات العليا • وتطرح الفقرة الاخيرة رؤية المجمع العلمي لبعض سبل الارتقاء بالدراسات العليا في العراق ، كتوصيات •

١ ـ فلسفة التعليم العالي في العراق :

يقصد بمفهوم الفلسفة تلك المحاولة التي تتبنى التفكير مدخلا للفهم الشمولي لحقيقة الكون او الانسان او الاشياء •

وبهذا المعنى فانها ترمي الى بلورة رؤية فلسفية للعالم بمكوناته المتنوعة •

والفلسفة كرؤية ، هي تنظير يرمي الاجابة عن سؤال مركزي قوامه لماذا ؟

وغني عن البيان ان التنظير يعد ضروريا لكل فعل سيما وان الفعل الذي لا يتأسس على فكر يسبقه يبقى في الاقل فاقدا للاصالة ، وعاجزا عن احداث التغيير خدمة للاهداف المتوخاة •

ويشير التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن (كانون الثاني ١٩٧٤) حول التربية والتعليم الى الاتي :

« تتطلب المرحلة المقبلة اعادة نظر جذرية وشاملة في اوضاع الجامعات وتحويلها من مراكز تقليدية لتخريج الطلبة الى مراكز لبناء الجيل الجديد ومراكز للبحث العلمي والتخطيط للمستقبل والاسهام الطليعي في التحولات الثورية في القطر » .

ويرى حزب البعث العربي الاشتراكي ، الذي يقدم مشروعا حضاريا نهوضيا مستقبليا ، ان بناء الانسان على نحو يسنوي والتقدم الحضاري للانسانية هو الغاية والوسيلة في آن . وبهذا الصدد يؤكد التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع للحزب (١٩٨٢) حول التحولات الاجتماعية والثقافية الاتي :

« ان الانسان هو الهدف الاسمى بالنسبة للحزب وثورته . لذلك فان النضال والعمل يجب ان يتضامن من اجل تطوير الحياة الروحية والمادية للفرد والمجتمع فبالاضافة الى تحقيق اهداف التطور المادي لحياة الإنسان والمجمع لابد للثورة من ان تسعى لبناء انسان جديد ، انسان متكامل الصفات ، سليم البدن والعقل ، حر وسعيد ، ملتزم التزاما عميقا بمصلحة الوطن والامة وقضاياها الرئيسية ، متطور ثقافيا واجتماعيا ، نشيط ومنتج ومبدع ، قادر على تحمل المهمات الصعبة والدقيقة ، ومواجهة الاخطار التي تحدق بالمجتمع والامة ، محب للحياة وفي الوقت نفسه مستعد للتضحية حتى بالنفس من اجل الوطن ومصلحة المجتمع » .

والقيمة التي يوليها حزب البعث العربي الاشتراكي للانسان العربي تكرس رؤية انسانية لدوره .

فالانسان استثمار لا ينضب . كما ان دوره في تحقيق النهوض وصناعة المستقبل الافضل حاسم . لذا يصعب تصور مثل هذا النهوض بمعزل عن ابداعات الانسان الفكرية والعلمية . فالحضارة صناعة بشرية .

٢ ــ فلسفة الدراسات العليا في العراق

تشكل الفلسفة الاجتماعية ، التي افرزتها ثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، الاطار العام والاساس الذي تنبع منه الفلسفة التربوية المعتمدة في العراق ، وبضمنها فلسفة الدراسات العليا •

وتدور هذه الفلسفة حول كيفية تأهيل طالب الدراسات العليا في العراق تأهيلاً رفيع المستوى يؤمن انجاز الاهداف التي تصب في تعزيز منعة العراق والوطن العربي ، وتضمن مشاركته في تحقيق الغاية النهائية للمشروع الحضاري للأمة •

ولانجاز ما تقدم نرى ان تتضمن اهداف التعليم العالي في العراق الآتي :

٢ ــ ١ اهداف التعليم العالي

يسعى التعليم العالي الى المشاركة الفاعلة في تحقيق المشروع الحضاري النهضوي للعراق والامة عبر الاتي :

٢ ــ ١ ــ ١ اعداد ملاكات (او اطر) تتوافر على مؤهلات متميزة للتعليم الجامعي ، ودراسة المجتمع العربي في ماضيه وحاضره ومستقبله دراسة علمية ، واكتشاف القوانين التي تؤمن حركته على طريق الوحدة والارتقاء مع التساح بالقدرات النضالية والايمان الذي يشكل قاعدة للتضحية من اجل المبادىء •

٢ ــ ١ ــ ٢ اعداد اصحاب الاختصاص لتطوير الانتاج ، كما ونوعا وفي مختلف القطاعات •

٢ ــ ١ ــ ٣ ــ تشجيع اجراء البحوث العلمية التي تثري العلم وتتصدى لحل مشكلات المجتمع ، وتؤمن التنمية ، وتؤصل الصناعة ، وتنهض بالزراعة ، وتطور الادارة •

٢ـ١ـ٤ تنمية المعارف المتقدمة في العلوم والاداب والفنون ، ومتابعة التطور العلمي في العالم ، وتوثيق الروابط بين الجامعات العراقية والجامعات العربية والعالمية .

٢ـ١ـ٥ متابعة الخريجين وتقديم خدمات التعليم المستمر تحسينا لكفاءاتهم على وفق احدث التطورات العلمية والتقنية .

٢ـ١ـ٦ الاسهام في رفع الكفاية في قطاعي الانتاج والخدمات عبر تقديم الخدمة المباشرة والاستشارة العلمية لهم .

٢ـ١ـ٧ تبسيط العلم والمعارف التقنية ونشرها على صعيد المجتمع لرفع مستواه العلمي والثقافي .

٢ـ٢ اهداف الدراسات العليا

تتوزع هذه الاهداف على مستويين : عام وخاص .

٢ـ٢ـ١ المستوى العام

ويقترن بالاتي :

٢ـ٢ـ١ـ١ الهدف العلمي والعملي ، الذي يفيد اهمية العلم منهجا ومحتوى ، فكرا وتطبيقا .

٢ـ٢ـ١ـ٢ هدف الاصالة والتجديد ، الذي يؤكد ضرورة التمسك بخير ما في الماضي من قيم وتراث من دون انغلاق على روح العصر والمستقبل .

٢ـ٢ـ١ـ٣ هدف التعليم المستمر ، الذي يؤمن للانسان العراقي تعلم الجديد وفرض ذلك من دون قيود في الزمان والمكان .

٢ـ٢ـ٢ المستوى الخاص

ويعبر عن الاهداف الاتية :

٢ـ٢ـ٢ـ١ اعداد الانسان العراقي اعدادا قيمياً وعلمياً وعملياً وبما يؤمن قدراته على مواجهة التحديات والملتزم بقضايا الوطن والامة ،

والذي لا يكتفي بتلقي العلم ، واستهلاك الثقافة ، وانما يفكر فيتساءل ، ويسائل ليحتار ، ويحتار ليبحث ، ويبحث لينتج ويبدع ، وبذلك يكون اهلا لتحمل مسؤولية الوجود والفعل والبنـــاء •

٢ـ٢ـ٢ـ٢ رفد مؤسسات التعليم العالي بتدريسيين مؤهلين تربويا وعلميا ومهنيا •

٢ـ٢ـ٢ـ٣ بلورة مدارس بحثيـة في شـتى حقول المعرفة تستهدي بتراث الامة وحضارتها وقيمها وعناصر ديمومتها متفاعلة مع التطـور الحضاري للانسانية •

٢ـ٢ـ٢ـ٤ دعم مؤسسات الدولة ومراكز البحث العلمي بأطر وملاكـات عالية الكفاية والدراية والقدرة على استشراف المستقبل •

٢ـ٢ـ٢ـ٥ توظيف الدراسات العليا ، في العمـوم ، لحل المشـاكل التي تفرزها حركة المجتمع ، وخطط التنمية ومتطلبات الارتقاء وربط مؤسسات التعليم العالي بالمجتمع •

٢ـ٢ـ٢ـ٦ جعل الجامعات العراقية رافدا مستمرا لتراكم المعـرفة وتنمية الثقافة الاصيلة والتقانة الجديدة •

٢ـ٢ـ٢ـ٧ تحويل الجامعات العراقية الى مؤسسات للتعلم وبما يؤمـن التفاعل الخلاق بين الطالب والتدريسي ويجعله اساس العملية التعليمية •

٢ـ٢ـ٢ـ٨ الارتقاء بعملية التدريس ، اداء ومضمونا •

على ان هذه الاهداف الطموحة ، بمستوييها العام الخاص ، قد تصطدم بواقع لا يلبي المنشود ، لذا فأن حدوث فجوة بين الطموح والواقع يعد محتملا •

٣ ـ واقع الدراسات العليا في العراق

٣ـ١ بدأت الدراسات العليا في العراق خلال عقد الستينات من هـذا القرن على صعيد محدود ففي العام الدراسي ١٩٦٧/١٩٦٨ بلغ عدد طلبة الدراسات العليا (١٢٥) طالبا وطالبة فقط •

على ان نمو اعداد هؤلاء الطلبة لم يبدأ الا منـذ عقد السبعينات ، ولاسباب لها علاقـة بادراك ثورة ١٧ـ٣٠ تمـوز لاهمية الانسان وفاعلية دوره في تحقيق التنمية الشاملة والنهوض الحضاري •

ففي العام الدراسي ١٩٧٧/١٩٧٨ ، مثلا كان عددهم (٢٠٧٤) طالبا وطالبة • ونتيجة لنمو الموارد المالية ، جراء قرار التأميم الخالد ، والتوسع بالتالي في فتح الجامعات وانتشار الدراسات العليا فيها ، فقد ازداد عددهم تدريجيـا • ففـي العام الدراسي ١٩٨٧/١٩٨٨ مثلا وصل العدد الى (٤٣٢٣) طالبا وطالبة •

على ان معدل النمو لم يتسارع الا بعد فرض الحصار الشـامل الجائر على القطر وما تمخض عنه من منع طلبة العراق من مواصلة دراساتهم خارجة • وهكذا ارتفع عددهم في العام الدراسي ١٩٩٥/ ١٩٩٦ مثلا الى (٧٩٦٣) طالبا وطالبة • اما في العام الدراسي الحالي فقد ارتفع الى ما يقرب من تسعة الاف وخمسمائة طالب وطالبـة • ومما ساعد على هذا النمو المخرجات الايجابية التي افرزتها ندوة النهوض بالتعليم العالي ومثالها الاتي :

٣ـ١ـ١ كسر الحاجز النفسي الذي تجسد سابقا في تردد اعضاء من هيئات التدريس عن التدريس في الدراسات العليـا • والاشـراف على اطروحات الطلبة ولا سيما لمرحلة الدكتوراه بأختصاصات العلوم الصرفة والتطبيقية •

٣ــ١ــ٢ تزايد اعداد الطلبة الخريجين ، وتحمل بعضهم مسؤولية التدريس في الجامعات العراقية •

٣ــ١ــ٣ــ دخول اعداد من الملاكات المتميزة في دوائر الدولة الى الدراسات العليا بمستوييها : الماجستير والدكتوراه •

٣ــ١ــ٤ اتجاه الجامعات العراقية الى التوسع في فتح اختصاصات علمية وانسانية وقبول طلبة الدراسات العليا فيها •

٣ــ٢ على أن هذه المخرجات الايجابية وسواها تزامنت مع معوقات بعضها من خارج التعليم العالي وبعضها الاخر من داخله • وابرزها الآتي على سبيل المثال :

٣ــ٢ــ١ محدودية التخصيص المالي

ان التخصيص المالي للتعليم العالي والبحث العلمي لا يتناسب مع الزيادة في عدد الطلبة المقبولين في الدراسات العليا ولا مع التضخم ولا سيما في السنوات الاخيرة •

وقد نجم عن هذا المعوق مجموعة نتائج مهمة ، ومثالها الانخفاض النسبي لرواتب التدريسيين ، وصعوبة توفير مستلزمات الدراسة للطالب من كتب ومختبرات ووسائل تعليمية اخرى ضرورية لادامة فاعلية العملية التعليمية والارتقاء بها • هذا فضلا عن تقلص كلفة إعداد الطالب في المراحل التعليمية كافة • إن انخفاضها يمكن ان يكون مؤشرا على ضعف المستوى العلمي • فالتعليم الجيد يقتضي توافر المؤسسات المسؤولة عنه على مدخلات مالية جيدة •

٣ــ٢ــ٢ طغيان الجانب الكمي على النوعي

تعد سياسة التوسع في الدراسات العليا في الجامعات العراقية استجابة حضارية لتحدي الحصار الشامل الجائر وقد افرزت مخرجات ايجابية ، بيد ان هذا لا ينفي ان يجعل وزارة التعليم العالي والبحث

العلمي قد اعتمدت سياسة الباب المفتوح في قبول الطلبة • ولم تؤد هذه السياسة الى تراجع تلك الفكرة التي مؤداها ان الدراسات العليا ، هي للمتميزين من الطلبة ، حسب ، وانما كذلك الى اغراق الجامعات العراقية بأعداد من الطلبة غير المؤهلين للدراسات العليا ، بأستثناء حصولهم على شرط الحد الادنى للقبول • ان الدراسات العليا لا تعني ان يكون كل من يحمل درجة البكالوريوس ويتوافر على هذا الشرط مؤهلا لدراسة الماجستير ، أو ان يكون كل من يحمل درجة الماجستير مؤهلا لدراسة الدكتوراه • ان التطبيق العالمي يؤشر ان الدراسات العليا هي فقط للمتميزين من الخريجين •

٣ـ٢ـ٣ محدودية التواصل العلمي للتدريسيين العراقيين

لقد ادى الحصار العلمي الى تعطيل تفاعل التدريسي العراقي في العموم ، مع التطور العلمي العالمي في حقل اختصاصه وعرقلة تواصله الفكري مع زملائه في الاختصاص الواحد خارج العراق • ان تفاعل ذلك مع تردي الحالة الاقتصادية لقطاع واسع من التدريسيين دفع الى أن تكون المتابعة العلمية والتفكير والتأمل والانتاج العلمي دون المطلوب ، مما اثر ، في العموم ، على نوعية ادائه العلمي •

٣ـ٢ـ٤ الاشراف العلمي على رسائل الدراسات العليا

لقد اضحى الاشراف على هذه الرسائل يتميز ، في العموم ، بالتآكل في جديته • فالتجربة تفيد انه صار ، في احيان ، يوزع توزيعا آليا على التدريسيين لمساعدتهم ماليا • هذا فضلا عن تزايد اثر العلاقات الشخصية ، في احيان اخرى ، على اجازة رسائل الدراسات العليا بغض النظر عن نوعية مستواها العلمي •

٣-٢-٥ هجرة العقول

شهدت السنوات الماضية تصاعدا في معدل تسرب اصحاب الكفاءات الى خارج العراق بطرق متعددة ، وكثير منها غير قانوني نتيجة لظروف المالية التي يمر بها اساتذة الجامعة مما ادى الى فقدان عدد لا يستهان به من خيرة الاساتذة الجامعيين في حقول اختصاصاتهم .

٣-٢-٦ ضعف الارتباط بين التخطيط للدراسات العليا والتخطيط العام للمجتمع .

٣-٢-٧ غياب التنسيق بين الجامعات العراقية في مجال الدراسات العليا مما ادى الى التكرار والازدواجية احيانا في التخصصات المختلفة .

٣-٢-٨ ضعف التمويل المخصص للبحث العلمي مما جعله محدودا .

وفي ضوء ما تقدم ، فان بعض مخرجات الدراسات العليا بعد ندوة النهوض بالتعليم العالي ، لا تستوي وطموحاتها في اعداد مفكرين وتدريسيين جيدين . ان عدم القدرة على تحقيق هذا الطموح المهم ينطوي على خطورة ، فقطاع التعليم العالي متى ما دخله اناس غير مؤهلين ، ولو بنسبة محدودة ، فان الخلية ستتوسع تدريجيا ، والنتائج السلبية ستتكاثر وتتعمق .

٥ - سبل الارتقاء بالدراسات العليا في العراق : التوصيات

من أجل نهوض الدراسات العليا الى مستوى التطور العلمي العالمي يقترح المجمع العلمي التوصيات الاتية :

٥-١ اعادة النظر في سياسة قبول الطلبة في الدراسات العليا/الماجستير والدكتوراه وحصرها بالمتفوقين من الخريجين .

٥-٢ تحديد اعداد الطلبة المزمع قبولهم على وفق امكانات الاقسام العلمية المتاحة والحاجة للاختصاصات في ضوء العلاقة مع خطط التنمية .

٥ـ٣ تهيئة المستلزمات الضرورية لفتح الدراسات العليا قبل البدء بها ، سواء على صعيد التخطيط ، أو توفر الملاك التدريسي والاداري والفني ، فضلا عن المستلزمات المالية .

٥ـ٤ تطوير المكتبات ورفدها بالكتب والدوريات العلمية بطرق غير تقليدية ، وبضمنه زيادة عدد ساعات عملها خارج اوقات الدوام الرسمي سبيلا لتقديم الخدمة العلمية للباحثين وطلبة الدراسات العليا .

٥ـ٥ التوسع في الدراسات العليا على صعيد الاختصاصات النادرة على حساب الاختصاصات غير النادرة والدراسات الاولية .

٥ـ٦ تنسيق الدراسات العليا للاقسام المتناظرة في كليات تابعة للجامعة الواحدة .

٥ـ٧ تخصيص موازنة مستقلة للدراسات العليا والبحث العلمي ضمن موازنة مؤسسات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

٥ـ٨ دعم اختصاصات الدراسات العليا في الاقسام العلمية التي تفتقر الى التدريسيين حاليا ، كالرياضيات مثلا ، بشكل استثنائي .

٥ـ٩ توثيق الرسائل الجامعية مركزيا على مستوى الجامعة الواحدة مع التنسيق بين الجامعات تجنبا لتكرار الدراسة نفسها هنا وهناك .

٥ـ١٠ توظيف الرسائل الجامعية على نحو يوازن بين الحاجة الى حل مشكلات المجتمع ، ودعم خطط التنمية وبين الحاجة للبحوث الاساسية في العلوم الانسانية والصرفة والتطبيقية .

٥ـ١١ التوجه نحو تعيين الخريجين الجدد من الدراسات العليا حملة شهادة الدكتوراه في جامعات المحافظات دعما لها وذلك بمنحهم امتيازات تشجيعية مضافة .

٥ـ١٢ الحد من تعيين حملة الماجستير ضمن الملاكات التدريسية مع تشجيع حملة هذه الشهادة من اعضاء هيئة التدريس على اكمال دراستهم العليا •

٥ـ١٣ معالجة الوضع الاقتصادي والاجتماعي للتدريسي العراقي وبما يؤمن المحافظة على مكانته داخل المجتمع ، وانصرافه الى عمله العلمي بكفاءة ، ويحد من هجرة العقول العراقية باعتبارها ثروة قومية تقتضي الضرورة المحافظة عليها •

٥ـ١٤ تأمين التواصل العلمي والفكري والمهني بين التدريسي العراقي وزملائه في الاختصاص خارج العراق عبر الاستفادة الكاملة مثلا من الاتفاقات المعقودة مع الجامعات العربية والعالمية •

٥ـ١٥ـ تطوير الدراسات الاولية في الجامعات العراقية مدخلا مهما لتطوير الدراسات العليا فيها •

٥ـ١٦ الاهتمام بتدريس اللغة الاجنبية لمواكبة حركة العلم في العالم وتقويم امتحان الكفاءة باللغة الاجنبية المعمول به حاليا كشرط لقبول طلبة الدراسات العليا •

٥ـ١٧ تشجيع الشركات الصناعية والزراعية ، الحكومية والمختلطة والخاصة ، على تقديم الدعم المادي للبحث العلمي وتخصيص نسبة من الارباح ، معفية من ضريبة الدخل ، لهذا الغرض ، فضلا عن تطوير آلية التعاون والبحوث التعاقدية •

٥ـ١٨ تعميق التقاليد الجامعية الاصيلة سبيلا لبلورة المناخ العلمي المناسب للارتقاء بمستوى التعليم العالي •

٥ـ١٩ عقد ندوة لتقويم كفاءة الدراسات العليا في العراق بعد ندوة النهوض بالتعليم العالي في العراق •

ان المجمع العلمي اذ يقدم هذه الدراسة انما ينطلق من حرصه على الاسهام في رفع المستوى العلمي لقطرنا في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخه وهو يشق طريقه الى العبور الناجز بقيادة السيد الرئيس صدام حسين حفظه الله ورعاه ، منطلقا من ان بنـاء الانسان العراقي بنـاء تربوياً وقيمياً وعلمياً صحيحاً هو حجر الاساس لبناء المجتمع الجديد وتحقيق الغاية النهائية لمشروعنا الحضاري •

المجمـع العلمـي
شـعبان ١٤١٨هـ
كانون الاول ١٩٩٧م



Journal

of the

ACADEMY OF SCIENCES

Quarterly Journal - Established 1369 H - 1950

Add: ACADEMY OF SCIENCES.

P. O. Box 4023 WAZYRIA, AADAMEA, BAGHDAD - IRAQ

Tel: 4221733 - 4222066 Fax: (964 - 1) 4254523

— Annual Subscribtion : In IRAQ (4000) I. D.

Outside IRAQ (50 Dollar) air mail not included



Journal
of the
ACADEMY of SCIENCES

No. 3

Vol. 44

1418 H - 1997